

NDU SPIRIT

الدِّينَامِيَّةُ النَّقَابِيَّةُ الَّتِي تَجَلَّتْ أُخِيرًا حَشْوَدًا شَعْبِيَّةً، من قطاعات وظيفية وشرائع اجتماعية وأطراف سياسية وعائلات روحية، هي في رأي الرِّوَاةِ غِصْنُ الزَّيْتُونِ الَّذِي يَنْبِئُ بِانْحِسَارِ الطُّوفَانِ.. بانبعث الفينيقي من جبلة الرَّمَادِ.

فإلى اليوم، ومنذ نحو أربعة عقود، وبسبب من مفاعيل الاحتلالات والوصايات والانقسامات وقواها لَبْجًا وِبَلْصًا، لم نَرِ في الشَّارِعِ مَنْ يرفعُ صوته سائلًا حقًّا، دافعًا ظلمًا، مسميًا مكامنَ الأدواء. لقد عاد الرِّبِيغُ النَّقَابِيُّ! هل عاد حقًّا؟

ومن عجيبٍ ما لا يُعْجِبُ أَنْ أُولِي الأَمْرِ ما زالوا على تَعَنَّتَاتِهِمْ وإمعاناتِهِمْ، بل تباكياتهم ولامبالاتهم... والبلادُ والعبادُ إلى زلازلٍ وإفلاسات. فهؤلاء، هل يدرون ماذا يفعلون؟

التَّارِيخُ مليءٌ بالعبر: من فرنسا إلى روسيا إلى أميركا اللاتينية وسواها، حيث أُسْقِطَتِ الأنظمةُ الاستبداديةُ والأحلافُ الإقطاعيةُ والكتلُ الرأسماليةُ على أيدي العمَّالِ والفلاحين وسائرِ العامَّةِ طلابِ الحَفْصَةِ من العيشِ الكريم...

ونحن، أما لنا عهدٌ بالعاميات؟

بلى. إن العاميات باتت على الأبواب؛ وإننا في انتظار ليخ فاليسا ما (١٩)...

التَّحْرِير

NDU Spirit دورية حول علامات

الحياة في عالم جامعة سيّدة اللويزة

هاتف: 6 / 208994 (09) - هاتف/فاكس: (09) 2214205

موقع الكتروني: www.ndu.edu.lb/research/ndupress/spirit

رئيس التحرير

جورج مغامس

التحرير بالانكليزية

ماريو نجم

التضيد بالعربية

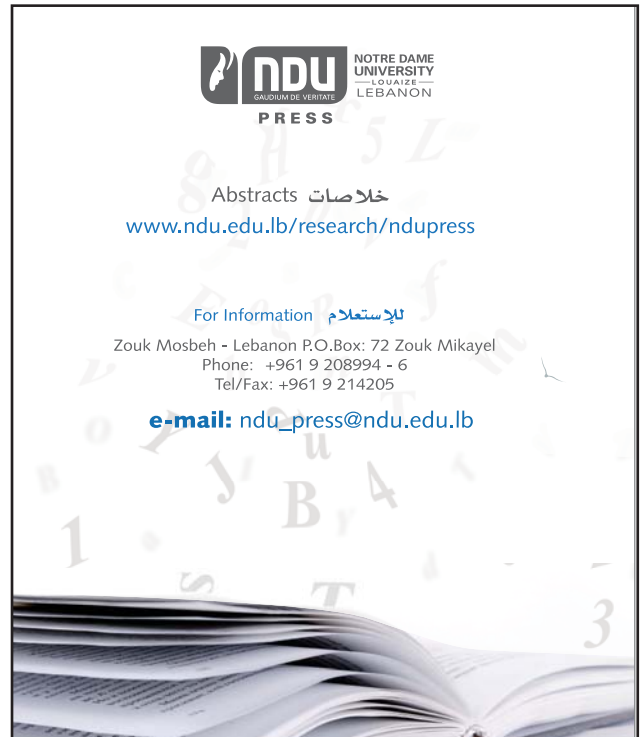
ليديا زغيب

تصوير

ع. بجاني، م. بو شبل، ن. نصر

تنفيذ

مطابع معوشي وزكريا



NDU NOTRE DAME UNIVERSITY
GAUDIUM DE VERITATE
LEBANON
PRESS

Abstracts خلاصات
www.ndu.edu.lb/research/ndupress

For Information للإستعلام
Zouk Mosbeh - Lebanon P.O.Box: 72 Zouk Mikayel
Phone: +961 9 208994 - 6
Tel/Fax: +961 9 214205
e-mail: ndu_press@ndu.edu.lb

(إن الآراء الواردة في الـ NDU Spirit تعبر عن كتابها والمشاركين، وليس بالضرورة عن المحررين.)



وجوه

- ١٨ إميل مبارك شاعر الضيعة
- أديب القسيس
- ٢٤ خليل روكز
- حكمت حنين

مدارات

- ٦ بنديكتوس.. حضوراً بكرسيّ وكنيّة
- ٧ فيليب سالم في الجامعة
- ١٠ أنطون قازان نصباً
- ١١ النائب نعمّة الله أبي نصر يحاضر...
- ورئيس الجامعة يعلن...
- ١٢ حبيب شاميّة (ر.م.م.) أسقفاً للموارنة في الأرجنتين
- ١٣ من خصاد العمل الرعويّ الجامعيّ

كلمة

أختي الصّنيّة، أنا
بيروت التي...
جورج مغماس

٤

مقالات

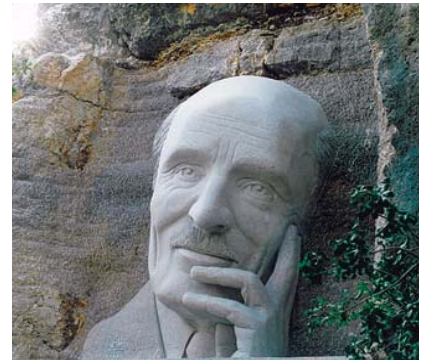
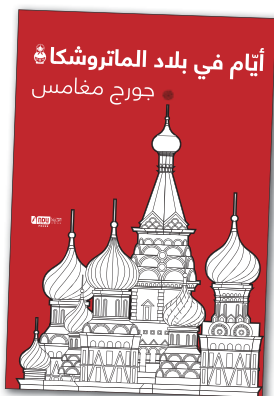
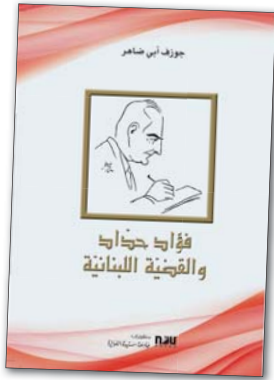
- ٤٧ التربية المريميّة
- المطران مارون العمار
- ٥٠ الكنيسة الكاثوليكيّة والحرب
- الأب فرنسوا عقل
- ٥٥ البطريركيّة المارونيّة والسياسة
- د. جورج لبكي
- ٦١ رسالة إلى البابا فرنسيس
- إيلي مارون خليل
- ٦٣ الأزمات التي تمرّ بها الأسرة
- د. ديزيره القرّي
- ٦٦ منطقة البيورو في خصائصها ومستقبلها
- د. لويس حبيقة
- ٦٨ كسروان عبر جيل من الأدباء والشعراء
- جان كמיד
- ٧٠ القصيدة الإنكليزيّة الحديثة في القرن العشرين
- د. ديزيره سقال
- ٧٢ دفاعاً عن الكيان... لا تأزاً من النظام
- د. أنطوان يوسف صفير

أبحاث

- ٣٦ ظاهرة الوجد الذوبانيّ في
- أدب ميخائيل نعيمة
- د. جان نعوم طنّوس

ملفّات

- ٢٩ جواد بولس كما لم تعرفوا عنه!؟
- سيمون عوّاد
- ٢٣ جواد بولس...
- جورج مغماس



مراجعات

- ٧٦ «تجاوز الحطام» مع د. أمين
ألبرت الرّيحاني
د. عصام الجوراني
- ٨٣ «تجاوز الحطام»...
رؤى نقدية تتخطى الحطام إلى
أفق جديد
د. جميل الدويهي
- ٨٢ «فؤاد حدّاد والقضية اللبنانية»
لجوزف أبي ضاهر

قصة

- ٧٣ عسل بلدي
شربل شربل

شعريّات

- ٩٠ خواطر حول اغتيال عاصمة
أنطوان رعد
- ٩١ عيونك وهبّ الهوا...
كلمة...
الياس زغيب

براعم

- ٩٠ الحريرة
نور سعد الدين



جورج مغامس

أختي الصّنين، أنا بيروت التي...

أما تذكرين ذاك الويال العظيم؟
وكيف لا تذكرين الأعناق على المقاصل، والأرزاق على المناجل،
والآفاق أبالسة ترصد الطرائد... تشحن أنياب التناين؟!

لقد أغاروا، وأغروا في الصدور، مرغوا الأنوف بالمُغرة
الحمراء، غلّوا الأغلال.. هتكوا هضوا استسقدوا ضرموا
القبور.. فقام قومٌ على قوم، وبيتٌ على بيت.. وملت المللُ
الأديان!

ألا إنك لتذكرين؛ وكيف تنسين؟!
كيف تنسين أكبداً في التُّرب، في منفىٍ ومعقلٍ؛ والأفواه
انكسرت عيونها على الطوى أضمّر البدن؛ والآلام أهاتها

اعتصرت.. سقت أكؤس الخلّ غيظاً وحنظلاً؟
كيف تنسين التدمير والتّهجير، ومزروعات أنلقت، وأشجاراً
اقتلعت، ومصانع أقلت، ومتاجر نُهب،.. حياة هانئة رغيذة

مطمئنة صرمت بددت خرّقا؟

هل تنسين تلك السنين؟!

أختي الوجلى، يا صورةً مستعادةً من أتون تيمورلنك، أنا بيروت
التي لم تعرف النوم إلا قليلاً: في الملاجئ قبعت.. على الأدراج،
وافترشت العراء..، أضاعت بؤصلة الحقائق، وقادتها الأوهامُ
إلى الرّهانات الخاطئة.. إلى الرّهانات المميّنة.. تناوبت عليها
الكوابيس، توالى الصُّرُوع..

أنا بيروت التي رُذلت وعزلت ووطنت بالأقدام... هُمشت وهُشمت
وطردت من محافل الأيام وأفق الأحلام البهية، ألقيت في
الظلمة البرّانية.. في دوامة الفراغ والعدم..

أختي الصّنين، باسمينة الشبايبك في بردى، هل تذكرين كيف
كنت وكنا.. وكان ما كان بيننا ما لن يبلى على الأيام، وإن تطلّ
آبادا؟

هل تذكرين كم دورة للدم دارت، كم حجرٍ بحديد النارِ ذلّ؟
هل تذكرين الدمع مدارار.. مرثاة موصولة الأنفاس، والحنز
فوارا.. ولولة الرّيح بالمهد باللحد بالهجمات تفتقد الأجساد؟
أختي الصّنين، أنا بيروت.. بيروت الشهيدة.. بيروت التي أحرقت
وجها الجميل بكبريت الحمم، دنسوا فيها المحافل وما خطّ
بالبركار والقلم، خضبوا قميصها الرّقراق بالخنجر المسموم..
أنا التي سرقوا مني فرحي، قلادة الزمرد، وحاتماً جمعت
بفيروزه أنشودة الحبّ وصناعات السلام..

أنا المكلومة تجللت بأشواك الصّلبان ومجالد الأحقاد، ورأت
أولادها عراة على قارعات الطّرق وفي أسواق النّخاسة.. أرضفة
الأمم الجائرة..

هل تذكرين، يا أيتها النازفة حتى آخر عرقٍ في تاريخك العريق،
يا أول بيوت التاريخ،.. هل تذكرين ذياك الإثم ولوّما ما التأمت
منه المكاره ولا الجراح؟

هل تذكرين العصافير كيف رُوّعت، كيف هُجرت، كيف صارت
بلا أعشاش ولا حناجر، كيف طاردت ريشها الصّواريخ والقنابل؟
أخت الصّنى، ألعلك لا تذكرين عمامات الأئمة اجثتت.. واجثتت
محاريب؛ والكنائس صودرت أجراسها.. كُمت بقبايبها البشاراتُ
السعيدة؛ ودورا أفضرت دون فرسانها والأعياد؛ والألى كانوا
النّباريس أطبق عليهم العي والخرس..

دُهمة كبرى!

تَكَسَفَتِ الأَنجَمُ والتَجَّتِ القِيمُ...

حَطَّه السَّيْلُ من عَلٍ.. منطقة الملاحِبِ بلا قواعدَ ولا حُكَّامٍ..
منطقة القضاء على الأملِ المنشودِ وأسبابِ الرِّجاءِ.
إنَّها المنطقةُ التي إذا سقطَ فيها نظامٌ غاشمٌ قامَ على أنقاضه
الغشَّامُ، لأنَّ العسكرةَ في سياقِ بدلٍ لا تعيرُ لتداولِ السَّلتةِ
اعتباراً؛ وما من ارتقاءٍ إلى مستوى الرُّؤى أو دماءِ الشَّهداءِ إلا
بالعجيجِ والضَّجيجِ في عُكَّازاتٍ ومِرابِدٍ من أجسادِ بلا أرواحٍ
لكثرةِ ما فَدَّتْ بِالرُّوحِ بالدمِّ.. واعتادتِ الاستبدادُ.. اعتادتِ
الاستعبادُ.

هي أشبهُ بالبيتِ لا رقيبٌ ولا حسيبٌ، وكَرٌّ ووجارٌ.. مغارةٌ علي
بابا والأربعينِ أو جُرفُ القراصنةِ!
علي بابا و... والقراصنةُ، من برٍّ وبحرٍ، هم عليها كمطرقةِ
وسندانٍ وكمُنشَارٍ بِمقبضينِ؛ وهي الشَّلُو في الكمَّاشةِ، يلحسُ
المبردُ.. يلعقُ الدمَّ..، تعاني الرَّمقُ الأخيرِ.

الجميعُ في السيَّارةِ.. سيَّارةِ المافيا. ومَن في سيَّارةِ المافيا
ليس كمن في سيَّارةِ الأجرةِ، يترجَّلُ ويغادرُ ساعةَ يشاء. الإمرةُ
للسَّائقِ (وقد صار يقوِّدُ من بعيدٍ من بعيدٍ).. أنتِ تعرفينِ!
تعرفينِ أنَّ الإمرةَ «لِلذَّلكِ الذَّلكِ».. للذَّلي ما أشبهه بسائقِ
الظَّعنِ، وإنَّ آخَرَ سَحْنَةٍ هنداناً ولساناً...

ولأنَّك لم تمنعي.. لم تنهيني المضمَرُ ولا استلهمتِ كُنْهيةَ
المسارِ والمصيرِ، فقد امتنَعَ عليك النَّفادُ بجِلدِكَ.. فأنتِ
تدفعينِ الثَّمَنَ!!
قبيلِكَ، دَفَعْتُ الثَّمَنَ.

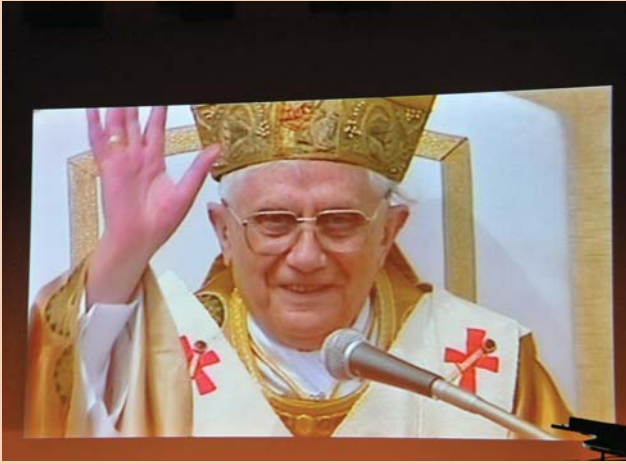
فيا.. يا بستانَ ديكِ الجنِّ وبدوِي الجبلِ وأبو ريشةِ والماغوطِ
وقباني وأدونيس...، ويا حقولَ النَّفطِ والغازِ.. الثَّرْوَةَ الممنوعةَ..
اللَّعنةَ الجديدةَ.. موطنَ الصِّراعِ بينِ مصالحِ الأقطابِ.. أمسٍ
أمسٍ كان قلبي بين يديك؛ واليومَ اليومَ قلبي عليكِ.
ألا «كلُّنا في الهَمِّ شرقٌ».. و«عزُّ الشَّرْقِ أوَّلُه دمشقٌ».. بل يا
لَقَوْلَةَ هَذَاكَ الرَّئيسِ الأَميرِكِيِّ الَّذِي قالَ يوماً: إنَّه الاقْتِصادُ،
أَيُّهَا الغَيبِيُّ!

أنا بيروتُ، ماذا أقولُ لك، ماذا يقولُ الأوزاعيُّ لصلاحِ الدِّينِ،
وأنتِ في محنتِكَ تألَّبتِ عليكِ الشُّرورُ واستباحتكِ المخاطرُ..
استولتِ عليكِ المجازرُ!
.. أصبراً أن بحبلِ اللهِ اعتصاماً.. أم هو القَدَرُ يقضي قضاءه
يديرُ عليكِ الدَّوائرُ؟
ألا أختاه، إنَّكَ أَكَلتِ يَوْمَ أَكَلِ الثَّورِ الأَبْيَضِ. وما كان في قبضتِكَ
ارتدَّ إلى نحرِكَ. نُؤَلِّتِ طَعْمَ حَبائِلِ الصَّيادِ...
ولأتِ ساعةَ مَندمِ!

إنَّها الدُّنيا، دنيانا، قاتمةٌ، قائمةٌ قاعدةُ قيامِ الجنِّ والمجانينِ
وقعودهم. الزَّواجِعُ تتوالدُ قِلاعةً طحانةً لا تُبقي ولا تُذر. ما من
شيءٍ في مكانه الطَّبِيعِيِّ، ولا على كيانهِ السَّوِيِّ.. على السَّراطِ
المستقيمِ..، قَلْقَلَةٌ زلزلةٌ وزَحَلٌ زَحَلٌ إلى الهاوياتِ السَّحيقةِ...
المنطقةُ بأسرها، أختاه، تعاني التَّقويضَ.. وكنْتُ واسطةَ
العَضدِ، أوَّلِ الاختبارِ.. بدايةِ الانهيارِ!
لماذا؟

لأنَّ بني إبراهيمَ يتنازعون اللهَ وعلى اللهِ، يناهضون الكتابِ
بالكتابِ، يُشعلون حروبَ الأنبياءِ داراً فداراً..
لأنَّ هؤلاءِ الإخوةَ الأُلَّةَ، لم تغادرِ الصَّحراءَ جلودهم اليابسةَ..
يرفلون بخبائِ منها وعباءةٍ، بغزوِ ووادٍ وثأرٍ، ببدرٍ وحطِينِ
وكربلاءِ، وبالبيرموكِ، وبالنفطِ ازدرى بقيَّةً من حُرْمِ.. وقد
يزدريةِ الغازِ..

لأنَّهم استسلموا لمتعِ الأبدانِ، وخفضوا الجَنَاحَ لوسوسةِ الشَّيطانِ
في أوثانِ الذَّهبِ وأصنامِ السَّلاطِ وشباكِ البَطْرِ، ومارسوا
السَّياسةَ بأمرِ اليومِ، ونشأوا بين ظَهْرانيهم عصاباتِ الغدرِ
والخيانةِ من أبو جهلٍ وأبو لهبٍ والصَّاحِ واثماناهُ إلى ابنِ
مُلجَمٍ وفاتكٍ ومَن حطَموا معرِّي الشَّهباءِ.. والمرتزقةُ يذبحون
بلعبةِ الأُممِ المَدنِ، مني إليك، ومن بغدادِ إلى تونسِ الخضراءِ..
بلى، أختي يمامةُ باديةِ بني غسانِ، المنطقةُ منطقةُ داحسِ
والغبراءِ.. منطقةُ المِكرِّ المِقْبِلِ المَدْبِرِ كجلمودِ صخرِ



بنديكتوس.. حضوراً بكرسيّ وكيّة

- إطلاق اسم بنديكتوس السادس عشر، على مبنى كليّة العلوم الإنسانيّة، حيث تستقرّ الكرسيّ، وتدرّس العلوم الدينيّة، بروح المسؤوليّة والمحبة والانفتاح.

وهذه المبادرة أتت عليها **السفير كاتشيا**، قائلاً للشبيبة: صحيح أنّ الإرشاد الرسوليّ الخاصّ بكنائس الشرق الأوسط هو آخر أعمال قداسته، وزيارته للبنان هي آخر زيارته الرعويّة، إلاّ أنّ ما يبقى محفوراً بالأخصّ في أذهانكم هو كلماته في لقائه معكم. وتابع: لقد أوكل إلينا مسؤوليّة كبيرة، وهي أن نتابع الطريق مع الربّ. وأفضل وسيلة لتكريمه هي أن نأخذ بجديّة كلمة الربّ ونتبعها مهما كانت التحدّيات صعبة.

في مواكبة للقاء البابا بنديكتوس السادس عشر العنّي الأخير، قبل أن يتخلّى ويختلي، تلاقت أسرة الجامعة، بمعيرة السفير البابويّ غبريال كاتشيا والرئيس العامّ للرهبانيّة الأبّاتي بطرس طريبه، حول ذكراه في لبنان وفي الأيام العالميّة للشبيبة، فصلّوا وأنشدوا واستلهموا الرّوح راعيّاً صالحاً جديداً يعرفُ خرافه وخرافه تعرفه...

وفي المناسبة، أعلن رئيس الجامعة **الأب وليد موسى**:

- عن كرسيّ أكاديميّ على اسم بنديكتوس السادس عشر، تكون ملتقى لأهل الفكر والبحث واللاهوت في كلّ ما يتعلّق بتعاليم الكنيسة الكاثوليكيّة.





فيليب سالم في الجامعة

الأميركية في بيروت، وبعدها في الولايات المتحدة الأميركية. هدف التعليم الجامعي لا يكون بنقل المعرفة من الأستاذ إلى الطالب، لأنّ التعليم هو شيء أهمّ من ذلك، هو خلق إنسان جديد. المهمّ هو تمرين عقل الطالب وتدريبه على التفكير النقدي الديناميكي، وليس «استفراغ» المعلومات أو «تفريغها» فقط. هذا الأسلوب هو تخدير للعقل، وهو ضدّ التربية الحقيقية. هذا شلل للعقل.

أضاف: الجامعات عندنا في لبنان لم تعبر حتى الآن كلياً إلى ما هو مطلوب لخلق هذا الانسان الجديد، ونحن أكثر ما نكون بحاجة إلى تغيير راديكالي في التعليم بتشغيل وتفعيل العقل لخلق عقل جديد، وبالتالي لخلق إنسان جديد.

الجامعات في العالم العربي لم تتوصّل إلى خلق جيل عربي قيادي، لأنّه تعليم يعتمد أسلوب التلقين (بالمعلقة)، لذا لم تقدر أن تفرز نخبةً تُغيّر في المجتمع، لا سياسياً ولا اجتماعياً ولا إنسانياً.

وفي لبنان، الجامعات لم تقدر أن تهزّ التقاليد والنظريات البالية، فبقينا أسرى مجتمع أقلّ ممّا هو مطلوب ومرتجى. لذلك نريد من الجامعات نقلة جريئة في الذهنية وفي العقلية، والانتقال من فلسفة تؤمن بالتعليم لإعطاء المعرفة، إلى فلسفة جديدة تؤمن بالتعليم لخلق إنسان جديد.

تمرّدوا ...

ودعا البروفيسور سالم الطلاب لأن «يثوروا ويتمردوا»، ولكن «إياكم واستخدام العنف، لأنّ الثورة تتوقّف عندما يتمّ استخدام العنف. عندها يعني أننا نستخدم القوة ونضغط بواسطة السلاح، وليس بواسطة العقل».

وقال: تمرّدوا على الواقع لصنع واقع أفضل ومستقبل يليق بكم وبوطنكم. المطلوب تغيير الواقع اللبناني الذي ما زال أسيراً للطائفية. عليكم، أيّها الطلاب، رفض الانتماء إلى «زعيم» ما أو «شخص» ما، يجب أن تنتموا للبنان فقط، لأن لا أحد أعظم من لبنان أو أكبر من لبنان... وكلّهم صفار بالنسبة له.

وأعطى د. سالم نصيحة للطلاب: «تمرّدوا بالمحبة وليس بالحقد؛ هذا هو التمرّد الحضاري. تمرّدوا بالتواصل مع الجميع؛ هذا هو التمرّد الحقيقي».

المرأة ولبنان الجديد

النقطة الثانية التي تحدّث عنها الدكتور سالم هي دور المرأة في المجتمع، مؤكّداً بأنّه لا يمكن بناء لبنان الجديد من دون الحديث عن دور رائد للمرأة، قائلاً: إنّها نصف المجتمع، ودورها أكبر من دور الرجل. هي تبني البيت والعائلة. أراؤها تنزع في أفراد

ظهيرة ٢٠١٣/٢/٢٨. استضافت جامعة سيّدة اللويزة الوجه اللبناني العالمي الشهير في طب السرطان. المفكر الإنساني الكبير البروفيسور فيليب سالم. ابن بطرّام الكورة الخضراء. فكان له حديث مع طلاب.. طلاب معرفة حقاً.

قال لهم: كما أنا مسرور معكم اليوم، وخاصة مع الشباب والصبايا في الجامعة لأنّهم هم مستقبل لبنان.

لقد فشل جيلنا فشلاً ذريعاً بتقديم وطن يليق بكم، يكون بمستوى أحلامكم، ونأمل منكم أن تبينوا لبنان على مستوى آمالكم. اليوم أحبّ أن أتحدّث معكم عن عدّة أمور صغيرة:

- كلمة «الثائر» في كتاب السيّدة مهى سماره (فيليب سالم: الثائر والعالم والانساني) [الصادر عن دار النهار ودار الساقى] هي أهمّ صفة تحدّدني. وأحبّ أن أفسّر لكم ما معنى الثائر: هو التمرّد على الواقع. الانسان يجب أن يكون اليوم أفضل ممّا في اليوم الذي سبقه. عليك أن تتمرّد على ما هو عليه الواقع اليوم لتخلق غداً أفضل. التمرّد هو صفة الحياة. الحياة هي هذه الديناميكية الدائمة، هي مهمّة لك كشخص. والمعرفة إذا لم تتطوّر كلّ يوم تتراجع باستمرار.

الجامعة وبناء الانسان الجديد

وتطرّق البروفيسور سالم إلى التعليم الجامعي، مؤكّداً أنّ أهمّ مبدأ فيه هو ماهية التعليم الجامعي؛ فأنا درّست في الجامعة



رؤية للمستقبل

وردًا على سؤال حول تجربته السياسيّة، قال سالم: لقد عالجت عددًا كبيرًا من «اللاعبين الإقليميين الكبار» الذين مارسوا أدوارًا هامّة على الساحة اللبنانيّة، وخاصّة خلال الحرب اللبنانيّة المشؤومة. وقد شاهدت بأّم العين زعماء لبنانيين يتعاملون بأسلوب «دونّي» مع زعماء خارج لبنان. رأيت النذل على وجوههم، لأنّ همّهم الوحيد كان إرضاء قيادات خارجيّة من أجل تثبيت مصالحهم الشخصيّة، ولو على حساب مصلحة وطنهم وشعبهم. أضاف د. سالم: عملت ستّ سنوات مستشارًا صحيًا في البيت الأبيض في عهد الرئيس جورج بوش الأب، وهذا ما أعطاني رؤية جديدة للقضية اللبنانيّة وللعمل السياسيّ في لبنان.

أعتقد أنّ لبنان هو أهمّ وطن في الشرق كلّه. لبنان مميّز لأنّه يملك موارد في الطبيعة وفي الانسان لا تملكها أيّة دولة في المنطقة. هذه هي عظمة لبنان.

لكن مع الأسف، فأنّه منذ الاستقلال وحتى الآن، لم تصل قيادات سياسيّة إلى السلطة في لبنان، تكون قادرة على بلورة رؤية للمستقبل.

في النهاية، كانت كلمة ترحيب قصيرة من رئيس الجامعة **الأب وليد موسى** الذي قدّم للبروفسور سالم درعًا تكريميّة ومجموعة من الكتب من إصدارات الجامعة.

وبوره، وقّع سالم الكتاب الجديد (فيليب سالم: الناشر والعالم الانسانيّ) للأب الرئيس ونوابه.

وكان الأستاذان سهيل مطر أورد في تقديمه للبروفسور سالم كلماتٍ منه. هي عبرة لمن يعتبر:

« (...) في الطبّ يجب أن لا تسأل ما هي مصلحتك، بل يجب أن تسأل ما هي مصلحة المريض. (...) في الطبّ يجب أن ترتفعوا إلى النبل».

« يجب أن تعرفوا أنّ المعرفة في العلم لا تتوقّف أبدًا، فهي دائمًا في حالة من التغيير والنمو والارتقاء».

البيت، وتؤثر جدًّا في مسيرة الأبناء ومستقبلهم وبناء ذواتهم وقدراتهم وانخراطهم في المجتمع. إنّ دور المرأة أساسي في بناء الانسان الجديد.

في العالم العربيّ دور المرأة مجهول. لا يمكن بناء مجتمع جديد ووطن جديد من دون تفعيل دور المرأة، وأنا أنحني احترامًا وإجلالًا للأمّهات في لبنان، اللواتي صمدن في هذا الوطن خلال المحن، وكان دورهنّ رائدًا وكبيرًا.

البحث العلميّ

النقطة الثالثة في حديث البروفسور سالم تتعلّق بالبحث العلميّ. فقد توجه إلى الطلاب داعيًا إيّاهم إلى أن يتحلّوا بالشجاعة وتخطّي العراقيل والصعوبات لكي يصلوا إلى تبني نظرية البحث العلميّ. وطالبهم بالإقدام والمثابرة لاكتشاف الحقائق والمفاهيم الجديدة، عبر الأبحاث العلميّة التي وحدها توصل إلى الحقائق الدامغة وتهزّ البنى الأساسيّة للمجتمع الأكاديميّ.

ودعا الطلاب إلى المحبّة والوفاء لأهلهم وأساتذتهم وجامعتهم. وأهمّ شيء هو الوفاء للبنان، وليس لسفير لبنان.

كما دعاهم للتمرد على ذهنيّة الخضوع والاستسلام.

سالم الطيب

وردًا على بعض الأسئلة الطبيّة، دعا الدكتور سالم إلى استخدام لقاح خاصّ للسيدات اللواتي هنّ بين الـ ١٤ والـ ٣٠ سنة، لمنع حصول سرطان بيت الرحم (Uterus)، لأنّ هذا المرض من أخطر الأمراض السرطانيّة لدى السيدات.

وهذا اللقاح يمنع الالتهاب الجرثوميّ، وبالتالي يمنع السرطان في بيت رحم السيدات. وقال إنّ هذه النظرية نالت جائزة نوبل في العالم ٢٠٠٥.



وفي آذار ٢٠١٠، أعلن مستشفى سانت لوك عن تأسيس كرسيّ للأبحاث السرطانية يحمل اسمه، «تحيّة دائمة لقيادته ورؤيته في علم الأورام السرطانية».

في مطلع السبعينات كان من أوائل الباحثين الذين برهنوا أنّ التهاباً مزمناً في الأمعاء يمكن أن يؤدي إلى تطوّر خلايا سرطانية في المدى البعيد. وقد أصبحت أعماله حول «داء الأمعاء الدقيقة التكاثريّ المناعيّ» (نوع من سرطان الأمعاء)، والعلاقة بين الالتهاب والإصابة بسرطان الأمعاء، مرجعاً في الطبّ الحديث. هو عضو فاعل في منظمات السرطان الأبرز في العالم. وفي الأعوام الخمسة عشر الماضية، اختارته شركة الأبحاث حول الرعاية الصحية «كاسل كونولي» سنوياً، من الأطباء الأوائل في أميركا.

وفي مطلع التسعينات، أصبح عضواً في اللجنة الاستشارية حول الرعاية الصحية لدى البيت الأبيض.

الدكتور سالم مفكّر وكاتب نهضويّ. له العديد من الافتتاحيات عن لبنان، وكتابات كثيرة عن الشؤون العربية. وقد صدر له وعنه في تموز ٢٠٠٤، كتاب بعنوان «فيليب سالم- الرجل، الوطن، العلم» من تأليف الصحافيّ الأستراليّ بيتر عنداري. وفي الأول من تموز ٢٠١٠، منحه الجامعة اللبنانية الأميركية في بيروت دكتوراه فخرية في الإنسانيّات تقديرًا لـ «إسهاماته في الطبّ والأدب العربيّة والفلسفة». وهو حائز على جوائز عدّة من مختلف أنحاء العالم. هو اسمٌ عالميّ.

حينئذٍ فيليب سالم إلى الوطن هو حينئذٍ الدائم إلى ضيعته بطرام في الكورة الخضراء. هي بالنسبة إليه الوطن بما يعنيه من تراث وتقاليد.

لذلك احتلت القضية اللبنانية مساحة واسعة من حياته ورافقت خياله وتفكيره ونشاطه، وصبّ كلّ اهتمامه من أجل تحقيق هدف واحد هو خدمة لبنان وقضيّته، إلى جانب رسالته الإنسانيّة والطبيّة في العمل لعلاج مرضى السرطان في كلّ بقعة من الدنيا.

«إذا كانت عندكم المعرفة ولم يكن عندكم الحبّ، فلن يكون عندكم شيء. فالمريض يحتاج إلى الحبّ بقدر ما يحتاج إلى المعرفة. وهنا يجب أن تتعلّموا أن لا تعطوا فقط من عقولكم، بل أن تعطوا أيضاً من قلوبكم. يجب أن تتذكّروا دائماً أنّ المريض يحتاج إلى حبكم وإلى حنانكم وإلى قلوبكم قبل حاجته إلى معرفتكم».

«التواضع هو أعظم قيمة لدى الإنسان».

«ال فشل لا يخيفني...أهمّ تجربة مررت بها وقد أمرّ بها هي تجربة الفشل الذي يجعلني أتعلّم وأتابع مسيرتي نحو الأمام».

«عدوّاي هما المرض والجهل، لأنّ الجهل مرض كبير وأخطر ما قد يواجهنا».

«إنّ الذين يتحاشون ذكر السرطان أو التكلّم عنه يجهلون أنّه كأني مرض آخر قابل للعلاج والشفاء التامّ، إذا تمّ التشخيص في أولى مراحلها وعولج بالطريقة الصحيحة».

«الحقّ في الصحة يستند إلى ثلاثة مبادئ: الحقّ في الوقاية من المرض، الحقّ في اكتشاف المرض باكراً، الحقّ في تأمين العلاج الناجح عند المريض».

«لبنان موجود في الشرق في الجسد، لكنّه موجود في العالم في الرسالة».

«البشر لا يولدون متساوين، ولكنهم يموتون كذلك».

«الإيمان برأيي ليس بالصلاة وحدها؛ أمارس إيماني بممارسة عملي اليوميّ، أنا أعتبر أنّ عيادتي هي كنيسة، وأكثر ما أكون قريباً من الله عندما أكون في عيادتي، لأنّ أكثر ما يريد الله منّي هو منح الشفاء لمريض».

وبعد، وأكثر، من هو فيليب سالم؟

الدكتور فيليب أديب سالم طبيب وباحث وأستاذ طبّ السرطان. هو مدير الأبحاث السرطانية في مستشفى سانت لوك في هيوستن، ورئيس مركز أبحاث سالم للسرطان. قبل تعيينه في سانت لوك، كان أستاذاً في مركز إم مدي أندرسون للسرطان.



أنطون قازان نصباً في متحف الأنصاب

واستذكر رئيس بلدية زوق مكاييل المحامي **نهاد نوفل** ابن بلده مثلاً للصداقة الوفية، قائلاً بوجع الغياب: كنت محامياً تدافع عن الحق، وأديباً بارعاً باهراً، كنت طلة جميلة... إنك في نسختك لا تُعاد ولا تُقلد.

ومما جاء في كلمة الشاعر **هنري زغيب** مبتدئاً: نجيت في الأربعين على غيابه، نلقاه عند مطلع الربيع كما في الأربعين الأولى قبل الغياب.

بعض الأدب يعتق حين يرحل صاحبه. يُمسي من الأدب البارد. هو: نقرأ اليوم ونستعذب. في أدبه من نبض النضارة ما يبقى الرغيف طازجاً على مائدة الجمال.

ثم مختتماً: في الأربعين على غيابه، تشرق أجزاء مؤلفاته طبعاً بعد طبعة، لا خمر خوايبها يكسُد في الأقبية، ولا يكف قرآؤها عن أطلاب الفوص فيها دهشة لاكتشاف اليواقيت.

علامته، أديباً مبدعاً، أن كتب بنبضته غده البكر حتى إذا جاء غده كانت سباقاً إلى الفجر التالي.

لذا نقرأ سنونواته اليوم، كما منذ الأربعين وما قبلها، وكل أربعين آتية، فيبقى جديد أسلوب، ويظل فصل ربيع خامساً في ذاكرة الأربعة المواسم.

أنطون قازان، في أدبنا اللبناني، توق دائماً إلى استزادة.

أحيت جامعة سيده اللويزة. بالتعاون مع مؤسسة أنطون قازان. النكري السنوية الأربعين لوفاة هذا الأديب والمحامي الكبير. برفع نصب تذكاري له في رحابها. من إبداعات **النحات بيار كرم**؛ وقد كان ذلك ظهيرة الاثنين ٢٠١٣/٠٣/١١. إثر لقاء رباعي الكلمات:

الأستاذ **سهيل مطر**، وبعد أن أجال كلمته على الوقفة والنبرة واللغة والموقف لدى أنطون قازان، قال له: ويا سيدي، نحن في حنين إلى زمن الرجال، وأنت رجل،

نحن مفعوعون بمن لا يشرفون مقاعد أو مناصب؛

دعنا، في عيد المعلم، وفي يوم الأبجدية، في زمن الصوم، في ذكراك السنوية الأربعين، نشرب كأسك ونردد:

فما تُدار على ذكراك أكؤسنا

إلا ويرجع عنها الطرف نديانا

ونسلم الهامس الساقى يقول لنا:

ما كان أكبره، قد كان انسانا

ثم استهلّت الأديبة **إملي نصرالله** استعراضها العجل لمجموعة مؤلفاته بقولها: لم أتعرف إليه في حياته، لذا كان علي القيام

بمطالعة بعض ما خلفه من آثار، وكلها أنوار ساطعة على دروب مسيرته في الحياة القصيرة التي عاشها فوق هذه الأرض. لكنّه أغناها، وبكل ما تعني لكلمة، إن بفكره وعلمه، أو من خلال حرصه

على الدقة في التفكير والتعبير، والثراء في اللغة...



النائب نعمة الله أبي نصر يحاضر عن انتخاب المغتربين ورئيس الجامعة يعلن في المناسبة عن افتتاح كليّة للحقوق

وبعد أن عرض أبي نصر نماذج معتمدة لدى بعض الدول العربيّة والأجنبيّة كالسودان والجزائر وفرنسا والسويد، ردّ على سؤال حول أيّ قانون أفضل للبنان واللبنانيين بقوله: «لبنان بلد طائفيّ، السلطات موزعة فيه على الطوائف؛ فبرأيي أن تنتخب كلّ طائفة نوابها، ما دام أننا لا نستطيع فصل الدين عن الدولة، ولا نسمح بالزواج المدني».

وشدّد أبي نصر على ضرورة إستعادة الجنسيّة للمتحدّرين من أصل لبنانيّ. كما تناول موضوع حقّ الزوجة اللبنانيّة المتزوجة من غير لبنانيّ منح أولادها الجنسيّة اللبنانيّة، لافتاً إلى أنّ القانون اللبنانيّ يستند إلى رابطة الدم، وليس إلى رابطة الأرض، لإعطاء الجنسيّة؛ أي أنّ الأب يمنح الجنسيّة لأبنائه أينما كان محلّ الولادة. وأكد أخيراً أن لبنان هو أحوج الدول لأبنائه في الاغتراب. وفي الختام كانت مداخلة لرئيس الجامعة الأب وليد موسى، شكر فيها للنائب أبي نصر حضوره، ومشاركته الطلاب في معرفة الحقيقة. وكشف استطراداً أن الجامعة ستفتتح في تشرين المقبل كليّة للحقوق، يبدأ التسجيل فيها اعتباراً من أيار ٢٠١٣.

«كيفية التواصل بين لبنان المنتشر ولبنان المقيم، وهل سينتخب اللبنانيون في الخارج نوابهم؟»، كان عنوان اللقاء الذي نظّمته كليّة العلوم الإداريّة والسياسيّة والدبلوماسية، ومركز دراسات الانتشار اللبنانيّ، في جامعة سيّدة اللويزة، مع النائب نعمة الله أبي نصر.

النائب أبي نصر، وبعد ترحيبٍ وتقديمٍ من الأستاذ سهيل مطر باسم الجامعة، اعتبر في كلمته أنّ مسؤوليّة عدم رغبة اللبنانيين غير المقيمين في الإقتراع تقع على الدولة أولاً، ولاسيّما وزارة الخارجيّة ومديرية المغتربين، وعلى المغتربين أنفسهم، مشيراً بالتالي إلى أنّ ثمة أزمة ثقة حادة قائمة بين المغتربين والدولة، بسبب تجارب سابقة، دعا إلى معالجتها بجديّة. ولفت إلى أنّ قانون الانتخاب الذي أقرّ عام ٢٠٠٨، نصّ على أن ينتخب كلّ مغترب، تتوفّر فيه الشروط، نوابٍ منطقتهم، في السفارات والقنصليات المعتمدة في البلد الذي يقيم فيه؛ وهذا ما يلحظه مشروع «اللقاء الأوثوكسي»... واضحاً أليّة لذلك. غير أنّ هذه الأليّة لم تتفدّ حتى الآن، لا لوجستياً ولا بشرياً.



الأبرشيّة المارونيّة في الأرجنتين في عهد أسقفٍ جديد: الراهب المريميّ حبيب شاميّة



في مستهلّ العام ١٩٠١، وصل أوائلُ المُرسّلين اللبنانيين الموارنة إلى أميركا الجنوبية. ومع تأسيسهم الرّسالة، أسسوا أيضًا عام ١٩٠٢ مدرسةً على اسم القديس مارون.

بعدهم، وصل الرّهبان اللبنانيون الموارنة، فكان لهم التأسيس الأوّل في Mendoza، والثاني في Tucumán. أمّا الرهبانيّة المارونيّة المريميّة، فقد أرسلت رهبانها إلى منطقة Villa Lynch San Martin، عام ١٩٣١.

يُقدّر عدد الموارنة في الأرجنتين بحوالي ٧٠٠ ألف نسمة. ونظرًا لحاجتهم الروحيّة، وللرعاية الكنسيّة، أمر قداسة البابا يوحنا بولس الثاني في ٥ تشرين الأوّل من العام ١٩٩٠ بإنشاء أبرشيّة خاصّة بهم تحمل اسم أبرشيّة القديس شربل، وتمتدّ على سائر الأراضي الأرجنتينيّة، عيّن عليها الأب شربل جرجس مرعي الكريميّ أسقفًا.

رُسم المطران شربل في ٢ كانون الأوّل ١٩٩٠، واستلم مسؤوليّة الأبرشيّة في ١٧ آذار ١٩٩١. وبيلوغه السنّ القانونيّة (٧٥ سنة)، وتقديم استقالته وقبولها، عيّن البابا فرنسيس الأب حبيب شاميّة المريميّ خلفًا له. أمّا سيامته ففي بكركي، في ٢٥ أيّار ٢٠١٣.

مَن هو الأسقف الجديد؟

وُلد الأب حبيب جوزيف شاميّة، من طائفة السريان الكاثوليك، في بيروت الرميل في ٧ تشرين الأوّل ١٩٦٦. وهو بكر إخوته كميل وجيمس وكاميليا. دخل طالبية الرهبانيّة المارونيّة المريميّة في ١١ آب ١٩٨٥، وأبرز النذور المؤبّدة في ٧ أيلول ١٩٩١. سيم كاهنًا في ١٤ آب ١٩٩٢ على يد المطران غي بولس نجيم. أهمّ الوظائف الرهبانيّة التي شغلها: الاهتمام بالنشء الرهبانيّ بمراحله كافّة (طالبية، ابتداء وإخوة ناذرون) على مدى ثماني سنوات، وفي أمانة السّر العامّة ستّ سنوات، وفي الرسالة بمنفديديو الأورغواي. حائز على بكالوريا في الفلسفة واللاهوت من جامعة اللاتران

الحبريّة روما (١٩٨٧-١٩٩٢) وماجستير في اللاهوت العقائديّ بموضوع «المطهر» من جامعة الغريغوريانا (اليسوعيّة) روما (١٩٩٦-١٩٩٩). وتابع برنامج الدكتوراه في ٢٠٠٥-٢٠٠٨، على أن يكون موضوع التخصّص: «جسد العذراء الممّجد وعلاقته بنا وبالعالمنا». وهو يعرف من اللغات: العربيّة والسريانيّة والفرنسيّة والإيطاليّة والإسبانيّة والإنكليزيّة.

NDU Spirit تُحيي الحبيبين الأسقف والرهبانيّة، وترجو دوام النعم عليهما... وباسمها هذه الكلمة من الأب المرشد في الجامعة فادي بو شبل:

أبت حبيب

بالأمس دعا الروح القدس رئيس أساقفة Buenos Aires المطران خورخي بورغوليو (البابا فرنسيس)، ليكون راعيًا للكنيسة الجامعة.

واليوم، الروح عينه يدعوك إلى بلاد الرّسالات لتكون راعيًا للقطيع الصّغير (الكنيسة المارونيّة) هناك.

بالأمس، كنت لنا أخًا ورفيقًا في رهبانيتنا المارونيّة المريميّة الحبيبة،

واليوم صرت لنا راعيًا ومعلمًا ومُدبّرًا.

شكرنا نرفعه إلى الثالوث الأقدس مشفوعًا بصلاة الأمّ البتول، على اختيارك أسقفًا في الكنيسة المقدّسة.

ونقدّم لك التحيّة الصادقة، والتّهانيّ الخاصّة، مُتمنّين لك النّجاح والتّوفيق.

فأنت عشت على أرض أميركا الجنوبيّة، وعرفت كم تحتاج هذه القارة للمحبّة الحقيقيّة، والإيمان الثابت، والرّجاء الذي لا يخيب. أنت تعرف كم من النفوس عطشى إلى من يكسر لها خبز الحياة والكلمة، لينقلها من وادي الدّموع إلى جبال السّلام.

أنت تعرف كم تحتاجك الكنيسة في هذه الرّسالة...

فهلّم أيّها الرّاعي الصّالح، فكلّنا نُصليّ لك، وكلّنا نُحبّك، وكلّنا أيضًا نطلبُ بركتكَ.

من حصاد العمل الرعوي الجامعي



Depart du chef Georgio Njeim

بمناسبة انتهاء خدمة المسؤول الكشفي جورجيو، الذي هو في الوقت عينه مسؤول الروحانيات في الـ Pastoral NDU، اجتمع شبيبة العمل الرعوي الجامعي مع فوج كشافة ساحل علما مساءً يوم الجمعة ١١ كانون الثاني ٢٠١٣، في كنيسة مار نهرا ساحل علما تحت عنوان: "Et, pour vous qui suis-je?". ثم كان قدّاساً ترأسه الأب فادي بو شبل المريمي، ووُزعت التذكارات والعلوى في باحة الكنيسة.

١١ شباط ٢٠١٣: النّهار العالميّ للمريض

نهار اثنين الرّماد، ١١ شباط ٢٠١٣، اليوم العالميّ للمريض، اجتمع الشبيبة في كنيسة الجامعة مع الأب المُدبّر جورج ناصيف لصلاة المسبحة والاحتفال بالقدّاس الإلهي مع رتبة تبريك الرّماد. ثمّ قصدوا مأوى العجزة للراهبات المارونيّات اللبنازيّات في جبيل، حيث عادوا المرضى والمسنّين وأمضوا حوالي ثلاث ساعات ووزّعوا المسبحة الوردية، فاستطاعوا بمعونة الربّ أن يزرعوا الفرح على وجوههم.



رحلة إلى الثلج

في ١٣ شباط ٢٠١٣، أمضى الشبيبة يوماً تليجياً ترفيهياً في عيون السيمان-كفرزيبان.





Meet Pope Benedict XVI

نظمت جامعة سيّدة اللويزة يوم ٢٧ شباط ٢٠١٣ لقاءً لوداع البابا بنديكتوس السادس عشر وكان البثُّ مُباشراً من الفاتيكان. وقد شارك جورجيو نجيم وأنطوانيت ريشا، شاب وشابّة من العمل الرعويّ الجامعيّ، ناقليْن خبرتيهما عن لقاء البابا خلال الأيّام العالميّة للشباب.

جورجيو نجيم: ليس من السهل أن تصفَ علاقتك بشخص تعرفه فقط من خلال الإعلام وبعض الكتابات. ولكن شاء الله أن يكون هذا الشخصُ خليفةً بطرس ورأس الكنيسة ومعلمها ليقود سفينة المسيح على الأرض.

شاعت العناية الإلهيّة في العام ٢٠٠٥ أن أشارك في الأيّام العالميّة للشبيبة في ألمانيا. في البداية حزنت عندما انتقل سلفه الطوباويّ البابا الكبير يوحنا بولس الثاني إلى الحياة الثانية، ولكن سرعان ما تحوّل حزني إلى فرح آنذاك. ففي تلك السنة، وبينما كان اللبنايونيّ أبناء الأرض الواحدة والتاريخ الواحد واللغة الواحدة منقسمين، استطاع الأبُّ الأقدس أن يجمع حوالي مليوني شخص من كلِّ أنحاء العالم، ليتكلّموا لغةً واحدة هي لغة يسوع المسيح.

الخبرة الثانية معه، كانت أيضاً في الأيّام العالميّة للشبيبة في مدريد عام ٢٠١١؛ ذروة اللقاء في الرسالة التي وجهها إلينا نحن الشباب أنّه أضاء على المسؤولية التي يحملها كلُّ شاب وشابّة عندما يعود إلى دياره. استهلّ كلمته بـ «ونظر إليه يسوع وأحبّه» (مر ١٠) وكأنّه يقول لنا بأن يسوع نظر إلينا الآن ويحبنا في كلِّ آن. وتمنّى لنا أن نلتمس نظرته ونختبر حقيقته. ثمّ دعا كلَّ شخصٍ إلى أن يرسم مشروع حياته. وجزم لنا أنّ الفرح الحقيقيّ في كلِّ مشروع يكون بسماع كلام الله والعمل به. هكذا يصبح كلُّ واحدٍ منا رسولاً. فإنّ المسيح من خلال كلمته الحيّة في الإنجيل، يقول لكلِّ واحدٍ «إتبعني»، ومشروع الله لكلِّ منا هو خلاص نفسه والحياة الأبدية التي وصفها بكلام الربّ في إنجيل يوحنا: «سأعود وأراكم، فتفرح قلوبكم وما من أحد يسلبكم هذا الفرح». وختم بأن الكنيسة بحاجة إلينا مع كلِّ الصعوبات التي نواجهها في عالم اليوم. ودعانا إلى قبول دعواتنا والإلتزام بها في وجه كلِّ المخاطر بالإلتزام والمثابرة والتقدّم والثبات في الإيمان والمحبة.

فالشكر لله على هذا الراعي الصالح الذي قاد بسنوات قليلة كنيسة المسيح نحو المراعي الخصبة. وصلاتنا للروح القدس أن يلهم آباءنا الروحيّين فيختاروا خليفةً له، بحسب رغبته ومشيئته القدّوسة.

أنطوانيت ريشا: «متأصلون ومبنيون في المسيح، ثابتون في الإيمان»

هيذا كان شعار لـ JMJ مدريد ٢٠١١ اللي شارك في حوالي المليونين شاب وصبيّة تركوا كل شي وراهن وإجو يجددوا إيمانن ويلتقوا بالبابا بنديكتوس اللي قرر يكمل مسيرة شفيع الشباب الطوباويّ يوحنا بولس الثاني مؤسس الأيّام العالميّة للشباب.

أولّ مرّة التقينا بالبابا، مرق من حدنا ووصلنا العلم اللبناي عال papamobili وباركو وكان الفرح غامرنا. وكلماتو بعدا عم تتردد ببائنا. دعانا نصلي تالحب والأمل يغمر قلوب الكل.

ودعانا نكون مثل حبوب القمح لبتنما بالأرض الجيدة وبتعطي ثمار كثيرة.

خلال مراحل درب الصليب، ذكرنا البابا بقول القدّيس بولس «المسيح أحبني وبذل ذاته من أجلي»، وسألنا شو عم يعمل كلّ

واحد منا للمسيح عربون شكر لحبه وموته كرماننا؟ وبالسهرة الختامية، نظرنا البابا سبع ساعات تحت أشعة الشمس وكنا عم نصلي تتشتي. وبالفضل أول ما حكانا البابا بلشت تتشتي. فقلنا هيذا المطر هو مياه المعمودية الثانية. ودعانا نمشي ع خطى يسوع، وخطى الرسل ونرجع ع بلادنا ونبشّر عيلنا ورفاقنا وننقلن خبرتنا.

منحني الـ JMJ الفرصة أتمم بمعرفتي للبابا وبمدى قربه للشباب ومعرفته بمشاكلنا ورغبته بالتواصل معنا وحتى عبر twitter.

علّمنا البابا التواضع وتكريس حياتنا للآخرين، فزار عدّة بلدان من بينها لبنان الذي هو بأمس الحاجة للصلاة والسلام. وبعد قراره بالإستقالة من أعلى وأهمّ منصب روحي ومدنيّ، منصليو ومنحترم حكمته وشجاعته الذي بلدنا ومسؤولينا بحاجه كبيره الن. منصلي معو ومع الكنيسة حتّى الله يبعثنا خليفة صالحة إلو يقود الكنيسة وشعبها حسب تعاليم المسيح للمحبّة والخلاص.



Weekend عام

إجتمع بعض أعضاء العمل الرعويّ NDU مع العمل الرعويّ في باقي الجامعات، في ٢ و٣ آذار في رياضة روحية في دير عين ورقة- غسطا. تخلّل اللقاء مواضيع روحية، سهرة سجود وتوبة، وفقرات ترفيهية.

شكراً بينيديكتوس، ٣ آذار ٢٠١٣

تجمّع شبيبة العمل الرعويّ الجامعيّ في جامعة سيّدة اللويزة يوم ٣ آذار وانطلقوا إلى بركي حيث كان شبيبة لبنان مجتمعين مع البطريك الكردينال مار بشاره بطرس الراعي لشكر البابا الفخري بينيديكتوس السادس عشر والصلاة على نيّة إنتخاب بابا جديد للكنيسة. أحييت الإحتفال جوقة سانتا ماريّا.



قدّاس شكر مع جماعة الصّلاة المريميّة

نهار الجمعة ١٥ آذار، كان لقاء بين شبيبة العمل الرعويّ NDU وجماعة الصلاة المريميّة في دير سيّدة اللويزة- زوق مصبح. احتفل بالذبيحة الإلهيّة الأب ناجي خليل عند الساعة ٧:٣٠. وتلا القدّاس ساعة سجود أمام الصليب المقدّس، تضمّنت تأملات في آلام المسيح الخلاصيّة وخطيئة الانسان، وصلاة على نيّة البابا الفخريّ بينيديكتوس السادس عشر ونيّة البابا الجديد فرنسيس، ومزامير وتراتيل لزمن الصّوم والألام.





عيد الأمهات في الجامعة

في ١٧ آذار نظّم شبيبة العمل الرعوي حفل تكريم لأمهاتهم، ابتداءً بالقداس الإلهي مع الأب المدير جورج ناصيف المرشد العام الأب فادي بوشبل. وبعد فنجان قهوة عُرضت صور لنشاطات العمل الرعوي ومسرحية كوميدية صغيرة عن تجربة الأهالي مع أولادهم في العمل الرعوي. وتواصل اللقاء بلقمة غداء وبعض الترفيه واستعراض صور كل صبية وشاب مع أمه مع كلمة من القلب وهدية تذكارية.

أمّا كلمة الأب فادي بعنوان:

صلي يا أمي فصلاة الأمهات مقبولة دومًا أمام الله، وجاء فيها: صلي اليوم، كما البارحة، فالعالم الذي أحيانا فيه صعب للغاية. في سنة الإيمان هذه، وفيما احتفل اليوم معك بعيد الإيمان، أشعر بطعم جديد لهذا العيد، طعم سماوي، لأن الإيمان يا أمي هو نعمة إلهية، ولكنّه في الوقت عينه إرادة إنسانية. وأنت أردت مع والدي أن يكون الله في حياتي، وفي كل أيامي. أنت التي زرعت في الإيمان منذ نعومة أظفري وسهرت على نموي في محبة الله وثباتي على الإيمان بالرجاء.

أنت التي أرشدتني إلى الكنيسة حيث يسوع ينتظرن ليمنحني كلمته، وجسده وروحه وأمه.

أنت وأبي جعلتاني بالإيمان أتذوق طعم السماء، وأرى كم هو طيب هذا الإله الذي صار إنساناً لأجلي وقد افتداني بدمه الثمين.

أم، كم أنا مدين لك ولأبي...

كم أنا سعيد بأنكما هدية الله لي.

فأنتما سبب سروري وبركة حياتي.

اليوم، وفيما احتفل معك بعيدك أتمنى لك ولكل أم أن يكون لك جميعاً شركة في محبة الأب ونعمة الابن وسلام الروح القدس.



أتمنى لك ولكل أم الغوص في لجج المحبة الإلهية والإستقاء من ينبوع الحياة.

أتمنى لك ولكل أم أن تكن بالقرب من مريم كل حين، لتكون كما هي، في حضور دائم أمام الرب إلهنا.

نعم يا أمي بالأمس كنت أحبك، وكنت أظن أن الحب قد بلغ بي أقصى حدوده نحوك، ولكني أختبر يوماً بعد يوم مدى حبي نحوك، هذا الحب الذي ينمو مع الإيمان، ويغتنى مع الأيام، وينضج مع الاختبار.

هذا الحب الذي يسكبه الله شيئاً فشيئاً في قلبي الصغير لا أستطيع احتماؤه.

هذا الحب يلهب أعمق أعماقي.

رضاك يا أمي، فأنت إنعكاس لأمي العذراء مريم.

كثفي صلواتك من أجلي، لكي أحفظ وديعة الإيمان التي زرعتها في قلبي لتنمو في وتُعطي الثمار.

سامحيني يا أمي، فإني وعلى الرغم من كل ما وصلت إليه بصلاتك وسهرتك وتعبك، مرات كثيرة أنسى فضلك وأظن أنني قد كبرت ونضجت من دونك.

اليوم، وفيما أتكلم باسم كل شاب وصبيّة، أرفع دعائي إلى من منح نعمة الأبوة والأمومة إلى سيد الحياة لأقول له:

تباركت يا إلهنا، وتبارك عمل يديك،

تبارك حبك الذي تجلّى في بحب والدي.

تباركت رحمتك التي سهرت، ولا تزال، على حياتي.

تبارك انحنائك الذي دفعك لتكون واحداً منا تشبهنا في كل شيء ما عدا الخطيئة.

تبارك حلوك في حشا الأم البتول مريم.

تبارك روحه الذي صور الأب والابن على مثال قلبك.

تباركت ربي ليلاً نهاراً، لأنك أنت إلهنا ونحن شعبك.

ومع مريم، أصرخ إليك: بارك ربي أمهاتنا، أعضد الأحياء منهن وأشفي المَرْضَى من بينهن، ولا تنس ربي أن تكافئ كل أم سبقتنا إلى دنيا البقاء، مانحاً إياها حظّ الجلوس إلى مائدتك.



Easter Retreat ٢٢-٢٣ آذار ٢٠١٣

في ٢٢ و ٢٣ آذار، إجتمع شببية العمل الرعوي في دير عين ورقة- غسطا في رياضة روحية عنوانها Quo Vadis، تخللها سجدود للقربان المقدس وصلوات وموضوع مع الدكتور شربل ساسين عن آلام المسيح من الناحية الطبية.

موت أبنائه وبناته، إلى أن أصيب هو بمرض البرص الذي جعل الكل يرفضونه.

وجاءه أصدقاؤه، وبدلاً من أن يعزوه، أخذوا يوجهون إليه الإتهامات على أنه إنسان خاطئ قد ارتكب المعصيات وهو يدعي البرارة، وها إن الله قد اقتص منه فوجه إليه الضربات. حتى امرأته حاولت دفعه إلى الكفر بالله ونكرانه.

لكنه بقي متمسكاً بإيمانه، فالإنسان المؤمن لا يبتعد عن الله وقت الضيق والعوز والشدة، ويقرب منه وقت الخير والبركة، فضلل أيوب أن يعاني بصمت.

أخيراً يتكلم الله من عاصفة قوية، فيخبر أيوب خاشعاً متواضعاً أمام الله، لا يستطيع الكلام. وتنتهي قصة أيوب باستعادته لصحته وسعادته وثروته، وقد تعلم أنه عندما يضع كل شيء ويخسر كل ما لديه، يبقى له الله، وهذا يكفيه.

الإمتحان عسير، لكنه كثيراً ما يؤدي بالإنسان إلى علاقة أعمق بالله. والذين يحتملون امتحان آلامهم، يؤمنون أن آلام هذا الدهر لا تقاس بالمجد المزمع أن يتجلى في الآتي.

الله لا يجرب أحداً!

الله الآب لا يضرب أبناءه،

حتى ولو خسرت كل شيء فلن تخسر الله...

قد تفقد أشياء كثيرة... قد تمرض... قد يتركك أقرب

الناس إليك...

ولكن الله لن يتركك...

يدعك تمشي في النار، ولكن اللهب لن يحرقك...

يدعك تخوض خضم البحار، ولكن لن يسمع بغرقك...

Easter Mass ٢٧ آذار ٢٠١٣

في ٢٧ آذار إحتفل الأب الرئيس وليد موسى بقديس الفصح المجيد بمشاركة آباء الجامعة والموظفين والأساتذة والطلاب، مع رتبة تبريك الزيت. ومثل شببية العمل الرعوي قصة أيوب: حياته وصبره وقوة إيمانه حيال كل المصائب والويلات التي حلت به!

أيوب مزارع ناجح في أرض عوص قرب نهر الفرات، يملك الآلاف من الغنم والجمال والمواشي، وله عائلة كبيرة وعدد كبير من الخدم.

وفجأة يمثل الشيطان، الخصم المشتكي، ويحاول أن يدق إسفيناً بين الله وأيوب، مدعياً أن أيوب إنما يتكل على الله لأنه غني وكل شيء يسير معه على خير ما يرام.

لكن الله يؤكد أنه واثق من إيمان أيوب. وهكذا يبدأ امتحان الإيمان.

وتوالت المآسي والمصائب، بدءاً بتهديم وتخريب كل أملاكه، ثم خسارة جميع مقتنياته من حيوانات ومواش، وصولاً إلى



إميل مبارك شاعر الضيعة



أديب القسيس

اللّهجات أقرب إلى فهم الجمهور وأدعى إلى نشر العلوم العصرية وهو فكر غريب لا يخطر لأحد من العقلاء على بال»^(٣).

بينما نرى الدكتور أنيس فريحة يخالف رأي الأب شيخوخو، إذ يعتبر أنّ اللّهجات العامية وجدت جنباً إلى جنب مع اللّهجة الأدبية»^(٤) أو أنّ «معنى اللّفظة العامية محدّد، وليس بالمستبعد أن يكون المعنى العاميّ المعنى الأصيل للكلمة»^(٥).

وتعتبر اللّهجة العامية اللّبنانيّة، عند بعض الكتاب، أنقى اللّهجات بسبب قربها من اللّغة الفصحى، «وبعد، فقد تكون لهجة لبنان العامية أنقى اللّهجات، وأقربها إلى الفصحى لانكماش اللّبنانيين وتقلّصهم في جبالهم الوعرة، غير المرغوب باستيطانها. هذا ما كان، أمّا ما سيكون فمن يدري؟ إنّ سهولة المواصلات، ومطامع الشركات، والمهاجرة من... وإلى، قد تؤدّي إلى إفساد لهجتنا، والله أعلم»^(٦).

والعامية هي لغة التخاطب اليوميّ، وعامل مهمّ في تسيير أمور النّاس، لسهولةّها إذ هي «لغة الحياة العامّة والتعاون الاجتماعيّ اللازم لسير الحياة السريعة وذلك لسهولةّها ولأنّها القدر المشترك بين جميع الطبقات. فالكلّ يعرفها ويلجأ إليها في حرية ويسر. ولمّا كانت لغة الشعب ومن صنعه، فقد أخضعها لحرية وأزال عنها القيود العلمية والاصطلاحية، وأعانها على أداء مهمّتها كما تتطلّب الحياة الجارية، فصارت لغة مرنة طيّعة قابلة للتطوّر السريع لا تنفر من لفظ دخيل أو تركيب غريب»^(٧).



ضخم الجتّة، خفيف الروح، بديع النكتة. يؤثّر الإجابة على الوفرة.

طالبت الجالية اللّبنانيّة في البرازيل بتعيينه سفيراً.

عرّف بسخريته في مجالس السّهر والسّمر.

كلّما ذُكرت القرية اللّبنانيّة كان للزجل اللّبنانيّ

ذكر وحكاية، يوم كانت سهرات الجبل تعمر

بالدبكة وتلعل العتابا ويتحاور السّاهرون بلغتهم العامية

بالزجل في مختلف المواضيع.

اللّغة العامية

بدأت بوادر النهضة الأدبية تظهر بوضوح في أواخر القرن التاسع عشر، حيث «جرت أمور خطيرة قلبت بطناً لظهر أحوال الدول الأوروبية فكان لها فعل انعكاس في أنحاء الشرق فقامت العقول من رفدتها واستيقظت الأفكار»^(١).

وأدت المدارس دوراً هاماً في ترويج العلم. وما أن أطلّ العام ١٩٠٠ حتّى انتشرت الآداب واتّسع نطاقها، وذلك بفضل انتشار الصحافة وتوفّر المطابع والمطبوعات^(٢). لكنّ أكثر الكتب التي ظهرت في هذه المرحلة، كانت تعتمد على اللّغة الفصحى.

ولم تظهر كتابات باللّغة العامية في بيروت إلّا في الحقبة الممتدّة بين ١٩١٨ - ١٩٢٦. فاللهجات العامية «أخذت تسطو على اللّغة البليغة فتمسح صورتها البهية. ومن العجب أنّ بعض المتشدّقين أخذوا ينشرون مقالات لترويج اللّغات العامية لزعمهم أنّ تلك

(١) شيخوخو، الأب لويس، تاريخ الآداب العربيّة (١٨٠٠ - ١٩٢٥)، منشورات دار المشرق، بيروت، طبعة ثالثة، ١٩٩١، ص ١٢٩.

(٢) شيخوخو، المرجع نفسه، ص ٣١١.

(٣) شيخوخو، المرجع نفسه، ص ٣٩٩.

(٤) فريحة، أنيس، معجم الألفاظ العامية، مكتبة لبنان، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٥، مقدّمة، ص أ.

(٥) فريحة، المرجع نفسه، مقدّمة، ص. ز.

(٦) عبّود، مارون، الشعر العامي، الأعمال الكاملة، المجلّد الثاني، دار مارون عبّود، بيروت، ١٩٨٦، ص. ٣٢٨.

(٧) الخازن، منير وهيب، الزجل، تاريخه، أدبه، أعلامه، قديماً وحديثاً، المطبعة البولسية، حريصا، لبنان، ١٩٥٢، ص. ١١.

الشعر العامي

وبسبب عدم توافر المال لعامة الناس لطباعة المخطوطات الشعرية، لا يمكننا تحديد تاريخ لبداية الزجل اللبناني ولكن «أول شعر من هذا النوع وصل إلينا عن طريق التاريخ زجلية صاغها زجال اسمه سليمان من قرية «أشلوخ» في عكار وصف فيها خراب طرابلس حين طرد الصليبيون منها وذلك في نيسان سنة ١٢٨١م، وما زالت هذه الزجلية محفوظة في مكتبة الفاتيكان تحت الرقم ٢١٤ و ٢٣١ حتى اليوم.

وبعد ظهر المطران جبرائيل المعروف بابن القلاعي من بلاد جبيل المتوفى سنة ١٥١٦، وكانت أزجاله ساذجة معتلة التركيب والقوافي»^(١٣).

عصور الزجل

مرّ الزجل في لبنان بثلاثة عصور هي:

أولاً: عصر الإكليروس من سنة ١٣٠٠ - ١٨٠٠م، شعراء هذا العصر معظمهم من رجال الدين، دونوا منظوماتهم بالأحرف الكرتونية الأرامية، أدخلوا فيها أنواع البديع والجناس، ووزعوا الحروف على أوائل أبيات القصيدة وأوائل الصدر والعجز. نظمهم كان ركيكاً ضعيفاً، فالأوزان مضطربة والأفكار مبعثرة والقوافي لا انسجام فيها ولا ارتباط وقد مزجوا العامية بالفصحى.

ثانياً: عصر الانبعاث من سنة ١٨٠٠ - ١٩٠٠م، مع بداية القرن التاسع عشر انتشرت المدارس في القرى اللبنانية بفضل رجال الدين، اتسع عندئذ ميدان الزجل وظهر شعراء نفضوا عن هذا الفن غبار الجمود، ووطدوا دعائمهم.

ثالثاً: عصر النهضة، بعد انقضاء عصر الانبعاث وتوطيد دعائم الزجل من قبل شعرائه، تطوّر الشعر العامي وتأثر الشعراء بكلّ جديد، وتعرّفوا إلى العالم بفضل أجهزة الإعلام، فظهرت المواضيع المتنوعة التي تعالج مختلف القضايا.

دخل الزجل اللبناني عصره الذهبي مع رشيد نخله ومع عبدالله غانم في كتابه «العندليب» الذي طوّر الزجل تطويراً مهماً، وكان بمثابة نقطة تحوّل في الشعر اللبناني، فأحدث مدرسة جديدة سار على منوالها الشعراء الذين أتوا بعده.

وانتشر على نطاق واسع في أنحاء لبنان كافة مع شحور الوادي (أسعد الخوري الفغالي) وفرفته التي تأسست عام ١٩٣٢، وعلى

الشعر العامي اللبناني مساحة فرح، ونور يضيء ظلمات الليل، وكلمات تتبع من الذات وتدخل القلب من دون استئذان، وارتعاشات النفس الصادقة، ناقلة صوراً حيّة من واقع الحياة التي يعيشها اللبناني، «وأن يرتبط الشعر بالحياة، وينهل من معين الجوهر يعني أنه يكون مولوداته في عتمة العبقرية ويضعها على أرض الخلود، وبين المحطّتين يرتسم سلك نوراني تتجمهر حوله مشاعر وعواطف، وتجارب وانفعالات كأنّها جميعاً عصافير عطشى على نبع ماء. وارتباط الشعر بالحياة يؤكّد حتمية ارتباطه بالتراث»^(٨).

يمتاز الشعر العامي بأنّه ينقل إلينا عادات وتقاليده عامة الناس «هو الوسيلة الوحيدة المتوخّاة لمعرفة ما للسواد الأعظم من الأفكار والعادات. فإذا أردت أن تعرف عواطف قوم من كلّ أمة وعاداتهم التي ألفوها منذ أجيال، والمنازع التي ينزعون إليها، فانظر في أدب عوامها فإنّه هو الذي يمثل لك حالتهم الاجتماعية تمثيلاً صحيحاً لا غبار عليه»^(٩).

الزجل

كلّ ما يُعرف عن الزجل أنّه «نظم كلام العوام على الإيقاع، وأشكاله عديدة لا تحدّ... وهو شعر بلسان الجمهور، يصوّر العواطف والمعاني التي تمرّ بالمخيّلة، بريشة اللسان على نسج الكلمات العامية المنتقاة وإرسالها جملاً ذات نبرات موسيقية شجية»^(١٠).

ويعتبر الخازن أنّ الأصل في تسميته لا يخرج عن حدّ المظنون، ويضيف «ولعلّ الأقرب أنّ اسم الزجل جاء من رفع الصوت بالتطريب أو من رفع الصوت الطرب».

أمّا الشاعر في لغة العامية فيسمونه قولاً (من القول وهو اسم آخر للشعر العامي اللبناني) وابن الفنّ، وابن الكار، وابن الذكّا^(١١)، «وكلّها تسميات لها دلالاتها المحلية والوطنية والشعبية العامية... فهذا الشاعر، بل شعره، هو الناطق بلسان الشعب والأمة في كلّ شؤونها وشجونها ومسائلها وقضاياها: العاطفية والفكرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية»^(١٢).

(٨) سعاده، جورج شكيب، من رياض الأدب، دار الحدّثة، بيروت، ٢٠٠٢، ص ٢٢١.

(٩) الخازن، المرجع السابق، ص، ٣٠.

(١٠) الخازن، المرجع نفسه، ص ٤٥.

(١١) عواد، توفيق يوسف، فسان الكلام، مكتبة لبنان، بيروت، الطبعة الثانية منقحة ومزينة، ١٩٨٠، ص ١٥٩.

(١٢) موسى، منيف، الشعر العامي اللبناني معالم واتجاهات، المؤتمر الأوّل للشعر العامي اللبناني، ١٩٩٥، لبنان، ص ٧٤.

(١٣) خاطر، لحد، العادات والتقاليد اللبنانية، الجزء الثاني، طبعة رابعة، دار لحد خاطر، بيروت، لبنان، ١٩٨٥، ص ٢٧٢.

ولادته

ولد إميل مبارك في بلدة عينطورة قضاء كسروان في العام ١٩٠١، وتخرّج في مدرستها الثانوية المشهورة للأباء العازريين. بعد ختام دروسه فيها توظّف ثلاثة أعوام في شركة السكك الحديدية المعروفة، ثم انتقل منها سنة ١٩٢٣ إلى مهنة التعليم في المدارس الرسمية، في غير منطقة لبنانية، إلى أن رقي ليصبح مفتشاً في هذه المدارس طوال عمره.

«كان ضخّم الجثة، خفيف الروح، بديع النكتة، أتقن اللغة الفرنسية وتكلّم بها بطلاقة. وكانت زوجته أدال زعتر من مدينة زحلة، تحمل شهادة الحقوق من الجامعة اليسوعية في بيروت، وقد تلقّت علومها على حساب الحكومة الفرنسية، نزولاً عند رغبة الجنرال غورو عام ١٩٢٠»^(١٧).

انتخب في العام ١٩٤٤ عضواً في الهيئة الإدارية لجمعية إمارة الزجل بصفة مستشار.

أطلق الشاعر الياس أبو شبكة على إميل مبارك لقب شاعر الضيعة بعد سماعه أغنية «ضيعتنا غامرنا النور» التي لحنها الفنان يوسف أسعد شهبان، وأنشدت على مسرح سينما «برّدواي-جونيه»، بحضور لجنة من الإذاعة، كان أبو شبكة أحد أعضائها. وعلى أثرها دخل مبارك الإذاعة من خلال قصائد، لحن بعضها شهبان، وبعضها الآخر رئيس القسم العربي في المعهد الموسيقي جورج فرح، ومنها: ودّي يا بحر ودّي، مشتاق إرجع عالضيعة، كنت زغير وصرت كبير، قديش كنا نروح، طلّ الخُطف ع لبنان، وغيرها.

ربطته صداقة مع عدد من الحكّام والمسؤولين، ومن بينهم الرئيس الشيخ بشارة الخوري الذي كان يزوره في قصر الرئاسة، وقد منحه وسام الاستحقاق اللبناني تقديراً لجهوده في حقل الأدب والشعر، لكنّه لم يوفّره بنقده، خصوصاً بعدما شاع في بيروت خبر انتقال شركة «التابلاين» من لبنان إلى بلد آخر، فقال:

وإنّ فلتت عنّا التابلاين بلبنان بصرّش خساره
باقى بالبلاد «طبلين» «خلّو» والشيخ بشاره
«خلّو» هو الشيخ خليل الخوري، ابن رئيس الجمهورية حينذاك الشيخ بشاره، والاثنان كانا معروفين بضخامة الجثة. ولما التقى

أثرها أسس الشاعر خليل أيّوب حتّي أول جريدة زجلية (الشعر القومي) التي أصبحت فيما بعد تعرف باسم «أرزة لبنان». ثمّ تبلور الزجل شعراً راقياً مع ميشال طراد وغابي حدّاد وأسعد سابا وأسعد السبعلي ويونس الابن وإميل مبارك الذي نقل صورة صادقة عن الضيعة اللبنانية، وهذا يدلّ على أنّ الزجل «ساهم في الكثير من جوانب الحياة الثقافية الريفية، بما حمله في تجديد بعض ملامح هذه الحياة، حيث الصراع اليومي مع الطبيعة، ومحاولة التكييف والتكيف من ضمن ما وصفه الأدب الزجليّ، كذلك هذا التوافق والتناغم ما بين حياة الفلاح في الريف والطبيعة، وحالات التشابك ما بينهما»^(١٤).

وفي بداية القرن العشرين بدأت تظهر كتب الشعر والروايات والمسرحيات باللغة العامية، وقد اعتبرت «ظاهرة قد تعزّز اللغة العامية وهي أنّ بعض الجرائد والكتّاب شرعوا ينشرون منتجات من الشعر والنثر والروايات المسرحية كتبوها باللغة العامية. إنّ هذه الكتابات قليلة وهي من الوجهة الأدبية ذات قيمة وأخذة في النمو. وقد يكون هذا النوع من الأدب جديراً بالعناية، لأنّ فيه مزايا تقدّمه على الأدب الفصيح الذي تتمثّل فيه قيود العصور السالفة وجمود الدهور الماضية. فليس يسمح للكاتب أن يؤدّي ما في نفسه من المعاني والآراء بعبارة طبيعية حرّة، بخلاف ما إذا استعمل بالعامية، فإنّه ينطلق على فطرته وسليقته التي اعتادها منذ نعومة أظفاره، ولا يحتاج إلى أن يبذل جهداً في أن يجمع من المعاجم اللغوية ثروة مادية من الكلمات تساعده على التعبير عمّا في نفسه»^(١٥).

ويؤكّد أنيس فريحة أنّه من الصعب جدّاً «إعطاء أسماء الكراريس ومحلّ طبعها، إذ كثير منها لا أعلم أين ومتى وكيف طبع ولا من قام بالعمل»^(١٦).

ويذكر فريحة من الكتب «رسائل شمونة» لحنّا الخوري الفغالي الذي نُشر في بداية الأمر على حلقات في مجلة الدبور، وصدر في العام ١٩٢٨.

في هذه الحقبة من الزمن كانت ولادة الشاعر إميل مبارك.

(١٤) صالح، فرحان، «الثقافة الريفية الزجلية، الموقع والدور الوظيفي والتحوّلات»، مجلة الحدّثة، السنة الثالثة، المجلّد العاشر، خريف ١٩٩٦، العددان ١٩ و٢٠، ص ١٢٨ - ١٢٩.

(١٥) الخازن، المرجع السابق، ص ٢٨.

(١٦) فريحة، المرجع السابق، المقدّمة، حاشية ٢، ص ٥.

(١٧) خوري، روبير، موسوعة الشعر العامي اللبناني، الجزء الأول، منشورات صوت الشاعر، ٢٠٠٨، ص ١٤٣.

والشوق، إلى وطنهم الأول في عهده السعيد الجديد، عهد الحرية والاستقلال والسيادة.

يروى أن شاعر القطرين خليل مطران قال له، وكان حاضراً للحفلة التكريمية التي أقيمت للشاعر بعد صدور ديوانه في القاهرة: «أنا نظمت مئة قصيدة حتى استحقيت لقب شاعر، وأنت من أول قصيدة سمّوك شاعر»^(٩).

وقد أخذت الحكومة اللبنانية على عاتقها نفقات الطبعتين الثانية والثالثة التي صدرت بآلاف النسخ في أيار عام ١٩٥٤، من مطبعة اليسوعيين في بيروت، تجمع نحو مئة وعشرين صفحة، وفيها ألحان لكثير من القصائد التي لحنها رئيس القسم العربي في المعهد الموسيقي جورج فرح.

السفير إميل مبارك

وبسبب شهرته التي تخطت الحدود اللبنانية، إلى دنيا الاغتراب، وفي أثناء زيارة قام بها الرئيس كميل شمعون إلى البرازيل، طالبتة الجالية اللبنانية باعتماد إميل مبارك كسفير للدولة اللبنانية، وكان أبرز المتحمسين رئيس البيت اللبناني في بيونس آيرس اليااس ريشا الذي قال: «إن قصائد إميل مبارك هي الوسيلة الوحيدة لبث الحنين بين المغتربين وتشويقهم للعودة إلى وطنهم الأم».

وأكمل: «إذا لم توافق الحكومة اللبنانية على طلبنا بإرسال هذا الشاعر إلينا كسفير، فأنا على استعداد لتحمل كل نفقات السفر والتأمين اللازم لضمان وجوده معنا»^(١٨).

وبعد عودة الرئيس شمعون من زيارته، أكد لإميل مبارك أن شهرته في تلك البلاد لا تقل عما هي عليه في وطنه، وقد أدخلت الجاليات اللبنانية في أثناء إقامة حفلات التكريم له (أي لرئيس الجمهورية) إنشاد بعض أغاني الضيعة، وعبرت له عن شوقها الحار إلى مشاهدة ناظمها النابغة.

مقلّ في كتابة الشعر، فهو يؤثر الإجادة على الوفرة، وذكر أنه لم ينظم سوى ستّ وعشرين قصيدة، وأنّ كلاً منها قد اقتضى نحو شهر لتخرج إلى النور، بلغة عامية محضة «ما عدا بعض فلتات قلمه من الاضطراب في ظروف نادرة إلى استعمال كلمة فضيحة للتخلص من مآزق الأوزان والقوافي، ممّا يُعذر عليه»^(١٩).

تتعدّد الألفاظ في شعره معتمداً على تعابير منتقاة بدقّة، فلا نجد في شعره «حشواً شائناً ولا إبهاماً مستهجنًا، فضلاً عن ذلك يتحاشى في الغالب عن استعمال الكلمة ذاتها مرتين متقاربتين،

بعد مدّة الرئيس الخوري الشاعر إميل مبارك عاتبه على كلامه، فأبدل مبارك كلامه بقوله:

بأقبي بالبلاد طبلين الداعي والشيخ بشاره
وكان الشاعر إميل مبارك أيضاً ضخم الجثة.

ربطته صداقة مع النائب والوزير المحامي إميل لحدود، ودارت بينهما مساجلات طريفة خصوصاً عندما كان إميل لحدود وزيراً للتربية وإميل مبارك معلماً في المدارس الرسمية. كان رفيقه الدائم الشاعر إميل ملكون، وقلمًا كانا يفترقان، والاثنتان من مدمني السهر في ملاهي الزيتونة في الشتاء، ومقاهي عاليه وبحمدون في الصيف.

انتسب إلى رابطة الزجل اللبناني التي تأسست في ١٠ نوار العام ١٩٤٠ وانتخب عضواً في الهيئة الإدارية لجمعية إمارة الزجل في العام ١٩٤٤ بصفة مستشار، كما شارك في تأسيس عصابة الشعر اللبناني عام ١٩٥٠.

توفي مساء الاثنين في ٢ تشرين الأول من العام ١٩٦٧، ودفن في مسقط رأسه عينطور.

ديوان «أغاني الضيعة»

كتب إميل مبارك الشعر باللغتين اللبنانية العامية والفرنسية، لكنّه لم ينشر سوى كتابين صغيرين، الأول بعنوان «أغاني الضيعة» والثاني صدر من دون توقيع، وهو بعنوان «الأدب الرفيع» احتوى شعراً زجلياً ماجناً، تمّ تدوله سرّاً.

ظهرت الطبعة الأولى من ديوان «أغاني الضيعة» في القاهرة العام ١٩٤٦، وهو كتيّب بقطع صغير، عدد صفحاته ٤٥ صفحة. قدّم للكتاب الصحافي حبيب جاماتي الذي تحدّث عن شهرة صاحب الكتاب في لبنان ودنيا الاغتراب، وممّا جاء في مقدّمته:

«أغاني الضيعة هي اليوم على كلّ لسان، ينشدها الغنيّ في قصره والفقير في كوخه، ويضطرب لها اللبنانيون جماعات في سهراتهم أمام المواعيد شتاءً، وفي حلقاتهم على ضفاف الغدران صيفاً... وقد تجاوزت أغانيه حدود لبنان، ولا غرابة في ذلك، فليس للبنان حدود بفضل مهاجريه، فنصف لبنان مقيم ونصفه الآخر مغترب. واللبنانيّ دائم الحنين إلى وطنه حيثما سار وأينما حطّ رحال الترحال. وأغاني الضيعة اللبنانية لشاعر الضيعة اللبناني قد انسابت شيئاً فشيئاً إلى حياة المهاجر في غربته، فاختلطت بها. وهي الآن تتبعث من أفواه اللبنانيين المغتربين في مشارق الأرض ومغاربها، حاملة تحياتهم وتحيات أبنائهم، ممزوجة بالوفاء

(١٨) عيد، ندى، المنسيون، ٧٠ معلماً لبنانياً، الجزء الأول، الطبعة الأولى، ٢٠١٢، ص ٢٠.

(١٩) نخله، الأب رفائيل، «إميل مبارك شاعر الضيعة، نابغة الشعر اللبناني العامي»، المشرق السنة ٤٩، أيار- حزيران، ١٩٥٥، ص ٣٦٣.

ولا يألو جهداً في انتقاء أوفق الألفاظ للدلالة على المعنى المقصود، مهما كلفه ذلك من الوقت والعناء»^(٢٠)

شعر وصفي

معظم شعره يعتمد على الوصف، خصوصاً وصف جمال وطنه، بما فيه من محاسن وروائع، وقد خصّ الفصول الأربعة، لكلّ فصل قصيدة، واصفاً تغيّرات الطبيعة في كلّ منها، جاء في قصيدته عن الربيع:

طَلَّ الخُطُفُ عا لبنان لبست مشلحها الوديان
سرح بالحقل القرقور النحلة حامت عالبيستان
صوت الطير، خريز النهر تسبّح الله طول الدهر
صاح الديك بشق الفجر سبحان الخالق، سبحان!

وينقل إلى وصف الخريف بكلّ ما فيه من حزن، في صور يغلب عليها التشاؤم، عكس ما ورد في قصيدته عن الربيع، فيقول موجّهاً كلامه إلى أخته:

ليكي، يا أختي، المرج كيف نام ودبل

شوفي الزهور متشرنة فوق التلل

وليكي الطيور مدشّره كروم الجبل

وطولو ليالي السود وانهمم الفقير

وفي قصيدته عن الشتاء يصوّر تقلّبات الطبيعة، واصفاً من خلالها بيت الفقير، والأدوات التي كان يستعملها، والحياة الهائنة متمنياً عودتها:

محلا الشتي ومحلا البرد لو عندك مونه بتكفك
ونُدفة تلج وطوق الشرد والقعمه حدّ الشباك
يا محلا زتّ النمناف وصوت السمّنه والشحرور
ومحلا العيله بفرد لحاف وبيت زغير وحاكوره
ومحلا يوم اللبّاده والعبا والتنوره

لم يكتفِ مبارك بوصف الطبيعة فقط، بل تطرّق في شعره إلى وصف الحياة القروية البسيطة البعيدة عن تعقيدات الحضارة المزيّمة التي سيطرت علينا وأبعدتنا عن العيشة الهائنة في ظلّ الكرم، والنوم في العرزال الذي اشتهرت به ضيعنا، هذه الحياة بعيدة كلّ البعد عن أبهة التمدّن العصريّ وبذخه ورفاهيته، فهو يحبّها بالرغم من قساوة العيش، فهي تحمل الكثير من القيم التي

تحلّى بها اللبناني، وبدأنا اليوم نفتقدها مع جيل يلهث وراء المادّة، ويسعى للحصول عليها على حساب سعادته وفرحه. يقول مبارك:

لوفي عندي حاكوره وكـرم وعـرزال
ورحمة الله بتكفيني ما بـدّي مال
لو إن الأرض فراشي ولحافـي الليل
كنت بعيش عيشه هنّيه مرتـاح البـال

هذه الحياة الهائنة عاشها إميل مبارك في البيت الوالدي، ثمّ حالت بينه وبينها أعوام الدراسة، وبعد انتهائها، اضطرتّه ظروف العمل إلى الانتقال إلى المدينة طلباً للعمل. لكنّ محيطه الجديد، مع كلّ ما فيه من زخارف الحضارة التي تعرّف إليها، لم ينسه ملذّات الحياة التي عاشها في طفولته، وبقي الحنين يشدّه إلى البيت الذي ترعرع فيه، يقول:

كنت زغير وصرت كبير برمت بلاد المسكونه
غني عشت وعشت فقير ويا ما شفت بزماـني
ما في شي عا بالي يعنّ غير البيت اللي ربّاني

ويتذكّر «الرزقات» وخريز الشلالات والسنديانة العتيقة التي تطلّ البيت، وسرقة أعشاش العصافير والمورج والنير والبيدر، ويتمنّى السكن في بيته ولو كان خراباً فينهي القصيدة:

بفضّل بيتي ولو خربان على البلاد العمرانه
يا ترى بيرجع شي يوم إسكن بيت اللي ربّاني

ويعترض على من يلومه على تفضيله البيت «الخربان» للسكن فيه، فيهبّ للدفاع عن هذا البيت، وكلّ ما يمثّله من ذكريات حلوة، وجيران يأنس بالجلوس معهم، والسهر ولعب الورق، ويعدّد بعض أصناف الطعام خصوصاً «القرّه والجرجير والقرصعنه»، فيقول:

بتسألني شوفي عندك بالضّيعه تا أنك مهتم؟
نسيت يا روحي بيت جدّك والمعبور ودرب الكرم
ويتمنّى عليه في نهاية القصيدة للعودة قائلاً:

سماع منّي، رجاع تا نغني عا بحّات المنجيره

لم يحصر الشاعر مبارك قصائده في وصف الضيعة، «فتحوّلت شعراً والزجل زهراً ولوناً ولحناً»، كما يقول الأديب والصحافيّ فاضل سعيد عقل في ملحق النهار بتاريخ الأحد ٨ تشرين الأوّل ١٩٦٧، إنّما كان أيضاً يقرض الشعر الانتقادي:

ع شعب آمن مين قلّك تفتري رجفة إيديك ملطّخة بدم البري
حاجي تجمع مال، دقت ساعتك ربع ساعة عمر ما فيك تشتري

(٢٠) نخله، المرجع نفسه، ص ٣٦٣.

وهالمرکز علأ شانك
وتعرف العالم مكانك
هالكرسی مش مكانك
لسبد ما هالتلج يدوب
ولأحد الرؤساء:

رئسنا ما منسيها
بتخرى وبتمسح فيها
تعليمات العاطيها
روح خُذ منو ورقه
وقال في الأغنياء الذين يلهثون وراء المال من دون صرفه:

المش مثقف عقلاتو
ما بتتاكل لحماتو
ع البز مفيلت جيزو
بيضرب إيدوع طيزو
ع المتلك عمبيكاري
كديش محمل مصاري
والكرت بخمسميه
مش عزيمه رسمي
شوبتعملوليراتو
مهما صار الكلب سمين
مال معبي دهليرزو
قللو القرش بطيز الكلب
المتلي عندو علم وفن
طاسة راسك عم بترن
عامل حفلة فنيي
هيدي ضريبه يا (...)

لم يوقر أهل الكذب والرياء، يقول:

وحرامي، وبيشهد زور
ومن قحبه لقحبه بيدور
شراويل بكسم طقومي
خرية كلب ومقسومي
وللمرأة نصيب من أدبه الرفيع:

ظريفه وسنانك عاج
بدّي وصفه من جوزك
لا الدوا ولا القنيني
شمه من وردة خدك
بتحبّو ما بتخونو
ربطت مرسى ع قرونو
غرامى بحضورك حاج
بلكى إنتي تكوني علاج
ولا جوزك رح يشفيني
لردّ الروح بتكفيني
ونششرت بشكير

إميل مبارك شاعر الضيعة غناها وعدًا وأملًا، الوعد بأن تبقى
ضيعة مرتعًا للأحلام التي نتمنى أن تعيدنا إلى ذاتنا، كي لا
تتفصل عن تراث بدأ يضمحل ويزول، ولم تبقى ذكراه إلا في البال.
إميل مبارك شاعر الذكريات الحلوة، أعادها إلى أذهاننا بديوانه
الضئيل بحجمه والعظيم بقدره، لكنّه عذب بأدائه ناعم ببوحه،
ولئن ابتعد عن إندفاق الشلال في فيضه، فجارى الجدول عدوية
عند انسيابه.

وأمام أركان الدولة عام ١٩٤٧، ولمناسبة نقل رفات الأمير بشير
الشهابي الكبير من اسطنبول إلى قصر بيت الدين، قال مخاطبًا
رفات الأمير:

أنت انطويت وانطوت راياتنا
وحامت طيور السّود فوق أرزاتنا
جوجل عضامك يا بو سعدى
وانتفض، نحنا بحاجة اليوم لمواتنا
قوم شوف كيف الأرزع كتف الجبل
بيست شلوحو وانقطع منو الأمل
قوم شوف كيف العدل عاف المحكمة
وع لوح باب المقبرة إسمو نقل

الساخر الظريف

لا يمكن أن تكون السخرية عند الإنسان نوعًا من التكلّف، فهي
بطبيعة الحال متأصلة في نفسه ولا مجال لاكتسابها، فكلّ شيء
يكتسب إلا النكته والسخرية.

وقد عُرف إميل مبارك بسخريته اللاذعة سواء في مجالس السّهر
والسّم، أو في بعض شعره وخصوصًا في كتابه «الأدب الرفيع»
الذي لا تتعدّى صفحاته ٢٢ ويتضمّن ٦١ بيتًا من الزجل بين قرّادي
وموشّح ولم يوقعه باسمه، لأنّ فيه الكثير من «الأدب الرفيع»، كما
يُقال.

لن أعلّق أو أحلّل ما سأنقله من كتابه «الأدب الرفيع»، بل أترك
للقرّاء أن يُعمل قريحته في تحليل ما سيرد.

قال إميل مبارك الموظّف في وزارة التربية:

عشرين سنة بشيل، بحط
يا مديري مالي (...)
دولته ما بترقيني
لو (...)
ما في حدارقاني
بدّي ديرا خليفاني
ما عندي متل الستات
بقفز سبع تمان درجات.

فأجابه وزير الماليّة إميل لحود:

(...) مش رح بييفيدك
بكرالماتصير وزير
ساعتها طسّم (...)

وتعليقًا على الفساد الذي كان مستشريًا في الدولة قال:

عجل كبير وعجل زغير
أعوج التلم، سألو منين
كدنوهن ع فرد نير
قالوا من تور الكبير

وقال لأحد المدراء العامّين في الدولة:



حكمت حنين

خليل روكز

شاعر الحرمان والكفر والإيمان (١٩٢٢-١٩٦٢)

١. عصره:

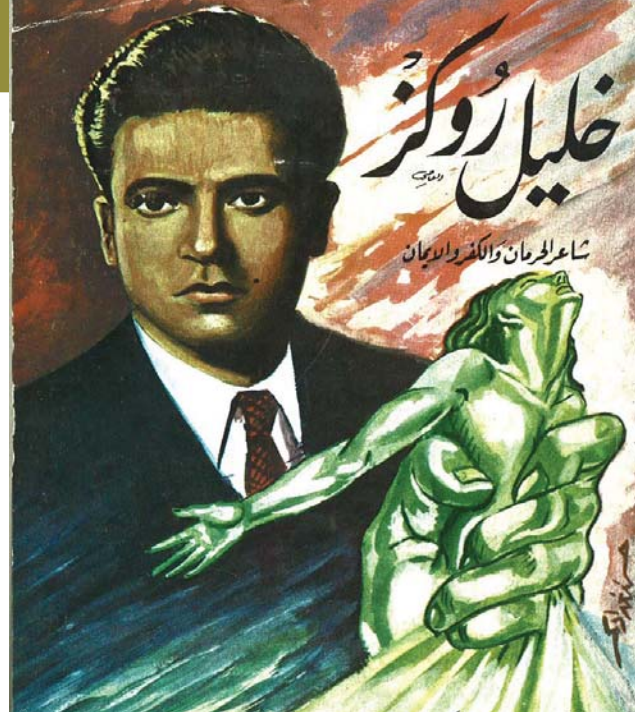
والمكاتب والصحف، ما ساهم في تثقيف الشعب وتويره، ونشطت الحركة العلمية والأدبية بفضل الجمعيات. وكان للأدباء موقف من هذه الأوضاع القائمة فانتقدوها، وغلب على أدبهم طابع التشاؤم ليأسهم من إصلاح المجتمع، وراحوا يتساءلون عن سر الوجود ومصدره ومصيره. وقد أصاب القلق معظم الشباب- ومنهم شاعرنا خليل روكز- إذ يئسوا من التطور والتقدم إثر ما عانوه من آلام الحرب وفساد الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية، وتعتت الحكام واستبدادهم. ثم تطوّر القلق واليأس إلى الشعور بعزلة تامّة في العالم، وبغربة في المجتمع، فراحوا يشيرون إليهما معتبرين ذواتهم المصدر الوحيد للقيم، ولذا احتقروا العالم الواقعي لأنّه مليء بالشّر والباطل والخداع، فاعتزلوا الناس، ورفضوا قيود المجتمع، ولجأوا إلى الطبيعة. وإزاء عجز الطبيعة وحدها عن إعادة الطمأنينة إلى قلوبهم، راحوا يبحثون عن ملاذ آخر هو الحب، ولكنهم لم يلبثوا أن عادوا إلى الواقع حيث لم يبق لهم إلا الألم فاستعدبوه.

٢. سيرته:

رزق يوسف روكز من زوجته الأولى بهيئة صبيان وفتاة: خليل، حنة وابراهيم. وُلد كبيرهم، خليل، سنة ١٩٢٢، في وادي الليمون^(١) من قضاء جزين جنوبي لبنان. ولمّا بلغ خليل الثالثة، توفيت والدته، فعرف، باكراً، الحرمان من حنان الأمّ وعطفها. بعد أربع سنوات من وفاة والدته، تزوّج والده ثانياً، وأنجب ثلاثة صبيان وفتاة: فؤاد، الياس، جبران وجوليات. ولم تسر الأمور على هيئتها بين الزوّج الجديدة وأولاد زوجها، ولم تكن أفضل مع الأب الذي كان يساعد الخالة على ضربهم.^(٢) انقطع حبل الرّجاء بالأولاد (خليل، حنة وابراهيم)، فهربوا من البيت، وأصبحوا بلا رعاية ومأوى، وذاقوا، إلى جانب اليتيم، الشّرّد وحرمان عاطفة الأب.

كان عصر خليل روكز حافلاً بالأحداث المهمة على الصعيد اللبناني الداخلي، وعلى الصّعيد العربي والعالمي. في الداخل، وُلد خليل روكز ولبنان خاضعاً للانتداب الفرنسي، ثمّ شهد الأحداث الآتية:

١. استقلال لبنان عام ١٩٤٣.
 ٢. جلاء آخر جنديّ فرنسيّ عن لبنان عام ١٩٤٦.
 ٣. المحاولتين الانقلابيتين للحزب السوري القومي الاجتماعي عام ١٩٤٩ وعام ١٩٦١.
 ٤. ثورة ١٩٥٨.
- أمّا على الصعيد العربي، فقد شهد:
١. نكبة فلسطين وقيام دولة إسرائيل عام ١٩٤٨.
 ٢. الانقلابات العربية المتعدّدة.
 ٣. العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦.
- وعلى الصعيد العالمي حدثت الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥)، ثمّ قامت هيئة الأمم المتحدة عام ١٩٤٥. إلى جانب هذه الأحداث السياسيّة كانت أحوال لبنان مضطربة اجتماعياً واقتصادياً، وزادها تعقيداً الصّراع الحزبي الطائفي بين زعمائه، وقد انسحب على تابعيهم ومناصريهم. ثمّ زادت الأزمة تعقيداً بحلول الضّائقة الماليّة العالميّة عام ١٩٣٠. وترافق كلّ هذا مع حركة نزوح واسعة من الأرياف اللبنانيّة إلى المدن طلباً للعمل والارتزاق، فاهتمّت السلطات بالمدن وأهملت الأرياف ما زادها، إلى جانب هجرها، حرماناً وفقراً. لكنّ عهد كميل شمعون عرف ازدهاراً اقتصادياً بفضل تدفق الأموال الأجنبيّة والعربيّة للاستثمار في لبنان. وتميّز عهد فؤاد شهاب بالتنظيم الإداري. وكان للحياة الثقافيّة توجه معاكس للسياسة، فأنشئت المدارس، واهتمّت الدولة بتعميم التعليم الابتدائي، وكثرت المطابع



وتفتحت عينا مترجمنا على الحب، فكان حبه الجارف الأول لفتاة عزباء من وادي الليمون الفوقا، لكنه لم يستطع أن يتزوجها بسبب فقره، فتزوجت غيره. إلا أنه ظلّ يحبها رغم علاقته الغرامية المتعددة. وكان هيامه بها ثابتاً، إذ كانت الوحيدة التي ودّعها قبل خضوعه لعملية الجراحية الأخيرة، فكان اللقاء الأخير بينهما. ثم أحب، وقد بلغ السادسة عشرة من عمره، إحدى قريباته من محاربه^(١)، ولم يتمّ الزواج بينهما لإملاقه، وكذلك حصل مع حبيبة جديدة من وادي الليمون. في الثامنة عشرة إلتحق خليل بالجيش، إلا أنه طُرد لعدم انضباطيته. ولما تكرّر فشله في محاولات الزواج، ساكن امرأة متزوجة من جرنانيا^(٢)، وبقياً معاً في صيدا من دون زواج شرعيّ.

كان خليل، في أثناء الجندية وبعدها، يرافق الجوقات الزجلية، ويختلط مع أفرادها مقتبساً عنهم^(٣). ثمّ صعد المسرح الزجليّ سنة ١٩٤٤ فغنى مع نجيب العازوري. وفي سنة ١٩٤٩، أحبّ (س) وقدم إليها كتاب «كفر وإيمان» بعد زواجه.

بعد ذلك أصبح شاعراً في جوقه زغول الدّامور، التي دعاها، سنة ١٩٥١، جبرائيل المقبّر، وكان مولعاً بالزجل، إلى لقاء في منزله. في هذا اللقاء تمّ التعارف بين خليل وجانيت^(٤)، أخت جبرائيل، وتحاباً. خاف من تكرار فشله في الزواج، فخطفها بعد ثلاثة أشهر وعقد قرانه عليها. وكان أشبينه زغول الدّامور.

قبل أن يسكن الشّاعر مع زوجته في مزرعة يشوع^(٥)، سكن في عين الرمانه^(٦)، ثمّ في بيت الشّعار^(٧)، ولما استقرّ في بلدة زوجته، مزرعة يشوع، عمل مع أخيها، جوزف، في تجارة الحطب.

في سنّيه الأولى لم يدخل خليل مدرسة نظامية، بل تعلّم لمدة لا تزيد عن الشهر الواحد عند معلّم القرية اسكندر طنّوس^(٨)، وتأثر بالشاعر الياس شاكر^(٩). رغم ذلك بدت أمارات نبوغه باكراً، فكان أول نظمه قصيدة ألحها، وهو في الثامنة من عمره، بمناسبة زيارة المطران باسيلوس خوري لوادي الليمون. ونتيجة لليتم والفقر والحرمان والقسوة، يئس الأولاد من الرّحمة والعاطفة، فهاموا في القرى المجاورة، وأشفق عليهم الناس^(١٠)، فعمل الصبيّان أجيرين يرعيان البقر عند طانيوس منصور في صيدون^(١١). أمّا الفتاة فقد خدمت في بيروت في منزل ميشال الحاج من برتي^(١٢). إلا أنّها توفيت في بحنس وهي ما تزال في التاسعة عشرة من عمرها. أثناء رعيه للبق، كان خليل ينصب أمامه قعقوراً^(١٣)، يتملّ فيه شاعراً يبادله النّظم.

(١) تبعد عن صيدا شرقاً أحد عشر كيلومتراً.

(٢) رغم قساوته، رثاه خليل برقة عندما توفي سنة ١٩٥١. راجع ديوان خليل روكز: ٤٥٨-٤٥٩.

(٣) ديوان خليل روكز: ١٠.

(٤) شاعر عتابا ضرير من مليخ (في جوار وادي الليمون)، قويّ اللّغة. كان يجوب قرى منطقة جزين ناظماً الشعر. تنبأ بنبوغ خليل وبموته الباكر عندما لاحظ حدّة ذكائه.

(٥) ديوان خليل روكز: ١١.

(٦) لم يكن لهم خال، وتنكر لهم عمهم. ديوان خليل روكز: ٢٦، ٦١.

(٧) في جوار وادي الليمون.

(٨) حجارة يوضع بعضها فوق بعضها الآخر.

(٩) في جوار وادي الليمون.

(١٠) في جوار وادي الليمون.

(١١) ديوان خليل روكز: ١٠.

(١٢) كانت تلميذة في السادسة عشرة من عمرها.

(١٣) في المتن الشماليّ.

(١٤) في المتن الجنوبيّ.

(١٥) في المتن الشماليّ.

في سنة ١٩٦١، سافر الشاعر مع زميله الشاعر موسى زغيب إلى أفريقية لمدة أربعة أشهر، عاد بعدها إلى عائلته التي انتقلت إلى صربا^(٢٤) بسبب ضائقة مالية حلت بها. ولم يرحم خليل نفسه، ولم ترحمه آلام القرحة التي أهملها، فعاودته بعد ست سنوات من إجراء العملية الأولى. لجأ إلى مستشفى رزق، ثم نقل إلى مستشفى الجامعة الأميركية حيث توفي في الثالثة صباحاً في ٢٧ تشرين الثاني سنة ١٩٦٢. نقل جثمانه إلى صربا ثم دفن بالقرب من والديه في مسقط رأسه، وادي الليمون، بناءً لرغبته.

٣. شخصيته:

بين مظهره الخارجي ونفسيته تلاؤم وانسجام يجمعهما الطابع الشرقي.

شعره مجعد كثيف أسود، جبهته عريضة، عيناه سوداوان، يعلو خده الأيسر خال يعترض التناسق القائم بين قسمات وجهه، الذي تستشف فيه الألم والحرمان اللذين تركتهما طفولته المعدبة، أثرين مِيزاً نفسيته وشعره.

إذا استمعت إليه أشجاك صوته الحنون ذو الجرح الحزينة. وهو عريض المنكبين، معتدل القامة، صلب العود، كأنما خصّ بهذا المظهر ليحتمل شقاءه وهو صغير.

يرادف هذا المظهر نفسية تتميز بطيبة القلب، وسلامة الطوية، وصدق الكلمة، وجراءة اللسان، وسماحة النفس، وكرم اليد حتى الإسراف والتبذير، كأنه صمم أن ينتقم من القدر الذي لاحقه بالقسوة والعذاب وضيق ذات اليد. إلا أنه كان عصبي المزاج، يغضب ويهدأ بسرعة، إنما كان يضبط أعصابه على المسرح لأنّ الزّجال مضطرّ إلى تقبل التّهجمات والاتّهامات برحابة صدر وروح رياضي.

كرت السنون، والشاعر يعمل نهاراً ويغني ليلاً فتذيع شهرته، ويتعرف، في حفلاته، إلى الكثيرين والكثيرات، فأقام علاقات مع نساء عدّة منهنّ: دلال التي خصّها ببعض القصائد^(١٦)، وأخرى توفيت بعد سنتين من تعرفه بها^(١٧). ووجه إليها بعض القصائد من مجموعة «دموع الطير».

في هذه الأثناء رزق خليل ببيكره روكز سنة ١٩٥٣، وقبل أن يتمّ الرضيع سنته الأولى^(١٨)، رحل والده إلى أفريقية لمدة شهرين مع الشاعر زين شعيب^(١٩).

في سنة ١٩٥٤ ولد الصبي الثاني، لبنان. ولم تلبث العلاقات الزوجية أن تعكرت فترك خليل منزله الزوجي، وعاش للمرّة الثانية حباً جارفاً مع امرأة متزوجة^(٢٠) من جوار صنيين.

بعد حوالي سنة عاد إلى عائلته ورزق سنة ١٩٥٦ صبيه الأخير أسعد، لكن الحياة لم تبسم للشاعر إذ أحسّ بالأم في معدته أسفرت عن حصول انفجار^(٢١) في القرحة عالجه في مستشفى مار يوسف^(٢٢) - الدورة، ومنعه الطبيب عن الخمر والحب، كما طلب إليه أن يعود للكشف عليه بعد ستة أشهر. إلا أنه انساق وراء لذّاته: الخمر، التدخين، الحبّ والسهر. وشغلته الفرقة الزجلية^(٢٣) التي ألفها سنة ١٩٥٦، فزادت جسده إرهاقاً، ساعدتها عليه أسفاره المتعددة إلى أفريقية والعراق والكويت.

في هذه المرحلة من حياة شاعرنا، أخذت علاقاته الغرامية تسبب أزمات عائلية، فذبّ خلاف جديد بين الزوجين، هجر على أثره خليل بيته وسكن في برج حمود، واتخذ من نادي الشرق في بيروت مقراً نهارياً له. وكانت علاقته مع «ج» قد توطدت، فكانت تصحبه في كلّ تحرّكاته. وقد أهداها الشاعر مجموعة قصائد تُعتبر من أعذب غزله.

(١٦) ديوان خليل روكز: ٢١٤.

(١٧) خليل روكز، دموع الطير: ٢٤ و٢٥.

(١٨) ديوان خليل روكز: ٤١٧.

(١٩) المصدر نفسه: ٥٠٤.

(٢٠) رمز إلى اسمها بحرف «ج». توفيت بمرض السرطان.

(٢١) خليل روكز، حرمان: ٩٨.

(٢٢) خليل روكز، حرمان: ٩٩.

(٢٣) أطلق عليها اسم «جوقة الجبل». بعد وفاته سميت «جوقة خليل روكز».

(٢٤) في كسروان.

مدرسة نظامية أن يحصل ثقافة؟ بالجهد الشخصي! ومن أين له أبسط مبادئ القراءة؟ من معلم القرية! نعم.

تعلّم، وهو صغير، لمدة لا تزيد عن الشهر عند المعلم اسكندر طنّوس^(٢١) فأخذ عنه أصول القراءة والكتابة، وعن الشاعر الياس شاعر^(٢٢) مبادئ النظم الأولى. ثمّ راح، متسلّحاً بنبوغه الفذّ، يحصل بنفسه ثقافة - لو شئنا المبالغة لوصفناها بالموسوعية - خولته أن يصبح شاعرًا عصاميًّا مبدعًا. وقد وصفها الأستاذ ألبير دوميط بأنها: «ثقافة الإنسان المعذب، ثقافة الطموح المتمرس بلا أمل حينًا وبالخيبة أحيانًا»^(٢٣).

وبناءً على ما يبدو من مطالعة أشعاره جميعها، يُستنتج أنّه جمع كنوز ثقافته بالمطالعات الواسعة. فلمن كان يطالع؟ كشاعر منبري، عليه الاعتماد الفوري على خزينة أفكاره، كان لا بدّ من أن يلمّ من كلّ شيء بطرف، كأنّه عياني العصر، جاحظي الثقافة. لذلك، تنوّعت الكتب التي طالعها، وكان أبرزها الكتب الدينية ولاسيما التّوراة والإنجيل والقرآن. ومنها استمدّ كثيرًا من معلوماته. ومن الكتب الأديبية، قلب صفحات المؤلفات والدواوين القديمة التي خلفها: أعشى بني قيس، النابغة الذبياني، الخنساء، زهير بن أبي سلمى، امرؤ القيس، عنتره بن شدّاد العبسي، طرفة بن العبد^(٢٤)، الإمام عليّ بن أبي طالب، الأخطل، مجنون بني عامر^(٢٥)، عمر بن أبي ربيعة، جميل بثينة، الحاجرّي، الديلمي، الأرجاني، الفارضي^(٢٦)، أبو العلاء المعري، أبو نواس، ابن الوردّي، الشّريف الرّضي، المتنبّي، أبو تمام، ابن الرّومي، أبو فراس الحمداني وابن زيدون. واطّلع على: سيرة عنتره، ألف ليلة وليلة، كليله ودمنة، سيرة بني هلال وسيرة الملك سيف بن ذي يزن.

كما أنّه ألّمّ بكتب أدباء النهضة ودواوين شعرائها ومنهم: جبران خليل جبران^(٢٧)، قاسم أمين، المعلم بطرس البستاني، وليّ الدين يكن، الياس أبو شبكة، أحمد شوقي، أبو القاسم الشّابي، فوزي المعلوف، إيليا أبو ماضي وأسد الخوري الفغالي (شحرور الوادي^(٢٨)). وطالع عددًا من الرّوائع الأجنبية المعرّبة، نذكر منها مسرحية «سينا» لكورناي. كذلك استفاد من: الكتب المدرسية الأدبية، الصّحف المتنوّعة، المجالس الخاصّة، المناقشات

أمّا عن ذكائه فحدّث ولا حرج. وقد شهد له بذلك الكثيرون منذ نعومة أظفاره. كما ظهر ذكاؤه في سرعة خاطره من حيث ارتجال الشّعر والردّ السّريع في مواضع الحرج، وفي إلقاء النّكات الساخرة التي لم تفارقه حتّى على فراش الموت. إلّا أنّ هذا المرح لم يفسد جدّيّة شعره المشهود له بها.

يضاف إلى ذلك أنّ خليلاً قنوع، عصامي، غير وصولي، مترفع عن الماديات في علاقاته مع معارفه. يكسب المال ويهبه من دون حساب لما يمكن أن يطرأ على أحواله في المستقبل^(٢٥)، فهو ينطلق من ماضيه ليعيش حاضره بوهيميًّا وجوديًّا^(٢٦).

رغم قساوة الحياة عليه، أقبل على ملذّاتها، يعبّ منها حتّى الثّمالة. ولم يسيطر عليه تشاؤمه^(٢٧) ومزاجه السّوداوي، بل مارس اللّهُو بمختلف أنواعه: المقامرة، المراهنات في سباق الخيل، الخمر، الحبّ، وطاولة الزّهر. وقد رُوِيَ أنّه كان ينجز بعض أشغاله، ويعقد ارتباطاته، وأحيانًا يتخلّف عن مواعيد حفلاته، ويلغي بعض دعواته ليمارس هواية «لعب الفليبرز» فيخسر لأجلها المئات.

هذه التصرفات الخاصّة ما كانت لتؤثّر كثيرًا على نفسيّته وعلاقاته بالآخرين، فلم يحسّ بعقدة العيب والخجل، بل كانت له اتّصالات وثيقة بشخصيات كبيرة مدنيّة وعسكريّة، وما كان يخفي أصله المتواضع، بل كان يفاخر به من دون مكابرة وغرور^(٢٨) وشعور بالتقصّ أو بعقدة العظمة. وما كان مجده المتأخّر لينسيه ماضيه الحافل بالذكريات الأليمة، بل شكّل له حافظًا لوثبة كبرى ساعدته عليها ثقافته الواسعة التي اكتسبها بمطالعاته الكثيرة المتشعبة. هذا الإقبال على الحياة لم يخلّصه من آلامه، بل زادها أحيانًا من حيث تتكرّر بعض الأصدقاء لإخلاصه^(٢٩). وقد دفعته تجاربه المتنوّعة إلى الإيمان بالحظّ الذي يسعد أناسًا ويحرم آخرين.

٤. ثقافته:

ثقافة! وأيّة ثقافة لأبناء القرى النائية الذين انصرف عنهم السّلطات إلى مشاكلها السياسيّة^(٣٠)! وكيف نتظر ممّن لم يعرف

(٢٥) كان يستدين المال لحاجة به إليه، فيصرفه مع أصحابه على ملذّاتهم، ويهبه إذا طلب منه، وما كان يطالب بما له من دين.

(٢٦) ديوان خليل روكز: ٧٧.

(٢٧) المصدر نفسه: ٢.

(٢٨) المصدر نفسه: ٢٦.

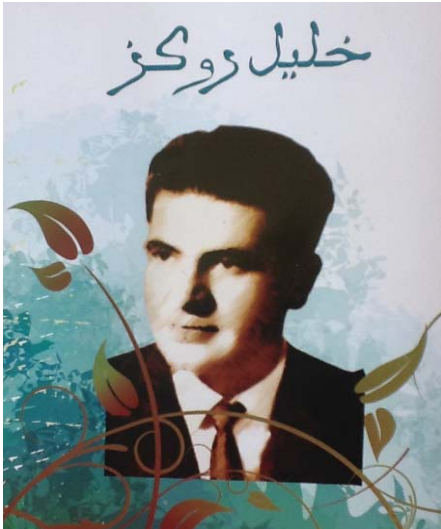
٤. مجموعة قصائد متفرقة وافتتاحيات ومحاورات ومراثٍ وإذاعات وتلفزيونيات ومقتطفات من دواوين الخليل الموجودة في الأسواق. صدرت سنة ١٩٦٤ عن دار الفن - بيروت، في ديوان من الحجم الكبير (٥٥٣) صفحة بعنوان «ديوان خليل روكز».

بالإضافة إلى مجموعة كبيرة من القصائد والمحاورات المنبرية المخطوطة التي ما تزال في حوزة الأستاذ موسى زغيب وزوجة الشاعر، وستنشر في فرصة مناسبة.^(٤٠)

٦. أدبه:

تناول خليل روكز في دواوينه محاور عدة، نكتفي بالإشارة إليها إشارة سريعة.^(٤١) كانت له مواقف جريئة وصريحة من مسائل عصره وأشخصه، فتناول التربية البيتية والتعليم والسياسة والسياسيين، وتعمق في دخائل النفس البشرية فكشف فساد الطبيعة البشرية. وكانت له صولات وجولات حول الشعر والشعراء، الطبيعة ولبنان، المرأة والحب. وتعمق في بعض أفكاره فوصل إلى مستوى الكلام على الإلحاد والفلسفة.

وقد اعتمد الخليل في شعره أسلوباً خاصاً به، وتميّز في بعض شعره ببنية قصصية لافتة. وقد قدر له كثيرون شعره وأبدوا آراءهم فيه.^(٤٢)



(٤٠) من يرغب في الاطلاع على تفاصيل حول هذه الدواوين فليراجع كتاب «خليل روكز، شاعر الحرمان والكفر والإيمان»، تأليف حكمت شكري حنين، الصادر عن دار النجّاح - بيروت سنة ١٩٧٢.

(٤١) من يرغب في الاستزادة حول آراء خليل روكز في المحاور التي تناولها في شعره، فليراجع الكتاب المذكور سابقاً في الحاشية (١).

(٤٢) من يرغب في الاطلاع على هذه الآراء، فليراجع الكتاب المذكور سابقاً في الحاشية (١).

العامة، الأمثال السائرة، المراجع التاريخية العامة والمباحث الفلسفية.

وقد سدت بعض الثغرات في ثقافته رحلاته العديدة إلى أفريقية والعراق والكويت.

من هذه المنابع المتعددة استخلص شاعرنا ثقافة عامة، مكنته من أن يثبت وجوده الشعريّ الفاعل في المناسبات جميعها.

٥. آثاره:

رغم الفترة القصيرة التي عاشها خليل روكز (أربعين سنة)، فقد ترك مجموعة شعرية هي عبارة عن:

١. ستة دواوين: دموع الطير، القمر، كفر وإيمان، حرمان، هند وجميل والنسمات. هي دواوين صغيرة الحجم، تتراوح صفحاتها بين ٢٨ صفحة (دموع الطير) و١١٩ صفحة (حرمان) - من منشورات حمد - بيروت، صدرت والشاعر ما يزال حياً بعد أن باعها حق نشرها. طبع معظمها طبعة ثانية سنة ١٩٦٨.

٢. ثلاثة دواوين: يقظة الأحلام، روحين، مع المغتربين. لم يبق من الأولين سوى اسميهما^(٣٩).

أما الثالث فقد عثرنا على بعض قصائده في ديوان خليل روكز الذي صدر سنة ١٩٦٤.

٣. ديوانان: الأسرار وابن الحرمان. وهما ديوانان صغيرا الحجم، تتراوح صفحاتهما بين ٧٧ صفحة (الأسرار) و٩٦ صفحة (ابن الحرمان). نشرتهما مطبعة شمالي إخوان سنة ١٩٧٠.

(٢٩) المصدر نفسه: ٢٢٥-٢٢٦.

(٣٠) ديوان خليل روكز: ٢٢٥-٢٢٦.

(٣١) راجع سيرة خليل روكز في هذا البحث، ص ٣.

(٣٢) راجع سيرة خليل روكز في هذا البحث، ص ٣.

(٣٣) خليل روكز، الأسرار: ٦.

(٣٤) سلك سبيل حياته.

(٣٥) خاطبه في كثير من غزله.

(٣٦) خليل روكز، القمر: ٤٣.

(٣٧) كان معجباً به ويخاله إلى حد لا يوصف. أتى على ذكره مرّات عدة في شعره على سبيل الاستشهاد.

(٣٨) كان يجله كثيراً ويقرّ بفضل أدبه عليه.

(٣٩) ديوان خليل روكز: ٤٠٢.

جواد بولس

جواد بولس كما لم تعرفوا عنه؟!



سيمون عواد

أوتيل ديو، حالت دون وصوله إلى ذلك المقر الذي هوجم في ساعة متأخرة من الليل! قلت إن ظهور المؤرخ في مناسبة إصدار كتابه الأخير «التحوّلات الكبرى في تاريخ الشرق الأدنى منذ الإسلام» في مقرّ «الجهة اللبنانية»، أعقبه غداء، كنتُ إلى مائدته مع عددٍ من الشخصيات في مطعم كرم على الأوتوستراد الفاصل بين أنطلياس والضبيّة. وقد درج صاحب هذا المطعم على إقامة مثل هذا الغداء كلّ سنة على شرف صاحب أوتيل «بل مون» في إهدن، وفاءً لأيّام كان يعمل فيها لديه، وقبل أن يحوّله إلى مضافة لأصدقائه.

«فكرم» الذي حاول أن يفتح أول فرع من مطاعمه، كان بحاجة إلى السيولة، التي ساعده بها الأستاذ، فكان أن حفظ له هذه المأثرة بهذه المأدبة. يومها، شعرت أن المؤرخ أصيب «بدوار» مفاجئ، فتأديت على ألبير محرز سائقه، ونقلناه إلى مستشفى أبو جودة في جلّ الديب حيث أُجريت له الفحوصات وتلقّى الإسعافات اللازمة لنزيفٍ تبينَ في المعدة، ليخرج من ثمَّ إلى يسوع الملك، ففندق «البستان»، للراحة.

وهو في «البستان»، طلب منّي أن أوافيه للقاء مع الرئيس المنتخب بشير الجميل عند حوالي الساعة الخامسة عصرًا، أي عقب انتهاء زيارته للنائب ألبير مخيبر في منزله ببيت مري والتي دامت ثلاث ساعات.

كنت أعرف مدى إعجاب الرئيس بشير بشخصية المؤرخ الخلقية في السياسة، والتي أهلتها، في مرحلتين، للاقتراب من رئاسة الجمهورية: مرّة بعد أحداث ١٩٥٨ عندما أبلغه الدكتور شارل مالك في برقية أرسلها إليه بنية الولايات المتحدة الأميركية دعم ترشيحه للرئاسة، إلّا أن أحداث الانقلاب في العراق حتمت مجيء اللواء فؤاد شهاب لدوافع أمنية للإمساك باستقرار لبنان الخارج للتوّ من محنة انقساماته على خلفية تدخل الرئيس جمال عبد الناصر الذي كان على رأس الوحدة بين مصر وسورية في

تعود معرفتي بجواد بولس إلى العام ١٩٦٤ عندما قدمني إليه الصديق «الكتلوي» إميل زيادة في منزله الكائن آنذاك في شارع الحوت وفي مبنى القيسي، إذا لم تخني الذاكرة، حيث كان يقيم في الطابق الذي يلي مستشفى غريب.

ومنذ ذلك الحين نشأت بيننا علاقة عميقة شخصية وفكرية حتى لحظة مفارقتها الحياة في أيلول ١٩٨٢، إثر جلطة دماغية تعرّض لها في أوتيل البستان في بيت مري، بعيد مغادرته غرفته في يسوع الملك بزوق مصبح، ليمضي إجازة نصف شهر في ذلك الفندق، وهو الذي كان يمضي مثل هذه الإجازات في فندق «السان روك» بعجلتون.

لقد سبق انتقاله إلى بيت مري ظهورٌ إعلامي حاشد في «الجهة الوطنية» التي كان عضوًا فيها، وعلّق هذه العضوية بعد اغتيال طوني، نجل الرئيس سليمان فرنجيه، احترامًا لمشاعر الزغرتاويين في العرين الماروني الشمالي، علمًا أنّ الرئيس فرنجيه حاول جاهدًا إقناع صديقه الرئيس حافظ الأسد بنقل رفات شفيح الطائفة مار مارون إلى أهمّ تجمّع ماروني في لبنان، ولكن بلا جدوى، إذ قال له: «ما الضير في بقاء ضريح القديس مارون الذي وُلد هنا وعاش هنا ومات هنا ودُفن هنا حيث هو هنا؟»، ولكن، بعد أسبوعين أعطى توجيهاته بإجراء تحسينات على هذا المقام الروحي، سعيًا إلى استرضاء حليفه، وتعويضًا عن عدم استجابته طلبه!

وأذكر أنّ المؤرخ الذي كان اتّخذ من دير يسوع الملك مقرّ إقامة له أخبرني بزيارة الدكتور سمير جمجع له لتبرير الغارة التي شنتها قوة كتائبية على المقرّ الرئاسي الصيفي الذي كان يقيم فيه النائب والوزير طوني فرنجيه مع عائلته، فشدد على أنّ تلك القوة لم تكن تستهدف نجل الرئيس وعائلته وحرّاسه، بل استحضاره إلى المجلس الحربي. وقد أقسم جمجع، كما قال بولس، يمينًا على الإنجيل أنّ إصابته في ذراعه، والتي نُقل بعدها إلى مستشفى



بسيارة «B.M.W.» قديمة الطراز نوعاً ما تتهب المكان، فعاجلني بولس بالقول: من يكون هذا المجنون؟ ولكن سرعان ما تبين أنه الرئيس بشير. فبادره: كيف تأتي لوحك من دون حراسة، وأنت تحمل مسؤولية البلاد؟ هذه مجازفة كبيرة بالصفة والمسؤولية التي تحملها!

لم يكن بشير الجميل وحده الناهل من مخزون جواد بولس التاريخي والسياسي؛ فقد كان منزله في شارع الحوت محجة لجميع السفراء الأجانب والعرب، فضلاً عن الشخصيات الأخرى القادمة من الخارج للوقوف على رأيه، وأذكر من هؤلاء محمد حسنين هيكل الذي جمعناه وعمر أبو ريشة في منزله لأربع ساعات قبل أن تنعكس انطباعات هيكل سنة ١٩٧٣ في محاضرة ألقاها لاحقاً في تونس.

وأذكر أن سقوط شاه إيران لم يكن أحد ليتوقعه، باعتبار أنه الحليف الأكبر وشرطي الخليج لدى أميركا، وهو الذي أقام جسراً جويّاً لإسرائيل في «حرب الغفران» عام ١٩٧٣ عندما انتزع وزير الخارجية الأميركي هنري كيسنجر موافقة الكونغرس لصالح تخزين أضخم ترسانة في إيران بعد تردد في بيع أسلحتها، لأنه كان يدرك أن مثل هذه الترسانة ستخدم إسرائيل أجلاً أو عاجلاً؛ وهذا ما حصل!

ففي الاجتماع الذي ضمنا في منزل الأستاذ الكائن في شارع الحوت، توقع الكاتب في الموند ديبلوماسيك إريك رولو، وقبل أربعة شهور من سقوط الإمبراطور الشاهنشاهي محمد رضا بهلوي، وإلى مائدة الغداء، هذا المصير للشاه، معتبراً أن حلمه الإمبراطوري قضى عليه قبل أن يقترب «إيكار» الجديد من شمس

ذلك الحين لإطاحة الرئيس كميل شمعون حليف العراق وتركيا في مشروع حلف بغداد؛ والثانية، عندما جاءه رئيس المجلس النيابي كامل الأسعد، وكنت في هذا اللقاء، وعرض عليه إمكانية ترشحه للرئاسة نظراً لما كان يمكن أن يحصل عليها من أصوات وفق توقعاته. إلا أنه اشترط عليه التحرك للقاء التكتلات النيابية وقياداتها لتفعيل حركة الترشيح. غير أن بولس اعتذر عن القيام بمثل هذه الجولات طارحاً نفسه كمرشح إجماع!

وثمة بعد الترشيح المفاجئ «له»، وهو على أثر قيام فؤاد عوض وشوقي خيرالله بمحاولة انقلابية على الرئيس فؤاد شهاب في مطلع الستينات ليلة رأس السنة من العام ١٩٦١، عندما أبلغته مود فرج الله برغبة الحزب السوري القومي الاجتماعي في اختياره رئيساً للجمهورية لما يتحلى به من مناقبية أخلاقية وعلم وسعة ثقافية وتاريخية. (أتضح فيما بعد أن البريطانيين لم يكونوا بعيدين عن هذا الانقلاب!).

طبعاً، لم تكن الصورة التي انطبعت في ذاكرة الرئيس بشير الجميل عن تاريخ الرجل الأهدني حفيد قائد قوات يوسف بك كرم أسعد مكاري، ولا عن دور هذه العائلة التاريخي الماروني في صلب قيام لبنان المستقل، وعن تسلّمه الخارجية ووزارات أخرى في الترويكا الرئاسية عام ١٩٤٣ التي أشرفت على الانتخابات التي سبقت الاستقلال.. لم تكن جميعها غائبة عن فضاء هذا اللقاء. بل إن الجميل كان متأثراً بأفكار جواد بولس وشارل مالك، ما جعله يلوذ بهما لرسم خريطة طريقه إلى الرئاسة.

وخلال انتظار مجيء الشيخ بشير، قبيل يومين من اغتياله، كنت أتمشى مع الأستاذ في الباحة الرئيسية «للبلستان»، وفوجئنا



جواد بولس وميخائيل نعيمه بين
السفير محمد علي حماده وعمر أبو
ريشه وسيمون عواد عام ١٩٧٣.

حنين وجورج سكاف وفاضل سعيد عقل والمونسنيور منصور لبكي أعضاءها ، وأعلن عنها في مؤتمر صحفي في نقابة محرري الصحافة بالأشرفية.

ولدى وفاة الدكتور بستاني، عهد الأعضاء إلى الشيخ روبيير بترؤس لجنة المؤسسة، فرصد لها مبلغاً مهماً لجائزة سنوية، مُنحت على مدى سنوات ١٩٨٤ - ١٩٨٨ لجوزف ليان عن مخطوطته «وصفات شعبية من الحشائش اللبنانية»، سلّمت إليه عام ١٩٨٤ في مقر «الجهة اللبنانية» بعوكري؛ وللدكتور حارث البستاني عن كتابه «قرطاجة» بالفرنسية، سلّمت إليه في «دار عواد» بأنطلياس؛ ولميخائيل نعيمه عن مجمل أعماله، سلّمت إليه في منزله بالزلقا عام ١٩٨٨.

وفضلاً عن أنّ جواد بولس هو عضو في أكاديميات أوروبية وفي فنزويلا، فقد انتخب عام ١٩٧٣ رئيساً للأكاديمية اللبنانية، التي ضمّت نائباً له هو الشيخ عبدالله العلايلي وأميناً عاماً هو الدكتور فؤاد البستاني وخازناً هو الشاعر عمر أبو ريشة، وسعيد عقل وشارل مالك أعضاء، وعُهد بالسكرتارية العامة إلى سيمون عواد. تعمّدت في هذه الذكريات تناول الجانب الشخصي من حياته وتأثيره الذي تجاوز الحدود إلى كون أنّ منظمة الأونيسكو العالمية عندما فكّرت بكتابة تاريخ أفريقيا، طُرح اسمه للإشراف على هذا العمل، كما كان أبرز من رشّحتهم عندما فكّرت في إنشاء منظمة العلوم الإنسانية في جيبيل.

وإلا، لماذا أجرت السيدة نينا سباسوفا البلغارية، وهي قائمة بالأعمال في العراق وسورية، وزوجها كان سفيراً فيهما قبل أن يتولّى المديرية العامة في الخارجية، حديثاً معي ضمن برنامج

إنجاز «قنبلة نووية»، حاول أن يحصل على موادها اللازمة من أوروبا، فرفضت فرنسا بضغط أميركي، فلجأ إلى الصين، فتلقّى الجواب سريعاً.. وهوى.

على أنّ من الذكريات الملفتة التي حفظتها خلال لقاءاته شخصيات أميركية مهمة، أنّ شخصيّة كانت ذاهبة لزيارة الأسد فاستبقت الزيارة بلقاء مع الأستاذ صيفاً في فندق «السان روك» بعجلتون. وبعد انصراف هذه الشخصيّة، فهمت سرّاً لم يُطلع بولس عليه أحدًا، وهو أنّ الرئيس حافظ الأسد، عندما كان مصمماً على انقلابه عام ١٩٧٠ من القرن الماضي، استعان بجواد بولس ليفتح قناة مع الأميركيين الذين يحترمون رأيه. إلا أنّ بولس اعتذر عن الدخول في مثل هذه القضية.

لم تقتصر حياة المؤرّخ على مرجعيته السياسيّة، بل خاض غمار التأليف، فأنجز تباعاً خمسة أجزاء من تاريخ شعوب الشرق الأدنى طوال خمسة آلاف سنة، فكان محطّ إعجاب المؤرّخ البريطانيّ أرنولد توينبي، الذي اجتمع به عام ١٩٥٧ في فندق الكارلتون (الروشة)، فقدّم لأوّل جزء منها هو والرئيس شارل دوغول، ونشرتها له «دار موتون» في لاهاي، فلقبت الرواج في أوروبا، وذلك قبل أن تنتقل حقوق النشر إلى «دار عواد»، التي أملاكها، لنشرها بالفرنسيّة ومعربة عام ١٩٩٣، أي بعد وفاته.

وقد تحقّق هذا الإنجاز الذي كان يعوّل عليه المؤرّخ كثيراً، مع الأسف بعد وفاته، بعد تولّي الشيخ روبيير بولس ابن شقيقه فريد، الاهتمام بنشر تراثه، حتّى بلغ به الوفاء حدّ إنشاء مؤسسة وجائزة باسم جواد بولس، كان الدكتور فؤاد افرام البستاني رئيسها، وسيمون عواد وأمينها العام، وشارل مالك وسعيد عقل وإدوار



❖ لقاء جواد بولس وأرنولد توينبي
في أوتيل كارلتون - بيروت سنة ١٩٥٧

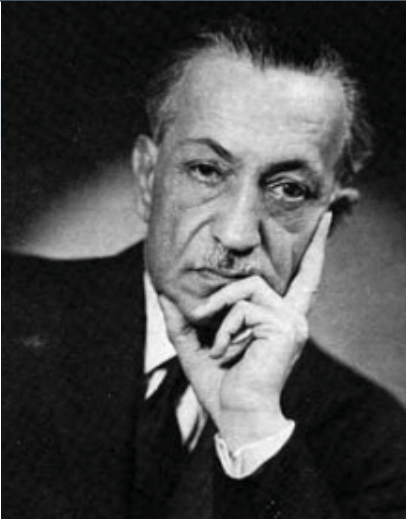


❖ جواد بولس إلى مأدبة في عام ١٩٧٤
ضمت جورج شحاده وميخائيل نعيمة

أعدته عن لبنان واختير في مداخلاته الرئيس الشهيد رفيق الحريري وسيمون عوَّاد في الحوار السياسي والتاريخي ومنصور الرحباني في التراث الفني الغنائي والموسيقى؟^{١٩} ولعلَّ الحديث الذي اقترحت أن يُجرى في إهدان، في الحديقة العامرة باللورود والتي كان يحلو لأستاذنا تعليم غصونها بيديه، أضفى على لقائنا نكهةً شخصيةً وأريجاً من الذكريات، قبل أن تنتقل إلى مأدبة الغداء مع السفير البلغاري وزوجته والملحق العسكري الروسي إلى المطاعم القريبة من الفندق الإهدني بدعوة من الشيخ روبيير بولس، ومن ثمَّ إلى الأرز في ساعة متأخرة جدًّا من ذلك اليوم!

صحيح أنَّني نصحت الإعلامية الدبلوماسية المعروفة سياسوفا بتناول موضوع التدخُّل السوري في لبنان عسكرياً واستخبارتياً من منطلق تاريخي وجغرافي في رؤية جواد بولس المحلقة فوق أحداث الماضي منذ أكثر من خمسة آلاف سنة نظراً للوصل الجغرافي بينهما الذي يحتم تكاملاً اقتصادياً، إلا أنَّني عرفت منها أنَّها مطلعة على دراسات له كدبلوماسية منذ عهد الاتحاد السوفياتي الذي كان يدرِّس مجموعة بولس التاريخية المخمسة الأجزاء في المعهد الدبلوماسي لتدريس الطواقم الدبلوماسية

ومثقفين في زغرنا. ويبقى الأهمُّ أنه أعطى للسياسة بُعداً أخلاقياً نفتقر إليه في هذا الزمن التجاري والارتعاشي المصلحي، الذي يتناقض مع سموخ الأرز الذي استظله الإهدني الكبير. كما أنه أعطى درساً في «الوفاء» السياسي يوم قاطع السياسيون الرئيس إميل إده، من أجل مقطع نُسب إليه بحق المسلمين لم يتمَّ التحقق من أمره حتَّى، فظلاً هو يقطع الطريق إلى منزله جهازاً نهاراً لا تلويه رغبةً أو رهبة!



جواد بولس

١٨٩٩ - ١٦ أيلول ١٩٨٢

جورج مغامس

الأديار والكهنة، غَبَّ من مَعينها زادًا لمعادِ الحِصاد؛ وقد لازمته عادةُ المطالعةِ طَوَالَ حياتِهِ.

وما أن حطَّت الحربُ أوزارَها حتَّى دخلَ معهدَ الحقوقِ الفرنسيِّ، بعدَ سنةٍ إعداديَّةٍ خاصَّة، ختمَها بنجاحٍ سهل. وكان تخرُّجُه محامياً سنة ١٩٢١، فانخرطَ في مكتبِ الرِّئيسِ إميلِ إدِه بين نخبَةٍ من المحامين، منهم الشَّيخُ بشاره الخوري.

وفي سنة ١٩٢٢، فتحَ مكتبًا خاصًّا به في طرابلس. وفي طرابلس سكن. ولم يَحْتَجْ طويلاً وقتَ لكي يلمعَ نجمُه، وتتهافتَ عليه الدَّعاوى. لكنَّه ما كان يَقبَلُ منها إلَّا القليلَ الضَّئيلَ، متوحِّياً الدَّرَسَ بأمانةٍ وإخلاصٍ في سبيلِ الحقِّ، من دونِ إعارَةِ الرِّبحِ الماديِّ كثيرَ اهتمام.

وبسببِ علمه وأخلاقه، أوكلَ إليه الفرنسيُّون المنتدَبون بعضَ الدَّعاوى المتعلِّقةِ بهم.

وفي سنة ١٩٣٥ اشترى أوتيل بالاس في إهدن، فرمَّمه، وأضافَ إليه، بحيثُ أصبحَ واحدًا من أهمِّ فنادقِ الاصطيافِ في شمالِ لبنان.

ثمَّ حظي بامتيازِ شركةِ كهرباءِ زغرتا- إهدن، واشترى الأملاكَ، وأولى الزَّراعةَ عنايةً خاصَّة.

وفي المرحلتين ١٩٣٢- ١٩٣٤ و ١٩٣٨- ١٩٤٠، انتُخب، بالإجماع، نقيبًا للمحامين في الشَّمال.

الصَّيفُ كان يُمضيهِ، دائِمًا، في إهدن.. إهدن التي قال فيها: «إهدن تعيد إلى جسدي النَّشاطَ، وإلى عقلي الصَّفاءَ، وإلى روحي السَّعادة».

وفي سنة ١٩٥٤، انتقلَ من طرابلس إلى بيروت، وسكنَ في شارعِ الحوت- بناية القسَّيس.

سافر إلى أميركا اللاتينيَّة والولاياتِ المتَّحدة وأوروبا مرارًا. وخلالَ سفره، التقى قبيلان المكارى، وأقتعه بضرورةِ العودةِ إلى زغرتا وإقامةِ مشاريعٍ حيويَّةٍ فيها، فقرَّرَ هذا الأخيرُ تشييدَ

هو سليلُ تلكِ القافلةِ الإهدنيَّةِ المبدعة، منذ البطارقةِ اسطفان الدَّويهيِّ وجرجس عميره ويوحنا مخلوف، والمطران يوسف مارون، وجبرائيل الصَّهيوني وسركيس الجمري، في القرنين السَّابعِ عشرِ والثَّامنِ عشرِ.

إنَّه جواد بولس الذي يقول فيه عمر أبو ريشة: «كم يزيِّدُ اعتزازي بلبنانَ عندما أكونُ في أحدِ المؤتمراتِ الثقافيَّةِ الدَّوليَّةِ، ويذكرون أمامي مثالاً على كبارِ مؤرِّخي العصر: بريستد، توينبي، وجواد بولس».

وُلد جواد بولس في زغرتا سنة ١٨٩٩، وفي سَمْعِه صدى كلمةِ جدِّه أسعد بولس: «يا ابني عليك أن تكونَ فارسًا. الخوفُ ليس من شيمِ الإهدنِيِّينَ والموارنة. والبطولةُ فضيلةٌ ستحتاجُ إليها في معركةِ الحياة، والفارسُ الصَّغيرُ يكونُ فارسًا في شبابه وشيخوخته».

والجدُّ هذا كان من أهمِّ الشَّخصيَّاتِ السياسيَّةِ والعسكريَّةِ في عهدِ المتصرفيَّةِ: قادَ قوَّاتِ يوسف بك كرم، وأطلقَ دعواتِ تحريريَّةً ضاقت بها الدَّولةُ العثمانيَّةُ فنفته إلى اسطنبول؛ وقد تركَ مذكِّراتٍ بالعاميَّةِ حقَّقها الأبُ المؤرِّخُ أنطوان ضو.

أثرُ الجدِّ في الحفيدِ كبير. وهو ظاهرٌ في شخصيَّته الصَّارمةِ جوهراً ومظهرًا، وفي طبيعته المتشكِّفةِ الزَّاهدة، ما جعلَ البطريركِ المعوشي يقول: «لو لم أكن بطريركًا لانتخبْتُ جواد بولس مكانِي».

دراسةُ الرَّجلِ الأوَّلِي كانت في مدرسةِ مار يوسف زغرتا، ثمَّ في مدرسةِ عينطوره ثلاثِ سنواتٍ وثلاثةِ شهور، حين أفلتتها الحربُ العالميَّةُ الأوَّلِي في كانونِ الأوَّلِ من سنة ١٩١٤.. ففعلَ جواد عائداً إلى زغرتا، حيث عيَّنَ له ذووه أساتذةً من الكهنة والرَّهبانِ الأنطونيِّين، من دير مار سركيس،.. ووفَّرَ له جدُّه كتبًا من مكتباتِ

برنامج سياسي.. وقال لي مرّة: «أفكاري يمكن أن تجعل منّي نائباً في باريس. أمّا أفكارُ أهالي زغرنا فلن توصل إلى المجلس النيابي إلاّ حميد وسليمان فرنجيه وغيرهما...»
 وإذا كان جواد بولس دخل الندوة النيابية والندوة الوزارية، فقد كان ذلك في ظروف معيّنة. فجواد بولس من النواب المعيّنين في مجلس ١٩٣٧-١٩٣٨. وهو عُيّن أيضاً وزيراً للخارجية والأشغال العامة والصحة، إلى جانب الوزير الآخر الأمير خالد شهاب، برئاسة الدكتور أيّوب ثابت، بموجب قرار صدر في ١٨ آذار ١٩٤٣ عن المندوب العامّ المفوض لفرنسا المحاربة في الشرق. وقد ظلّوا في الحكم حتى ٢١ تمّوز من السنة نفسها، حين عُيّن بترو طراد رئيساً لدولة الجمهورية اللبنانية.

حكومة بترو طراد أجرت الانتخابات النيابية سنة ١٩٤٣، استناداً إلى اتفاق كاترو النحاس باشا في القاهرة، أي على أساس توزيع المقاعد: خمسة وعشرين للمسلمين، وثلاثين للمسيحيين. وقد خاض جواد بولس هذه الانتخابات، في الشمال، في إطار كتلة إميل إدّه، وعلى رأس لائحة ضمّته راشد المقدّم، في مواجهة لائحة على رأسها حميد فرنجيه وعبدالله حميد كرامي، في إطار كتلة بشاره الخوري.

يومها تدخل الإنكليز، وتدخل الفرنسيون. وقد ألقى الإنكليز القبض على راشد المقدّم واقتادوه إلى قبرص،.. وذلك قبل أسبوع من إجراء الانتخابات، بحجّة العثور في بيت يخضه على حشيشة الكيف. وكان ما كان من خسارة ومضايقات. وظلّ جواد بولس وفيّاً لإميل إدّه، وقد قال للأب أنطوان ضو عند اندلاع أحداث ١٩٧٥: «كنّا على حقّ مع الرّئيس إميل إدّه. وكان حميد فرنجيه وبشاره الخوري على خطأ. يريدون التخلّص من فرنسا، والاستقلال السريع. الاستقلال ليس كلمات، بل هو عمل وإمكانية بقاء. والسياسة العربية في لبنان يجب ألاّ تعرّض استقلالنا للخطر، أو أن تتسبّب في ترك صداقاتنا التاريخية. المواردنا طالبا بطرد فرنسا، فليتحملوا نتيجة هذه السياسة».

ومنذ انتخابات ١٩٤٣، لم ينفك جواد بولس عن خوض المعارك الانتخابية، ولكن من دون جدوى.. فتخلّى عن زعامة العيلة. لكنّ حلم الرّئاسة ظلّ يراوده، وقد وظّف له مواهبه وصداقاته. لكنّ حظّه لم يكن في مستوى حلمه!

كنيسة مار يوحنا مع السور، وأقام من جواد بولس وكيلاً عاماً على المشروع.

وأصبح سنة ١٩٦٧، عضواً في الأكاديمية الفنزويلية للتاريخ. وسنة ١٩٧١، أسّس الأكاديمية اللبنانية مع عمر أبو ريشة وفؤاد افرام البستاني وسعيد عقل وعبدالله العلابي وشارل مالك ومخايل نعيمه، وانتخب رئيساً.

وبعد اندلاع الحرب في لبنان سنة ١٩٧٥، كان من مؤسسي الجبهة اللبنانية.

ثمّ ساهم مع إدوار حنين وفؤاد افرام البستاني وشارل مالك في تأسيس مجلة «الفصول اللبنانية».

وسنة ١٩٧٦، اتخذ من دار يسوع الملك في زوق مصبح مقراً له. ومساءً الخميس ١٦ أيلول ١٩٨٢، وافته المنية، وهو في مستشفى بجنس، إثر نوبة قلبية. وفي إهدن ووري الثرى موسى بوشاح الأرز الأكبر، تقديرًا لدوره الفكري والسياسي.

جواد بولس كان يفاخر بأنّه «حفيد أسعد بولس، البطل والقديس، وصديق يوسف بك كرم، وباني الزعامة»، وقد احتفظ بعدّة جدّه العسكرية الشخصية، وزيّن بها جدران بيته.

تزعّم عائلته بعدما لمع نجمه كصديق لإميل إدّه وبشاره الخوري، وللفرنسيين الذين وثقوا به كما لم يثقوا بأيّ سياسي آخر.

وحده بين أبناء بلده كان يُعرف بـ«الأستاذ»؛ وقد حاول، بكلّ ما أوتي من حكمة، أن يقتلع جذور الثأر والعنف من نفوس مواطنيه، محتكماً إلى روح الضمير والقانون.

ومع ذلك، ولأنّ العائلية متحكّمة بمواطنيه، لم يُنح له أن يلعب دوراً حزيباً في الكتلة الوطنية التي ألفها صديقه إميل إدّه، ففضّل أن يبقى مستقلاً. وهو، وإن كان من مؤسسي الجبهة اللبنانية، فإنّه لم يرتض التماسك والاحتفاظ بموقعه في هذه الجبهة، بعد حادثة إهدن، رغم ما كان عليه الوطن من محنة كبرى.

ومهما يكن، فإنّ الرّجل سعى، في عمله السياسي، لأن يكون مرشّح إجماع في النيابة والرئاسة، غير أخذ بمبدأ النضال الذي هو طريق الإجماع- على ما يرى الأب أنطوان ضو، الذي يضيف:

«كان جواد بولس يؤمن بمقولة كورنيس: في الحياة السياسية، لا يُعوّل، في أكثر الأحيان، على البرنامج أو المنهاج، بقدر ما يُعوّل على الشخصية... فشخصية رجل الدولة هي، في الوقت نفسه،

جزالة هيروودوتس، ورشاقة توسيديد، وفلسفة بوليب، وعمف ابن خلدون، ووضوح مونتسكيو... واحتلّ، في عصرنا هذا، مكانته الرفيعة إلى جانب أرنولد توينبي، وجاك بيرين، وموسكاتي.. فإذا به علّم بين الأعلام، ومرجع من أهمّ المراجع... غربل أقوال كبار المفكرين، ثمّ نخلها، واستخلص منها نهجاً يكاد يكون فريداً يقوم على قواعد وطيدة...»

وقال إدوار حنين: «كان خزنة معارف تمشي على قدمين، ويتنقلُ بها حيثما كان يستدعيه الواجب أن يكون، فينشرُ معارفه في الجامعات والأندية الأوروبية والأميركية واللبنانية... كان رجل رأي، وكان رجل مواقف، لا يغيّب الحق عن رأيه، ولا تغيّب عن مواقفه الشجاعة والصدق والثبات...»

ورأى الأباتي بولس نعمان أنّه يختلف جذرياً عن غيره من المؤرّخين، لأنّه قصد التاريخ من عالم السياسة، من عالم الإنسان الضّاح والصّاحب والملتزم... فهو مدرسة خلقية أخلاقية، وسياسية تاريخية غير عادية.

واعتبره ميخائيل نعيمة من أساطين التاريخ في شرقنا العربي.. التاريخ عنده هو أكثر بكثير من سرد أحداث وقعت هنا وهناك. إنّه علّم يجري على سنن قلما تتبدّل على كَرّ السنين...»

يقول محمّد علي الطاهر «أبو الحسن»، المجاهد العربي الكبير: «لو فهم لبنان جواد بولس، لكان انتخبه رئيساً للجمهورية مدى الحياة. ولو أنعم الله على العرب أن يتحدوا، لكان عليهم أن ينتخبوه رئيس جامعة الدول العربية، وليس أمينها العام». ويوم عاد البطريرك المعوشي من روما كاردينالاً قال مرحباً: «يا أستاذ جواد، لو بعدها روما بترسم علمانيين كرادلة لكانت الكاردينالية ذهبت إليك قبل أن تصل إلي».

جواد بولس.. قلعة أنت ومنارة من إهدن عميره والدويهي والصهيوني.. أثارك وفعالك تهدي وتحمي. أنت تاريخ من تاريخ لبنان.

لكم أغنيت لبنان!

هل حقاً نترأك.. نُصغي إلى هداياتك!

ألا إن لبنان.. لبنان الحضارة والرسالة يغنيك دائماً وأبداً.

إذا كان حلم جواد بولس في السياسة والرئاسة لم يتحقّق، فإن ما تحقّق له، ولنا منه، هو المعرفة التاريخية الكبيرة.

فقد انصرف منذ سنة ١٩٤٥ إلى مطالعة الكتب التاريخية التي تتناول تاريخ الشرق الأدنى وشعوبه، فاكتشف، وحلّل، وقارن... وما كتبه بالفرنسية والعربية هو جزء يسير من بحر معارفه الواسعة.

له «تاريخ شعوب الشرق الأدنى وحضاراته»، وهي موسوعة في خمسة أجزاء، قدّم المؤرّخ الشهير أرنولد توينبي لها بكلمة، هي الوحيدة يقدّم بها أثرًا تاريخياً، وقد جاء فيها: «يتفرّد مُصنّف الأستاذ جواد بولس في تاريخ آسيا الغربية بخصائص جعلته يساهم في بيان معرفتنا في ذلك الموضوع مساهمة بالغة النفاسة... وسيجد القراء العرب، شأنهم في ذلك شأن القراء الغربيين، في دراسة هذا المُصنّف، الكثير ممّا يُعوّزهم علمه».

وأهدى الأستاذ بولس الجزء الأول من موسوعته إلى الرئيس شارل ديغول، فتلقى منه رسالة جوابية، جاء فيه: «سيدي الوزير، هذا الجزء الأول من «تاريخ شعوب الشرق الأدنى وحضاراته» أتاح لي تقدير أهمية العمل الذي كرّست نفسك من أجله. وإنّي لقادرٌ كون هذا المُصنّف، الذي سيلقى رواجاً كبيراً، قد كُتب باللغة الفرنسية».

وقد اعتُمدت هذه الموسوعة في مركز الميمو بالاتحاد السوفياتي، حيث يُدرّس الدبلوماسيون السوفيات.

ومن مؤلّفات جواد بولس أيضاً: تاريخ لبنان والبلدان المجاورة، والتحوّلات الأخيرة في تاريخ الشرق الأدنى منذ الإسلام، والأسس الحقيقية للبنان المعاصر.

وبعد الوفاة، أُنشئت في العام ١٩٨٣، مؤسسة تحمل اسم «مؤسسة جواد بولس»، قدّمت أوّل ما قدّمت جوائز لجوزف البيان عن مخطوطته «الأعشاب اللبنانية»، ولميخائيل نعيمة عن مجموعة مؤلّفاته، وللدكتور حارث البستاني عن كتابه «قرطاج»..

وعملت على إقامة معرض دائم لإرث الراحل الكبير في إهدن.

ومن الشهادات في جواد بولس، وما أكثرها.. قول جورج مصروعه: «قفز في التاريخ من قمم المؤرّخين القدامى إلى المستوى العالمي في أواخر هذا القرن العشرين. جمع من العصور القديمة بين

ظاهرة الوجد الذوباني في أدب ميخائيل نعيمة



د. جان نعوم طنوس

ثنائية الانقسام بين الذات والموضوع، وبين اللاشعور والشعور، ومن ثمّ فهو ليس مضاداً للعقل، وربما يفوق العقل نفسه بعيداً عن عمليّات القولية والاعتیاد على المألوف.^(٤)

ولن نتساءل، هنا، عن منشأ الوجد الانصهاري: أينع من الشعور الجنسي، كما يقول بعض المحلّلين والمفكرين، أم أنّ له كياناً مستقلاً مع أنّه يرافق الأحاسيس الجنسيّة؟ أتلازمه النرجسيّة حيث يكون القطب الآخر امتداداً للأنا، أم أنّه ذروة العاطفة الغيرية؟ أيكون عارضاً مرضياً، أم أنّه على النقيض يسمو على مقولة الصّحة والسويّة النفسيّة؟ علينا، بدايةً، أن نفهم بعمق هذه الظاهرة الروحيّة، وبعدئذٍ نتمكّن من الحكم عليها. لذلك نستعرض، في هذه الدراسة التي شتّناها موجزة، مقاطع من أدب ميخائيل نعيمة تعبّر خير تعبير عن هذا الوجد الذوباني الذي عاناه بعمق، فقربه من المستوى الصوفيّ المعروف عند أقطاب هذه النزعة على اختلاف أدبائهم ومشاربهم.

«في مذكّرات الأرقش» يتحدّث بطل المذكّرات عن «السكر» التي سكرها ليلاً، ويرى أنّها فوق الوصف، شأن التجارب الروحيّة الكبرى. يقول:

«لعلّها ما يدعونه «غبطة الوجود» انسكبت عليّ بغتة انسكاب أشعة الشمس على كرة من البلور، فأحسستني كياناً شفافاً مترعاً حرارةً ونوراً».^(٥)

غبطة الوجود تعني، إذًا، غياب المصاعب الداخليّة والخارجيّة، وهي تأتي فجأة، بدون سابق تحضير، على نقيض الحال في بعض الرياضات الصوفيّة. ثمّ إنّها تفترض رهافة نفسيّة نادرة؛ فتكون الذات شفافة، رقيقة، وكأنّها مرآة مصقولة أو كرة من البلور، حتّى تستطيع أن تخترقها أشعة تلك الغبطة، وتملؤها حرارةً ونوراً. ويتابع أرقش نعيمة وصف هذه العجيبة:

يرافق الوجد Extase علاقة الانصهار الحميمة التي تقوم بين الذات والموضوع الخارجيّ، وهذا الأخير قد يكون الله نفسه (المتجلّي في النفس) أو الطبيعة الفاتنة أو الانسان عينه بوصفه معشوقاً. وتعني كلمة «الوجد» في اللاتينية أن يكون المرء خارج نفسه (ex-tase)، أي في ملاقاته الآخر، وعندئذٍ تطغى عليه مشاعر نادرة من الفرح الجارف والانخطاف المفاجئ، تفوق المستوى العاديّ. ولا معنى للاتحاد من غير هذا الشعور، كالعقل لا جدوى منه بلا عاطفة، فالغبطة الشاملة الكيانيّة في أساس تجربة الاتحاد. ولهذه الكلمة مدلولات عديدة، فمنها ما يعني الوجد الصوفيّ، والجنسيّ، والعاطفيّ، وحتّى الفكريّ، وذلك الناجم عن تناول المخدّر والمهلوسات^(١). وجدير بالذكر أنّ الوجد، ولو كان وقفاً على فئة ممتازة، فإنّ غالبية الناس تشعر بشيء من هذا الشعور المدهش، وذلك في مناسبات معلومة، أقلّه كاحتفالات الأعراس، وعند قدوم الربيع، وفي بداية الحروب الدفاعيّة، وعند تحقيق الانتصارات بعد صراع قاسٍ، وفي لقاء الجنس الآخر بعد طول انتظار وشوق، وبعيد بلوغ هدف صعب المرام... وقسّ على ذلك... على أنّ هذا الشعور الذي يجتاح الكيان اجتياحاً تاماً، يتحقّق في أعلى درجاته عندما يتعالى الوجدانيّ على شروط الزمان والمكان (ولعلّها تتبدّى بشروط جديدة)، وعندئذٍ تتحوّل الذات تحوّلًا عجيبيًا، وتحدث ما يشبه الأعجوبة، أعجوبة الغبطة التي لا توصف، ولا مثيل لها في دنيا الصراع، وتتمّ الإستنارة وهي معرفة من نوع خاصّ.^(٢)

ويوضّح العالم رولوماي الذي يمثّل التحليل النفسيّ الوجدانيّ، هذه الظاهرة بقوله إنّ هناك حالة فريدة من الشعور بالذات، وبعبارة أكثر دقّة، حالة من الشعور الفائق متجاوزاً حدود الذات، كما يعبر نيته. ويقرّر أنّها تتخطّى الإسقاط (أي تخيّل وجود الآخر كما نريد، وليس كما هو في الواقع) الذي يسمّى عادة: الحقيقة بداع من دواعي الغرور^(٣). وفي موضع آخر يرى ماي أنّ الوجد يلغي

- اللاموصوفيّة، بمعنى المعجز عن الكلام عليها؛
- المعرفيّة، فهي ليست فقط حالات شعوريّة، ولكنها أيضًا معرفيّة؛
- الموقوتيّة، فهذه الحالات لا تدوم طويلاً؛
- الانفعاليّة، أو السلبيةّ تحديداً، إذ يفقد فيها الصوفيّ إرادته ويشعر أنّه مأخوذ بقوة عليها. (١٣)

والأرقش لا يستطيع تحديد هذه التجربة، فهي تفوق الغبطة العادية التي يشعر بها سائر الناس. وقل إنّها غبطة إستثنائية، نادرة الوجود، ويجوز القول إنّها فرح الأفراح، أو مليكة كلّ غبطة، ومن ثمّ، فلا يبلغ إليها العقل ولا الخيال، ولا تساورها الهموم أو الشكوك. وقديماً عبّر الصوفيّون عنها بقولهم، إنّك مهما وصفت العسل لأحدهم فلن يستطيع معرفته إلاّ بتذوّقه، وإنّك مهما شرحت جمال الشمس للأعمى فلن يكتشفه إلاّ إذا فتح ناظره. (١٣) ولا يلبث بطل المذكرات أن يتحدّث عمّا سمّاه وليم جيمس بـ«الموقوتيّة»:

«ذهلت عن نفسي، فما أعرف أدقيقةً طال ذهولي ساعة أم دهرًا. ويا ليتّه كان ذهولاً لا نهاية له». (١٤)

هنا يتغيّر معنى الزمان، كما أشرنا سابقاً. فالزمن الرياضي انتهى، وانتهى أيضاً الزمّن السيكلوجي، ونعني به ذلك المضمّن بالهموم والمصاعب النفسية. وبدأ زمن آخر هو الزمن الروحي، فلا يعرف الرجل مقدار ذهوله: أدقيقةً طال أم دهرًا؟ غير أنّ هذا الدهول يقودنا إلى أمر آخر هو اختلال معنى الزمان عند المضطربين عقلياً، وهؤلاء لا يميّزون بين الماضي والحاضر والمستقبل، إذ يعيشون الماضي وكأنّه حاضر، والعكس صحيح، كما لا يميّزون الوقت صباحاً وظهراً ومساءً، وما إلى ذلك. وليس ذهول الأرقش، في هذا الإطار، وإنّما هو، إن شئنا التقريب، شبيهه بعدو الزمن في لحظات الفرح. وكلّنا يعرف أنّ تلك اللحظات سريعة، على نقيض لحظات الألم، فهي طويلة جدّاً، فأحياناً يتقاصر الزمن، وإذا به يمرّ بسرعة خاطفة، فندهب عندئذٍ ونساعل: أحقّاً مرّت هذه الساعات وكأنّها دقائق؟ فليس الأرقش، في هذا السياق، مجنوناً أو مضطرباً نفسياً، وإن كانت ثمة دلائل تشير، في مواضع أخرى، إلى هذا الأمر. (١٥)

«أيّها الزمن توقّف!». تلك هي صرخة لامارتين، بل صرخة كلّ إنسان تقلّب في نعيم السعادة، راجياً أن تدوم الحالة إلى الأبد. وها هو الأرقش يقول:

«فلا أنا من لحم ودم، ولا أنا سجين زمان ومكان، ولا أنا أنا، فكأنّ الكائنات منظورها وغير منظورها قد ذابت فيّ وذبت فيها. فالشمس والقمر والنجوم مني وأنا منها، وهي فيّ وأنا فيها. ومثلها الأرض بكلّ ما على سطحها وفي جوفها وجوّها من الغرائب والعجائب». (١٦)

ويتبيّن لنا أنّ الوجودي يتفكّر من قيود الزمان والمكان^(١٧)، بمعنى أنّه يصبح متحرّراً عن الحتمية الزمكانيّة، وعندئذٍ تلعو الذات عليها. ولكن، ما هو المعنى العميق لهذا التحرّر؟ يرى الفيلسوف الألمانيّ لودفيغ فيورباخ أنّ «المكان والزمان ليسا شكلين ظاهريين بسيطين، إنّهما قانونان للكائن، شكلان للعقل»^(١٨). ويضيف: «لذا فالمجانين لا يبلغون العقل إلاّ بأن يرتبطوا مجدداً بالمكان والزمان»^(١٩). على أنّ التحرّر من الزمان والمكان، في حالة الدهول الوجداني، لا يعني أنّ المرء استحال روحاً صرفاً منقطعة الجذور بالواقع، وكأنّها تسبح خارج الفضاء. إنّّه يعني أنّ هذين البعدين للمادّة أضحي لهما دلالة جديدة نابعة من نظرة جديدة، فالمعول عليه ألاّ يكون الأرقش «سجين زمان ومكان».

من الطبيعيّ في هذا السياق، أنّ تتحوّل الشخصية إذ لا معنى للتجربة الروحية من غير هذا التحوّل. لذلك يتمّ التحرّر من اللحم والدم ومن الفردية الشبيهة بالذرة المنعزلة «أنا هي أنا». وإذ يُفضى على القوقعة التي يحتمي فيها بعض الناس، يحدث التفاعل الغريب، بل يحدث ما هو أعظم من التفاعل: اندماج في الطبيعة، أرضاً وفضاءً، فلا فاصل بين العالم الداخليّ والعالم الخارجيّ، بل إنّ الإنسان والكون واحد. (١٠)

ويتابع الأرقش وصف هذه الحالة مع أنّها تجلّ عن الوصف كما يقول:

«الكلّ ذوب لا يوصف من محبة لا توصف. والشعور بتلك المحبة لا ينقاد إلى تعريف أو تحديد، إنّّه الغبطة بعينها، بل هو الغبطة فوق كلّ غبطة. غبطة لا يحلّق إليها فكر، ولا يطالها خيال، ولا تعلق بأذيالها أشباح هموم أو شكوك أو غموم». (١١)

إنّ كلمة «الكلّ» تعني النحن، حيث لا هوة بين الأنا والأنت. لقد «ذاب» الجزء في الكلّ، والكلّ في الجزء، وما ذلك إلاّ لأنّ هذه الحالة نابعة من «محبة لا توصف» تأتي بغتة، كما بيّنا سابقاً، ومن المحال اللجوء إلى التحليل أو إلى تعريف تلك الحالة، مع أنّه يمكن وصف نتائجها. وقد حدّد الفيلسوف وليم جيمس أربع خصائص للصوفيّة هي:



- ليس الله هو الغائب وحسب، بل إنَّ الإنسان نفسه غير موجود.
ليس إلاَّ الأرقش والطبيعة، والآخر المختلف أو المؤتلف محذوف كلياً.
- إنَّ تجربة الوحدة الفائقة تأتي بغتةً، على نقيض بعض التجارب المتأنتية بعد ألم طويل، أو تطهّر دائم، ثمَّ إنَّ جوهرها محبةٌ تلغي المسافة بين الذات والموضوع حتّى يصبح الإثنين واحداً.^(١٦)

وفي الرواية الفلسفية «اليوم الأخير» يتحدث موسى العسكري، الذي يترجم مشاعر الكاتب، عن نشوة التجربة الروحية بما لا يختلف عما كتبه الأرقش. يقول عندما شاهد حبيبته رؤيا: «لقد سكر الكون بسكرتنا، وراح قلبه ينبض في قلبنا، ولأوّل مرّة في حياتي عرفت غبطة الدهول عن نفسي ونشوة الذوبان في نفس أخرى، وقد باتت تلك النفس تمثّل في نظري البحر وما فيه، والسماء وما فيها، والأرض وما فيها، وما فوقها وتحتها وحواليها. لقد كنّا إثنين في واحد، وكان ذلك الواحد كلّ شيء وفي كلّ شيء، وكان بغير بداية أو نهاية».^(٢٠)

لقد دخل هنا عامل جديد هو المرأة أو الحبّ العاطفيّ، لكن ذلك الحبّ لم يكتفِ بتجربة الوحدة وهي صيرورة الإثنين واحداً، بل إنّه امتدّ ليشمل الكون: الأرض والسماء، حتّى ليصبح الواحد «كلّ شيء وفي كلّ شيء»، وأكثر من ذلك، إنّ الإحساس بالزمن يتغيّر ليغدو إحساساً بالأبدية، وقل بالسرمدية حيث لا بداية (الأزل) ولا نهاية (الأبد). من هنا لا تختلف الحالة الروحية عند موسى العسكري عن تلك التي يعانها الأرقش:

«نشوة باتت دقائقها أبديات، فغرق فيها الزمان والمكان، وتعطلّ الشعور بكلّ شيء إلاّ بها. فلا همّ، ولا غمّ، ولا خوف من فاقة أو من مرض أو من موت. لقد أمست المسكونة بأسرها حليفة وفيّة لي ولرؤيا، وشاهدة على غبطني وغبطتها. ولم يخامرها أو يخامرني أقلّ شكّ في أنّ نشوتنا ستدوم ما دام الزمان».^(٢١)

نشوة مدهشة حقاً، ومحيّرة. فهي لم تنبعث من تشويش الحواس، كما يقول رامبو، ولا من المخدّرات التي يلجأ إليها بعض السوراليين، ولا من نبات المسكالين الذي يولّد حالة صوفية، أو ما يشبه الحالة الصوفية، بحسب تفسير بعض المحلّين.^(٢٢) يضاف إلى ذلك أنّها لم تأت من عملية تقشّف قاسية أو من تطهّر

«ولو أنّني ما عشت في حياتي غير تلك الدقيقة لاكتفيت بها حياة كاملة، ولو أنّ حياتي ما كانت غير طريق مفروش بالشوك يؤدّي إلى تلك الدقيقة لرضيت لها ربّ الحياة الذي متّعني بها. تباركت حياة جمالها يذهل الإنسان عن نفسه».^(١٦)

يعيش بعض المرهفين ليفوز بلحظات «المجد»، أو تلك السعادة القصوى. وربّما تخلّى القديسون والأدباء عن سنوات كثيرة من عمرهم بغية الفوز بلحظات التجلّي. فليس غريباً أن يتمنّى الأرقش «تلك الدقيقة» راضياً بـ«طريق مفروش بالشوك». الحياة بحدّ ذاتها غير مهمّة إلاّ إذا قادتنا إلى حالة تتعدّى الصراع في الدنيا؛ وهذه الدنيا عبارة عن كلاب تعاوت لجيفة، على حدّ قول المعريّ. كلّ الألام مباركة شريطة أن تؤدّي إلى «الدهول»، بمعنى نسيان النفس الفردية والدهول في «الكلّ»، أو الوحدة الشاملة. وإذا كان للحياة من قيمة فهي ببعض المسرّات والأفراح التي تجعلنا نتدوّق شيئاً من حلاوة الوجود.^(١٧)

وأخيراً، ينبئ الوجد في عالمنا بوجد أعظم متواصل في عالم آخر، فكأنّه الدليل إلى «ملكوت السماوات»، من غير حجّة عقلية أو لاهوتية. حجّة الوجد منه وفيه:

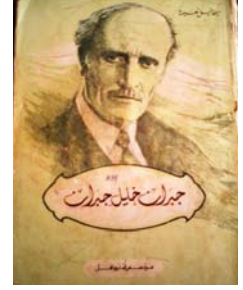
«وما أدراك، يا أرقش الخير، أنّ ذهولاً طرأ عليك الليلة فتدوّقت فيه «غبطة الوجود» ليس بشيراً بذهول أطول فأطول، وأعمق فأعمق حتّى تبلغ الدهول السرمدية! اللهمّ، أذهلني عن نفسي».^(١٨)

تبدو البراهين العقلية والدينية على وجود عالم آخر، أكثر جمالاً وسعادةً من عالمنا «الأرضي»، غير مجدية إذ لم يتدوّق المرء غبطة الوجود، حيث ينسى فرديته الخائبة، وتمتدّ نفسه لمعانقة الكون بفرح عجيب، أين منه الفرح اليوميّ، العاديّ؟

نستنتج من الحالة الوجدية عند الأرقش، وهو لسان حال ميخائيل نعيمة، ما يلي:

- لحظة السعادة أو الغبطة القصوى التي تتعدّى المقاييس العادية يمكن بلوغها في هذه الحياة، وكأنّ الأبدية موجودة في الزمن، تطبيقاً للعبارة الإنجيلية: «ملكوت السماوات في قلوبكم».

- لا وجود لكلمة «الله»، وهذه الأخيرة قليلاً ما يستعملها الكاتب في المقاطع الوجدانية، ولا وجود لكلمات أثّره عند نعيمة مثل الحياة والنظام وما شابه. فالتجربة الروحية تبدو هنا، وفي هذا السياق، تجربة بلا إله، وقل إنّها تجربة اتحاد بالطبيعة، وليس تجربة اتحاد بالخالق.



ولكنها لا تخرج عن الخطّ العامّ المذكور سابقاً، لذلك نكتفي منها بعبارات يسيرة:

«إنّ موسى العسكري لن يجد نفسه التي بغير حدود إلاّ إذا هو أضع نفسه التي تخنقها الحدود».^(٢٩)

إنّ زوال الفروقات بين الأنا والعالم، وبين الذات والله، مسألة في صميم التصوّف الروحيّ، بقطع النظر عن اختلافات الأديان والمذاهب. فالصوفيّة هي اجتماع المتناقضات على نحو جديد، وبكيفية جديدة، لذلك تعيد صوغ مبدأ الهوية، فبدلاً من أنا هي أنا، تكون أنا هي العالم والعالم هو أنا.^(٣٠)

وفي موضع آخر من الكتاب يرى الدكتور موسى العسكري أنّ الحياة المعيشة، حيال فتنة التوحّد بالآخر، حياة تافهة وحقيرة، وكأنّها لا حياة:

«من الأكيد أنّي، وأنا أعيش تلك اللحظات الفاتنة في تلك المرجة الفاتنة، كنت احتفظ في زاوية من زوايا ذاكرتي بالكثير من صور الحياة التي يحيها الناس على الأرض، ويحسبون أنّها الحياة، أو أنّها «الواقع» الذي لا حقيقة إلّا. فهناك الظلم والظالمون، والجياح والمتخمون، والبخلاء والمبذرون، والمتعبّدون والكافرون، والمتعفّفون والمتهتكون [...] إلاّ أنّ تلك الصور تقهقرت بعيداً عن وعيي حتّى باتت وكأنّها غير موجودة، أو أنّها اندمجت جميعها في صورة واحدة هي صورتي وقد أصبحت خارج المتناقضات. فلا دمي يضحّ بالشهوات، ولا فكري يدبّ في الظلمات، ولا المخاوف والهجوم والغموم ترعى في لحمي ودمي».^(٣١)

ونستنتج، من هذا السياق، أنّ الواقع الحياتيّ، عند الناس، هو صورة مشوّهة عن الحياة الروحية، ولعلّه أقرب ما يكون إلى الجحيم، بشكل عامّ. إنّه عالم الصراع والمتناقضات، وسرعان ما يتقهقر عن وعي الدكتور موسى عندما تطفئ مشاعر الاتحاد، وتغيب مشاعر الانفصال. والملاحظ أنّ هذه النشوة هادئة، مع أنّها عميقة. فالأهواء المدمرة لا تتحرّك، بل إنّ ثمة شعوراً سائداً محوره الغبطة ولذة الاتصال الجوهريّ، بعيداً عن ذلك الاتصال السطحيّ المعروف. إنّه هوى الأهواء، ذلك الذي يسيطر على الأهواء كلّها، ولا غرض له إلاّ «الذوبان في الكون».^(٣٢)

دينيّ أو أخلاقيّ متطرّف. لم تأت أيضاً من المؤلّفات الفلسفيّة، ولا من أيّ كتاب فكريّ أو شعريّ أو فنّيّ. يقول موسى العسكري، الشخصية الرئيسيّة في «اليوم الأخير» التي تدرّس مادّة الفلسفة في الجامعة:

«ولكم أدهشني من تلك النشوة أنّها استطاعت أن تستبدّ ذلك الاستبداد برجل مثلي وهب قلبه وفكره ووقته ولحمه ودمه لعمله— لتدريس الفلسفة في جامعة، حتّى بات يحسب نفسه في مأمن من كلّ غواية، وكلّ ثورة قد تبعثها في لحمه ودمه نظرة من عين أنثى، ونبرة من صوتها، ولمسة من يدها، ونفّس من أنفاسها».^(٣٣)

إنّ صيرورة الإثنين واحداً عملية مدهشة وخلّاقة، ولعلّها منبع كلّ عبقرية وفنّ وعمل عظيم. يقول أريك فروم، أحد أعلام التحليل النفسيّ المتمرّد على الفرويدية: «هذه الرغبة للاندماج مع شخص آخر هي أكبر توق لدى الإنسان. إنّها أشدّ عواطفه جوهريّة، إنّها القوّة التي تبقي الجنس البشريّ متماسكاً، وكذلك القبيلة والأسرة والمجتمع، والفشل في تحقيق هذا الاندماج يعني الجنون أو الدمار، الدمار للذات أو الدمار للآخرين. بدون حبّ ما كان يمكن للإنسانية أن توجد يوماً واحداً».^(٣٤) ويرى العالم الألمانيّ أنّ الشرط الرئيسيّ لتحقيق الحبّ، بمعنى تجربة الاتحاد، هو التخلّي عن النرجسية^(٣٥). والحبّ يختلف عن الشهوة المحض، وهي بطبيعتها قصيرة العمر، وفيها لا يكون الإثنين على علاقة حميمة إلاّ في السرير^(٣٦)، وإذا كان نصّ نعيمه يقدّم لنا اندماجاً فريداً بين الحبّ العاطفيّ، أو حبّ الرجل للمرأة، وبين الحبّ الكونيّ، فلا ريب في أنّ تفسير الحبّ واحد وهو «ضياح» الفردية، أو الأنانية، تطبيقاً لما قاله السيّد المسيح: «من أراد أن يخلّص نفسه فليفقدّها»^(٣٧). وعندما تضيع الأنا تكتسب، عبر الاندماج، أنا أرقى وأوسع وأشمل، فإن لم يحدث هذا الأمر فإنّ انفجار الصراعات والتعقيدات الداخلية يصبح مسألة لا مفرّ منها. فإن يكون المرء واحداً مع الكون، وواحداً مع الأرض وما فوقها «وما تحتها» (١٩) ظاهرة تعني إلغاء الكوجيتو الديكارتّي: «أنا أفكر، إذا أنا موجود»، وتبديلاً لمقولة الثنائيّة، فيصبح الكوجيتو الروحيّ هو: «أنا أحبّ، إذا أنا موجود»، كما تصبح مقولة الثنائيّة، حيث الانقسام والصراع مقولة جديدة: «أنا والكون واحد».^(٣٨)

وعديدة في «اليوم الأخير» هي المقاطع التي تتحدّث عن النشوة الروحية، وكلّها بلغت حدّاً رفيعاً من الجمال الأدبيّ والمعنويّ،



كجزء منه أكون جزءاً من العظمة، من القوة، من اليقين»^(٣٩). أمّا النوع الثاني من الاتحاد فهو الوحدة غير المزيّمة، بمعنى اندماج الهويّات ضمن الاختلاف. فالحبّ هو «وليد الحرية وليس إطلاقاً وليد الهيمنة»^(٤٠). ويضيف: «وفي مقابل الوحدة التكافليّة نجد أنّ الحبّ الناضج هو الوحدة بشرط الحفاظ على تكامل الإنسان، الحفاظ على تفرّدية الانسان [...] إنّ الحبّ يجعله يتغلّب على الشعور بالعزلة والانفصال، ومع هذا يسمح له أن يكون نفسه، أن يحتفظ بتكامله. في الحبّ يحدث الانفراق [المفارقة]: إنّ اثنين يصبحان واحداً، ومع هذا يظلّان اثنين»^(٤١).

والملاحظ أنّ إجابة سرحيل في مسرحيّة أيّوب تؤكّد حقيقتين متلازمتين:

- الاحتفاظ بالشخصيّة (الملح والماء) في سياق جديد مختلف هو الذوبان في الآخر.

- امتداد «الأنا» وتوسّعها وعدم انفصالها عن الكون (القطرة والمحيط).

ربّما كانت هذه الإجابة نظريّة وحسب، فالمعول عليه هو كفيّة الممارسة حيث لا تضلّ الكلمات، على روعتها وأهميّتها وعظمتها، بل تكون الذات حاضرة في انخراطها واتصالها بالكون. وإذا كان نعيمه ميّالاً إلى الحسد والحقد والغضب الأعمى والأنانيّة المتعصّبة في علاقه بالناس، إلّا إذا أبدوا آيات الخضوع، فإنّه في أحضان الطبيعة ميّال إلى الحبّ والتسامح والسريان في خلايا الوجود.^(٤٢)

إنّ جوهر النشوة الروحيّة واحد تقريباً عند ميخائيل نعيمه، ولذلك نقتصد في ذكر الشواهد- وما أكثرها وما أروعها! - ما دام التحليل لا يسير بنا خطوة إلى الأمام إلّا بقدر محدود ربّما تضيق به هذه الدراسة الموجزة. ففي حوارية «يا ابن آدم» يتحدّث الدكتور صنبيم عن باب يفتح، يسمّيه بعضهم باب العجائب التي لا تُحصى، ثمّ يتطرّق إلى مسألة الذوبان في الكون من غير أن يذكر كلمة الله، غير أنّ المحبّة، عند الأكثرين، ترادف الألوهة. ونراه يتحدّث بلغة شعريّة عن الانفتاح، نقيض الأنانيّة النرجسيّة: «لقد انفتح قلبي لكلّ ما كانت تلهّني سكينه ذلك الليل وأشعة ذلك القمر: للأسماك في البركة ولزهرات النيلوفر العائمة

على أنّ ثمة تساؤلاً يطرح: كيف يستطيع المرء الاتحاد بالماء والجماد والنار والتراب، وكلّها من طبيعة غير الإنسان؟ أتّى له الاتحاد بالضواري والوحوش والحيات والعقارب والسعادين؟ بل كيف يرى نفسه في القاتل والسارق والمرتشي والزاني؟ تساؤل لا يجيب عنه نعيمه بوضوح، ولعلّ الصوفيّين عامّة يلمّحون إلى الإجابة تلميحاً بقولهم إنّ الله يتجلّى في الكائنات، فهو في المجرم وعابد الوثن والمؤمن والفاجر والعفيف...^(٣٢).
ففي مسرحيّة «أيّوب» يبدي أيّوب دهشته من مسألة الذوبان، فيقول:

«يزعجني أن أذوب ذوبان الملح في الماء. أن أفقد ذاتيّتي - فرديّتي - شخصيّتي. يزعجني أن أكون ثمّ لا أكون»^(٣٤).

فيجيبه سرحيل الذي يمثّل فكر الكاتب:

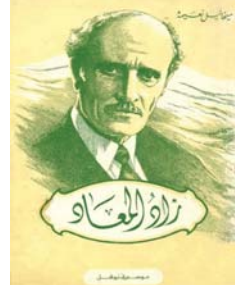
«ومن قال لك إنّ الذوبان يعني فقدان الكيان؟ إنّهُ يعني امتداد الكيان - يذوب الملح في الماء، ويبقى الملح والماء»^(٣٥).

وسرعان ما يضيف لاحقاً:

«هَبْكَ قطرة في محيط. أليس أنّ كلّ قطرة في المحيط تتّصل بكلّ قطرة أخرى وبالمحيط كلّهُ؟ أليس يتّصل المحيط بالأرض وكلّ ما فيها وما عليها؟ أليس أنّ الأرض تتّصل بالفضاء وكلّ ما في الفضاء؟ إذن كيف لأيّ شيء آخر في الكون أن ينفصل عن أيّ شيء؟»^(٣٦).

ولا ريب في أنّ ثنائيّة الملح والماء مسألة معروفة في التصوّف الهنديّ^(٣٧). ويبقى السؤال ملحاً: ما الذي يحدث إذا زادت كميّة الماء، فابتلعت الملح إلى حدّ التلاشي؟ وماذا يحدث إذا زادت كميّة الملح فأخلّت بالنسب المعهودة؟ الحقيقة أنّ القضية تتعلّق بأحد أمرين: إمّا تضخّم الأنا (الملح) أو تلاشيها في الكون (الماء).

والأمر نفسه ينطبق على ثنائيّة القطرة والمحيط. وفي هذا السياق يرى أريك فروم أنّ هناك نوعين من الاتحاد. الأوّل هو اتحاد مازوشيّ يكون فيه المرء جزءاً لا ينفصل عن شخص آخر يوجّهه ويرشده ويحميه. وربّما كان هذا الآخر الله نفسه، أو الطبيعة، أو القدر، أو الموسيقى الإيقاعيّة، أو السكر والمخدرات. «ففي كلّ هذه الحالات ينكر الشخص تكامله، ويجعل من نفسه وسيلة لإنسان أو شيء خارجه، وهو لا يحتاج إلى أن يحلّ مشكلة الحياة بالنشاط الإنتاجي»^(٣٨). ويرى هذا المؤلّف أنّ الوحدة المازوشيّة تعني هذه المعادلة: «إنّه كلّ شيء، وأنا لا شيء إلّا بقدر ما أنا جزء منه. وأنا



«شعور غريب يتملّكني يا إميل كلّما وجدتني في خلوة هادئة من الطبيعة، فرأيتني قريباً من النملة والعصفور، والضب والزنبور، والصخر والتراب، والأشجار والأعشاب، والبقرة وعجلها، والدجاجة وفرخها. ثمّ رأيتني بين الناس وكأني لست منهم [...] فأقضي النهار في شبه غيبوبة [...] ولكم تمنيت لو كنت «في الواقع» بجانب. كنت في سكرة مع الطبيعة السكرى، وما كنت «أصحو» إلاّ حين يمرّ بي إنسان أو تقع عيني على إنسان، إذ كان الناس يعودون بي إلى همومهم التافهة [...]»^(٤٨)

إذا تحدّث نعيمه عن «الغيبوبة» و«السكرة»، القريبتين من درجة الانخفاف التي نعم بها كبار القديسين والأولياء، فأنا أميل إلى تصديقه. الناس هم الجحيم والخلوة هي النعيم، ففيها تكبر الذات وتتوسّع، وقد تتقرّم وتتطوي في ما يسمّى «المجتمع»^(٤٩)

إنّ شخصيّة نعيمه تكاد تتشابه، في بعض النواحي أقلّه، مع شخصيّة روسو، ولاسيّما في كتابه «هواجس المنتزه المنفرد بنفسه». ولن نتطرق، هنا، إلى حبّ الفيلسوف الفرنسي للعزلة، وسخريته من العقل، وازدراؤه بالفلسفة، ونفوره من الناس، وانسياقه إلى الصوت الداخليّ الباعث على الوجد، ولكننا نلفت النظر إلى ما سمّاه بعض النقاد الطبيعة الأموميّة عند روسو^(٥٠). فهل يجوز القول إنّ ذوبان نعيمه، بمعنى ما من المعاني، هو الذوبان في الطبيعة الأمّ؟ لا ريب في أنّ هناك عناصر خاصّة مستقلّة عن هذه الأمومة، وفي الوقت نفسه لا يجوز تجاهل هذه النزعة. ذلك أنّ ناسك الشخروب كثيرًا ما يشبّه الطبيعة والحياة بالأمّ، وكثيرًا ما يتحدّث عن ثديها الفيّاض، وأخبرنا أنّه كان في الطفولة كان يتشبّه بفستان أمّه، ويكاد يتغلغل في داخله، احتماؤه من العالم الخارجيّ، حيث التشويش والصراع، ونشدانًا للأمان والطمأنينة، حتّى إذا شبّ وتوسّعت آفاقه عدّ الكون نظامًا شبيهًا بنظام الأمّ، يعاقب ويشب، وعدّ الحياة والطبيعة أمومة لا تنتهي، ونادرًا ما استخدم كلمة «الله» المألوفة في المعتقدات^(٥١). ولن نكثر من ضرب الأمثلة، فهي تفوق العشرات في مؤلّفات الكاتب، ولكننا نحيل القارئ إلى مقالته: «لماذا اعتزلت الناس» حيث يقول متحدّثًا عن الطبيعة:

على وجهها. للأشجار في الحديقة والسناجب والعصافير الغافية في أحضانها [...]»^(٤٤)

ويقابل بين هذه الدنيا السحرية وبين دنيا الناس، وهي عبارة عن مسخ غريب للوجد الصوفيّ:

«ولست أدري يا ابني كم طالت سياحتي في تلك الدنيا الساحرة والمسحورة. وأذكر أنّني عندما عدت إلى دنياي— دنيا الناس وهمومهم وغمومهم، وشهواتهم ونزواتهم، وسعائاتهم ونكياتهم، وحروبهم وكروبهم، وعلومهم وفنونهم، وفلسفاتهم ومماحكاتهم [...]»^(٤٥)

فحيث يكون الناس تكون البشاعة وانمساخ الانسان إلى حيوان. وحيث تكون العزلة، ولاسيّما في أحضان الطبيعة، يطلّ الوجد، وتتسلّل النشوة، وإذا بالذات تغدو أكثر من ذات، في حين أنّها بين الناس تتقرّم إلى أقلّ من ذات. يقول نعيمه في مقالة «لماذا اعتزلت الناس» من كتابه الشهير: «صوت العالم»:

«فمن الخير لمن كان يؤمن مثلي بأخوة الناس وهدفهم الإلهيّ أن يتجنّب أشواكهم كيلا يكفر بأخوتهم، وأن يعتزلهم ولو بعض الوقت كيما يستطيع أن يحبهم وأن يغفر لهم أذاهم وأشواكهم. فأنا في عزلتي أشعر شعورًا عميقًا وصادقًا بأنّ كلّ الناس والكائنات بعض منّي وأنتي بعض منهم»^(٤٦)

وهذا يعني أنّ الكاتب لا يكون إنسانًا بحقّ إلاّ حين يعتزل الناس بعض الوقت، وعندئذ يتأخى معهم ويشعر بالوحدة معهم. أمّا إذا حدث العكس فربما لجأ إلى «الكفر» والحقد فلا يستطيع أن يحبهم.

وفي رسالة إلى المرّبيّ إميل ضومط يبدي نعيمه اشمزازه من «الناس»:

«أنا في حرب دائمة مع الناس يا إميل [...] لست أستثني أهل بيتي. فجهادي معهم يكاد يوازي جهادي مع الناس أجمعين، لأنّهم معي وأنا معهم كلّ يوم. إنّ أنا عشت في عالمي أصبحت غريبًا عنهم. وإنّ أنا جاريتهم في المعيشة في عالمهم أصبحت غريبًا عن نفسي»^(٤٧)

غربة مع الناس وانفصال شبه تامّ، في مقابل الألفة والذوبان في الطبيعة؛ غير أنّ المسألة ليست مسألة تعويض نفسيّ، وإن تضمّنت هذا المبدأ. إنّها قضية ذات حساسة، مرهفة، يطيب لها الاتحاد، بل إنّها لا تعيش إلاّ به وإلاّ أصيبت بما يشبه الجنون:

«لله ما أقدسها وأجلها وهي تمتص تلك السوائل المتسربة من المزابل بلون النبيذ. تمتصها هادئة آمنة ساكنة، فلا تشمل ولا تترنح»^(٥٥).

كلّ شيء طاهر وسامٍ وجميل في الأمّ الصغرى (والدة الكاتب) وفي الأمّ الكبرى (الطبيعة) حتّى المزابل تحوّلها الأخيرة إلى موادّ مفيدة. غير أنّ نعيمه لا يتحدّث بأسلوب تقريري، لأنّه يترنح من النشوة والفرح بجليل الطبيعة ووضيعةها، حتّى سوائل المزابل يصوّرها بلون النبيذ، ويتساءل دهشاً: «لله ما أقدسها وأجلها...». ربّما يكون نعيمه أوديبياً في شخصيته. ربّما يكون اعتمادياً في حبه، ونرجسياً في ابتعاده عن الانسان بوصفه موضوعاً للحب. غير أنّ مصير الطفل أن ينمو، وأن يفصل أولاً عن رحم الأمّ، ثمّ يفصل عن شخصها، بمعنى أنّه يكون ذاته رويداً رويداً دون أن يعني هذا كراهية الماضي. لقد انفصل الانسان الأوّل عن جنّة الفردوس، حيث الانسجام البدائي، وانفصل قلّة من الناس عن أحشاء الأمّ المجتمعية كالحزب والقبيلة والطائفة والوطن في مدلوله الضيق. فإذا تلاشت الشخصية في بحر أموميّ كتلاشي الملح في الماء، فهذا يعني نكوصاً إلى الوراء: «إذا كانت طبيعة الصحة العقلية هي النمو من الرحم إلى العالم، فإنّ طبيعة المرض العقليّ الانجذاب إلى الرحم، الدخول فيه من جديد»^(٥٦). بعض الرجال كالأطفال تماماً حيال زعيم متسلّط مثل هتلر وستالين، أو أمام الطبيعة التي يطلبون منها الدفء والحنان. والأديان الأمومية، ومنها عبادة الطبيعة، تعادل الحبّ المطلق، الشامل، المحيط، حيث لا نسبية ولا محدودية. ولم يكن نعيمه إلاّ ابناً بارّاً للطبيعة، غير أنّه في المقابل، وإن لم يخلُ من أخطاء بل من تعقيدات كثيرة. وبعبارة أفصح، إنّ التجربة الصوفية في الطبيعة منحته الحنان والقوّة والرحمة والعبقرية. وإن صحّ أنّ للنكوص (الجزئيّ منه، لأنّ النكوص الكامل هو الجنون بعينه) سيئات فله حسنات أيضاً. ولعلّ أهمّ حسناته أنّه شعر بما لم يشعر به سواه: عنيت الإحساس بالخلود والسحر المتعالي على الزمان والمكان. وليس ببعيد أن يكون هذا شعوراً نرجسياً، مقطوع الصلة بالإنسان، ومع ذلك فهو تجربة خصبة، حيّة.

غير أنّ فرويد، والتحليل النفسي التقليديّ، يتشكك بتجربة الوحدة التي يسمّيها الشعور الأوقيانوسي، والكلمة تعود إلى الكاتب

«وحيثما يغمرنى الشعور بأمومتها، فأراني كالرضيع على صدرها، ولكنّها ترضعني من ألف ثدي وثدي، وتلمس أجفاني بألف كفّ وكفّ، وتعزف على آلاف آلاف الأوتار، وهي في كلّ ذلك رفيقة إلى أقصى درجات الرفق، وجوادة حتّى آخر حدود الجود»^(٥٧).

أيجوز القول إنّ مسألة الذوبان في الطبيعة، التي استعرضناها آنفاً، هي في الصميم مسألة الذوبان في الأمّ الكبرى؟ أينطق نعيمه هنا بما لم ينطق به الأرقش وموسى العسكري والدكتور صنييم وسواهم؟ أيكون الاتحاد عودة إلى زمن الطفولة، وتحديدًا مرحلة الرضاعة؟ وما هذه الطبيعة التي ترضع «من ألف ثدي وثدي» كناية عن تدفّق الحليب/الحنان.

إنّ حنانها وعظمتها بلا قياس لأنّها تلمس الأجفان «بألف كفّ وكفّ» إشارة إلى منتهى الأمومة، كما تعزف على «آلاف آلاف» الأوتار، وهي أيضاً في غاية الرفق والجود. فكيف يشيح الكاتب النظر عنها، وينصرف إلى عالم الناس، حيث البغض والإلغاء المتبادل، وحبّ المال والجشع والسلطة؟ يكفيه حنان الأمّ الكبرى/الطبيعة المعطاء، الحنون صاحبة «ألف ثدي وثدي».

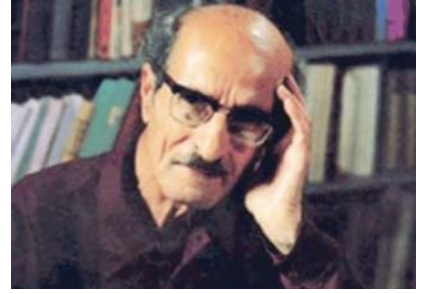
وبلغ من حبّ نعيمه للطبيعة أن كتب مقالاً رائعاً عن... المزابل، وهي عبارة عن أوساخ الحيوانات في الطبيعة. والغريب المدهش أنّه لا يتقرّز من روائح غير عطرية، شأنه عندما كان طفلاً يتغلغل تحت ثوب أمّه:

«مزجت أنفاسي بأنفاسها، ولصقت بصدرها صدري، مدّق قلبها في قلبي، ومشت روحها في روحي»^(٥٨).

هذا هو التمازج الفريد، وفيه يصير الإثنان واحداً، فتتمّ النشوة، ويتحقّق الحبّ الصوفيّ بعيداً عن فكرة الله، فليس إلاّ الشاعر والطبيعة وحسب:

«هي البتول التي ما مسّها دنس [...] خرجت إليها اليوم - إلى الأرض أمّي وأمّ كلّ عجيبة، فألفيتها ساكنة صامتة، شأن كلّ بتول حبلى بروح الله»^(٥٩).

الأرض كالعذراء مريم، أمّ الكائنات جميعاً، وأمّ الكاتب بنوع خاصّ، فحبّها إذًا حبّ بنويّ محض، يبلغ حدّ الذوبان ولكنه ذوبان الإبن في مملكة الأمومة اللامتناهية. فليس عجيبياً أن يمجّد كلّ شيء فيها، إذ ثمة مساواة تامّة ومطلقة بين أبنائها مهما اختلفت درجاتهم. وهذا يعني أنّ حبّ الأمّ مطلق لأنّها أمّ ولا تعامل الآخرين بحسب جدارتهم، بل لأنّهم من صلبها وأحشائها. يقول في سوائل المزابل:



في أحضان الطبيعة. ولا يلبث مؤسس التحليل النفسي أن يتابع مراحل التطور عند الطفل، فيناقش مفهومًا صوفيًا بدا واضحًا عند الأديب اللبناني هو «مفهوم الاتحاد بالكل الأكبر» ومفهوم «اللامحدود»، وهما المفهومان اللذان يستخدمهما نعيمه بعبارات شبه متقاربة. وبكلمة أخرى أن التجربة الصوفية بدائية، تعود إلى مراحل الطفولة، وإلى بقية من رواسب ماضية. ولسنا بحاجة إلى ملاحظة فرويد الذي يلف ويدور مستشهدًا بحفريات مدينة روما، كناية عن طبقة الرواسب في النفس. يقول ردًا على رومان رولان:

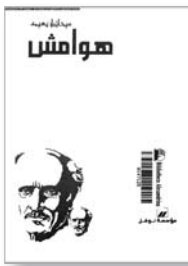
«إذا كنا على استعداد إذن للتسليم بوجود شعور أوقيانوسي لدى عدد جم من الكائنات البشرية، وإذا كنا نميل إلى عزوه إلى طور بدائي من الشعور بالأنا، فعندئذٍ، يطرح سؤال جديد نفسه: هل يجوز لنا أن نرى في ذلك الشعور الأوقيانوسي ينبوع كل حاجة دينية؟»^(٩٧). ويجب قائلًا إن الحاجات الدينية مرتبطة بحالة طفلية من التبعية المطلقة، وما ترتبط به من التوق إلى الحماية درءًا لمخاطر العالم الخارجي: «فكرة الاتحاد بالكل الأكبر التي يتضمنها تبدو لنا سعيًا أول وراء العزاء الديني، طريقة أخرى لنفي الخطر الذي يشعر الأنا أن العالم الخارجي يتوعد به»^(٩٨). ونراه ينتقد ممارسة اليوغا التي تصرف المرء عن العالم الخارجي فتوقظ فيه شعورًا بالشمول والكونية، كما ينتقد ظواهر غريبة تطرأ على الروح مثل الوجد والانخفاف. وبكلمة ينسب مؤسس التحليل النفسي كل ما يتعلق بالدين، ويرد الظاهرة الصوفية إلى التفسير التقليدي بوصفها نكوصًا إلى الماضي، وامحاءً للحدود الفاصلة، كحالة الرضيع الذي لا يميز أنه عن والدته.

لا شك في أن نظرية فرويد برمتها تعرضت للنقد، ولسنا هنا في معرض التفصيل، ولكننا نلج إلى كتابات لو سالومه وإلى ما أثبتته فروم بقوله: «إن الشعور بالاندماج، بالواحدية، الشعور بالمحيط [...] قد فسره فرويد على أنه ظاهرة مرضية، على أنه تراجع إلى حالة النرجسية اللامحدودة المبكرة»^(٩٩). ويبقى السؤال: هل تعبّر الوحدة الصوفية عن النرجسية والنكوص؟ أو أنها على النقيض إلغاء للنرجسية بوصفها صيرورة الاثنين واحدًا؟ وأين الإنسان في عملية الاتحاد مع الطبيعة؟ مهما يكن الجواب، فالحقيقة أن نعيمه شعر بسعادة من غير هذه الدنيا، سعادة استثنائية، نادرة، إلى حد أن حياة الناس تبدو مسخًا لها. وهو، رغم أخطائه، «أعطى» إذ الإنسان عطاء: أعطى أدبًا جميلًا، بقطع النظر عن تطرفه في استئصال الشهوات. وبكلمة، عاش الأديب اللبناني السعادة، بأرفع

الفرنسي رومان رولان. فكأن الفرد جزء من محيط شاسع تذوب فيه فرديته، وهي فكرة أوضحها نعيمه وقال إنها علاقة القطرة بالمحيط. وينكر العالم النمساوي أن يكون قد مرّ بتلك التجربة، مع أنه يعترف بإمكانية وجودها عند بعض الناس، ثم إنه يتشبّه بالحدود الفاصلة بين الأنا والعالم الخارجي: «ففي ذروة حالة العشق والوله يتهدد بالامحاء الخط الفاصل بين الأنا والموضوع. وخلافًا لجميع شهادات الحواس، يزعم العاشق أن الأنا والأنت شيء واحد»^(٥٧).

ويلمح صاحب نظرية الكبت إلى مَرَضِيَّة إسقاط الثنائية الفاصلة بين العالم الداخلي والعالم الخارجي: «ويطلعنا علم الأمراض على عدد وفير من الحالات التي يصبح فيها الخط الفاصل بين الأنا والعالم الخارجي غير واضح وغير دقيق فعلاً: ففي بعض الأحوال تبدو أجزاء من بدننا، بل عناصر من حياتنا النفسية، من إدراكات وأفكار ومشاعر، وكأنها غريبة وأجنبية، لا تؤلف جزءًا من الأنا، لكن في أحوال أخرى نغزو إلى العالم الخارجي ما رأى النور بلا مرء في الأنا»^(٥٨). وهما حالتان تغيبان في التجربة الصوفية: الأولى هي أن تنقسم الذات على نفسها فتغدو غريبة عن نفسها، والثانية هي إسقاط ما في النفس على العالم الخارجي. والحق أن هذا الإسقاط، في معنى محدّد، ملازم للطبيعة البشرية، إلا إذا تحوّل إلى إسقاط مرضي اضطهادي، في حين أن النشوة هي، بتعبير مبسّط، إسقاط الحب على الموضوعات الخارجية.

ويرى فرويد أن الشعور بالأنا «عرضة للتجريف والتشويه، وأن حدوده ليست ثابتة»^(٥٩). ولذلك يحاول أن يردّ الشعور الأوقيانوسي إلى مرحلة الطفولة: «إن الرضيع لا يميز بعد أنه من عالم خارجي يعتبره مصدر الأحاسيس العديدة التي تتدفق عليه، وهو لا يتعلم أن يقوم بذلك التمييز إلا شيئًا بعد شيء، بفضل محرّضات مختلفة خارجية المصدر»^(٦٠). وكما أن الطفل لا يفصل بين أنه وأمّه التي تعطيه الحنان والحليب، هكذا الصوفي لا يميز ذاته عن الطبيعة. وقد علمنا سابقًا أن نعيمه يطيب له التشبّه بشي بل بأنداء الطبيعة، فكأنه الرضيع حيال الأم الكبرى. فهل يجوز القول إن ريب بسكنتا يصدر عن تجربة بدائية طفولية، أو أنه يعبر عن نشوة صوفية راقية؟ لتتابع ما يقوله فرويد الذي يؤكّد أن الطفل يسعى «إلى تكوين أنا متعي خالص يقابله ويعارضه عالم برّاني خارج غريب ومتوعد»^(٦١). وهي القسمة عينها عند صاحب مرداد الذي يقيم ثنائية واضحة بين الناس والخلوة



- (٨) لودفيغ فويرباخ: «مبادئ فلسفة المستقبل»، قدّم لها وترجمها الياس مرقص. دار الحقيقة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٧٥، ص ٣٠٨.
- (٩) المرجع نفسه، ص ٣٠٩.
- (١٠) كتب المعلم «ايكهارت»، المتصوّف الكاثوليكيّ في القرن الثالث عشر ما يلي: «الكلّ في واحد، والواحد في الكلّ. الأشياء بالنسبة لها [أي للنفس المدركة] هي كلّ واحد، وواحد في كلّ. ها هنا يكمن نقاء النفس وطهارتها، فقد تطلّعت من حياة منقسمة ودخلت في حياة موحّدة. فكلّ ما ينقسم في الأشياء الدنيا سوف يصبح موحّداً لمجرّد ما تتسلّق النفس وترتفع إلى حياة لا يوجد فيها تضاد ولا تقابل».
- راجع والترستيس: «الدين والعقل الحديث»، ترجمة وتعليق وتقديم إمام عبد الفتّاح إمام. مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٨، ص ٢٦٤.
- (١١) ميخائيل نعيمة: «المجموعة الكاملة، المجلّد الرابع»، ص ٤٢٩.
- (١٢) أدونيس: «الصوفيّة والسورياليّة». دار الساقي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٢، ص ٥٧-٥٨.
- (١٣) يتحدّث أحد المتذوّقين لتلك الغبطة فيقول: «ثمّ غمرني بعد ذلك إحساس بالسموّ والرفعة، وغبطة لا حدّ لها، تبعها أو صاحبها مباشرة إشراق عقليّ يستحيل وصفه [...]». لكنني رأيت أنّ الكون يتألف لا من مادة ميتة، بل، على العكس، من حضور حيّ. وأصبحت بداخلي على وعي بالحياة الأزليّة. ورأيت أنّ النظام الكونيّ قد أصبح - بلا أدنى شكّ - كلّ شيء فيه يعمل معاً من أجل خير كلّ واحد، ومن أجل خير الكلّ. وأنّ أساس العالم... هو... الحبّ. واستغرقت الرؤية بضع ثوان ثمّ اختفت».
- راجع والترستيس: «التصوّف والفلسفة»، ترجمة وتقديم إمام عبد الفتّاح إمام. مكتبة مدبولي، القاهرة، لا ط، لا ت، ص ١٠٤.
- (١٤) ميخائيل نعيمة: «المجموعة الكاملة، المجلّد الرابع»، ص ٤٢٩.
- (١٥) راجع كتابنا: «أساطير الجسد والتمرد». دار الحدّاث، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٩، ص ٦٨ - ٨٣.
- (١٦) ميخائيل نعيمة: «المجموعة الكاملة، المجلّد الرابع»، ص ٤٢٩.
- (١٧) كتب الباحث المتعمّق سمير الحاج شاهين عن رامبو قائلاً: «نعم العالم مليء بالنقص والعيب، لكنّه يحتوي على بعض لحظات غنيّة من الغفلة والصفاء، مسروقة من العمر، منزّهة عن الدوام، نفلت خلالها من قبضة الفناء، وتحرّر من الزمان ونعيش الناحية الروحيّة الملائيكيّة من كيّاننا».
- راجع سمير الحاج شاهين: «رامبو». المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٧٧، ص ١٦٢.
- (١٨) ميخائيل نعيمة: «المجموعة الكاملة، المجلّد الرابع»، ص ٤٢٩ - ٤٣٠.
- (١٩) كتبت مارغريت بسكوت مونتايجو التي ذاقت الغبطة الروحيّة، ما يلي: «كم كانت الحياة كلّها جميلة وممتعة على نحو مفرط، ممّا تعجز كلماتي عن وصفه. كلّ موجود بشريّ يسير عبر هذه الشرفة، كلّ عصفور يطير، وكلّ غصن يتمايل مع النسيم قد أصبح جزءاً من كلّ معلقاً به. الوجد المجنون للحبّ، وللمتعة، ولنشوة الحياة. رأيت

معانيها، أكان نكوصياً أم غير نكوصيّ، نرجسياً أم غيرياً^(٦٥)، فلا شكّ في أنّ النرجسيّة الكاملة ضرب من الجنون، فلا بدّ من أن يخالطها شيء من الغيريّة حتّى لو كانت عزلة في أحضان الطبيعة، عزلة الناسك الذي يتّحد بـ«الكلّ الأعظم» ويزوب في الكائنات ذوباً لطيفاً حنوناً^(٦٦)، ولعلّه بذلك يتعالى على الضعف البشريّ، وعلى نقائص الناس، كما يقول شوبنهاور.^(٦٧)

ولا بدّ من الإشارة، أخيراً لا آخرًا، إلى أنّنا أهملنا - لضيق المقام - مقاطع كثيرة لميخائيل نعيمة مفعمة بظاهرة الوجد الذوبانيّ، نذكر منها تمثيلاً لا حصرًا: قصّة «ساعة» الواردة في كتاب «هوامش»^(٦٨)، ومقالة «منك، عليك، إليك»، في الكتاب عينه^(٦٩)، ولا تفوتنا الحالات الروحيّة العجيبة في كتاب «سبعون»^(٧٠)، ولا الأحلام والرؤى التي حلم بها الكاتب، أو وضعها على ألسنة بعض شخصيّاته^(٧١). وحسبنا هنا أنّنا سلّطنا ضوءاً على جانب داخليّ يتصلّ بـ«علم النفس الصوفيّ»، أو المعرفة الروحيّة التي يعدّها بعضهم معرفة المعارف وأمّ العلوم، كما يقولون، علمًا أنّ بعض النفوس الممتازة عانت مثل هذا الاختبار الفريد، بقطع النظر عن غرابته، وربّما تعقيداته، بالنسبة إلى السواد الأعظم من الناس.^(٧٢)

الهوامش

- (١) راجع Wikipédia (على الإنترنت).
- (٢) يربط شوبنهاور بين العبقرية والجمال والزهد والشفقة، وكلّها وسائل للخلاص من الإرادة، ويعني بها الرغبات العنيفة المدمّرة. فالشخص يتحرّر من مبدأ الفردية، أو الأنايّة المرادفة للشور، وعندئذ يتعالى على شروط الزمان والمكان والكثرة.
- راجع فؤاد كامل: «الفرد في فلسفة شوبنهاور». دار المعارف، القاهرة، لا ط، ١٩٦٣، ص ٥٤.
- (٣) رولوماي: «البحث عن الذات»، تعريب الدكتور عبد علي الجسماني. المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٣، ص ١٤٢.
- (٤) رولوماي: «شجاعة الإبداع»، ترجمة فؤاد كامل. دار سعاد الصباح، الكويت/ القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٢، ص ٥٦ - ٥٧.
- (٥) ميخائيل نعيمة: «المجموعة الكاملة»، المجلّد الرابع، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٩، ص ٤٢٩.
- (٦) المصدر نفسه، ص ٤٢٩.
- (٧) يقول شوبنهاور متحدّثاً عن تجربة التحرّر من الإرادة العمياء: «لا يكون الشخص الذي يتمتّع بهذا التأمل فرداً من هذه الدرجة (لأنّ الفرد يندم في هذا التأمل نفسه) وإنّما ذات عارفة تحرّرت من الإرادة ومن الأثم ومن الزمان».
- راجع فؤاد كامل: «الفرد في فلسفة شوبنهاور»، ص ٦٢.

أو جواهر مختلفة، بل شيءٌ واحد أو جوهر واحد [...] ولقد ذهبنا، بالطبع، إلى أنه على الرغم من أنهم أدركوا أشياء مختلفة على لأنها متحدة في هوية واحدة، فلا بد أنهم أدركوا أيضاً اختلافها».

راجع ولتر ستيس: «التصوّف والفلسفة»، ترجمة وتقديم إمام عبد الفتاح إمام، ص ١١١.

(٢٠) ميخائيل نعيمة: «المجموعة الكاملة، المجلد الثاني». دار العلم للملايين، بيروت، لا ط، ١٩٧٩، ص ٩٩.

(٢١) المصدر نفسه، ص ٩٩.

(٢٢) ولتر ستيس: «التصوّف والفلسفة»، ترجمة وتقديم إمام عبد الفتاح إمام، ص ٤٦.

(٢٣) ميخائيل نعيمة: «المجموعة الكاملة، المجلد الثاني»، ص ٩٩ - ١٠٠.

(٢٤) أريك فروم: «فنّ الحب»، ترجمة مجاهد عبد النعم مجاهد. دار العودة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٧٢، ص ٤٢.

(٢٥) المرجع نفسه، ص ١٨٢.

(٢٦) المرجع نفسه، ص ٩٠ - ٩١.

(٢٧) إنجيل متى ٣٩/١٠.

(٢٨) نعى رولوماي الانقسام الحادّ بين العقل والعاطفة كما يظهر في معظم المدارس السيكولوجية، ويقرّر ما يلي: «إنّ العقل يعمل بطريقة أفضل في حضور العواطف، فالإنسان يرى ببصر أكثر حدة ودقة حين تشترك العواطف. والحق أنّنا لا نستطيع أن نرى شيئاً رؤيوية حقيقية إلاّ إذا كنّا مرتبطين به ارتباطاً عاطفياً. فربّما كان العقل يؤدّي عمله على أحسن وجه في حالة الوجد».

راجع رولوماي: «شجاعة الإبداع»، ترجمة فؤاد كامل، ص ٥٧.

(٢٩) ميخائيل نعيمة: «المجموعة الكاملة، المجلد الثاني»، ص ١٥٦.

(٣٠) كتب أوكتايفو بات في موضوع الانصهار الحبيّ: «نفقد ذواتنا كأشخاص ونسترجعها كإحساسات، بمقدار ما يغدو الإحساس أكثر كثافة يصير من نعانقه أكثر فأكثر تمدّداً. إحساس بالأبدية: في ذلك الجسد نفقد جسداً. العناق الجسديّ هو أوج الجسد وفقدانه في آن. وهو كذلك تجربة فقدان للهوية. سقوط في الجوهر الأوقيانوسي، تبحّر للذات».

راجع أوكتايفو بات: «اللبه المزدوج»، ترجمة المهدي خريف. المجلس الأعلى للثقافة، عدد ٣٤، لا ط، لا ت، ص ٢٠٢.

(٣١) ميخائيل نعيمة: «المجموعة الكاملة، المجلد الثاني»، ص ١٨٩.

(٣٢) كتب غسان خالد في تجربة الاتحاد عند أفلوطين: «فقد اعتبر انطفاء الشعور بالذاتية الفردية منتهى العملية الاحتكاكية التي يرقى إليها الإنسان عند انبلاج الحضور الإلهي [...] لكنّه لم يجعل هذا الفناء زمانياً نظير ما يقول به الهنود إذ يعتبرون حصول الاتحاد ذوباناً للشخص الإنسانيّ في براهمن، بل جعله اتحاداً بين راءٍ ومرثيٍّ يحتفظ كلّ منهما بهويّته».

راجع غسان خالد: «أفلوطين». منشورات عويدات، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٢، ص ٢٦٧.

(٣٣) كتب المفكر ستيس في «مسألة الصوفية الأنطوائية»، كما يعبر: «فهم [التصوّفون] لا يقصدون أنّ الأشجار والأحجار ليست أشياء مختلفة

أو جواهر مختلفة، بل شيءٌ واحد أو جوهر واحد [...] ولقد ذهبنا، بالطبع، إلى أنه على الرغم من أنهم أدركوا أشياء مختلفة على لأنها متحدة في هوية واحدة، فلا بد أنهم أدركوا أيضاً اختلافها».

راجع ولتر ستيس: «التصوّف والفلسفة»، ترجمة وتقديم إمام عبد الفتاح إمام، ص ٢٩٠.

(٣٤) ميخائيل نعيمة: «المجموعة الكاملة، المجلد الرابع». دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٩، ص ٢٩٧.

(٣٥) المصدر نفسه، ص ٢٩٧.

(٣٦) المصدر نفسه، ص ٢٩٨.

(٣٧) ولتر ستيس: «التصوّف والفلسفة»، ترجمة وتقديم إمام عبد الفتاح إمام، ص ١٥٣.

(٣٨) أريك فروم: «فنّ الحب»، ترجمة مجاهد عبد النعم مجاهد، ص ٤٤ - ٤٥.

(٣٩) المرجع نفسه، ص ٤٤.

(٤٠) المرجع نفسه، ص ٥٧.

(٤١) المرجع نفسه، ص ٤٦.

(٤٢) راجع دراستنا عن سيرة حياة نعيمة في كتاب: «سير الأدباء». «دراسة نفسية اجتماعية». دار المنهل اللبناني، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩، ص ٣٩ - ٨٧.

(٤٣) يقول نعيمة في كتاب «النور والديجور»، مقالة: «على بساط أبيض» ما يلي: «هلموا أيّها الراحون تحت أوقار ما في قلوبهم من حسد وحقد وضغينة. هلموا أيّها الغارقون في رغبة المطامع والمشكلات. هلموا أيّها المحوّلون دسم الأرض سماً، ووجودها شحاً، ومحبتها بغضاً، هلموا وانثروا على هذا البساط الأبيض كلّ ما في قلوبكم من سود الضغائن والأحقاد والسموم والمطامع والمشكلات، لعلّها إذ تبصرون سوادها تتنكّرون لها، ومن أنفسكم ومن الأرض أمكم تخجلون».

راجع ميخائيل نعيمة: «المجموعة الكاملة، المجلد الخامس». دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٩، ص ٦٤٨ - ٦٤٩.

(٤٤) ميخائيل نعيمة: «المجموعة الكاملة، المجلد السابع». دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٩، ص ٢٥.

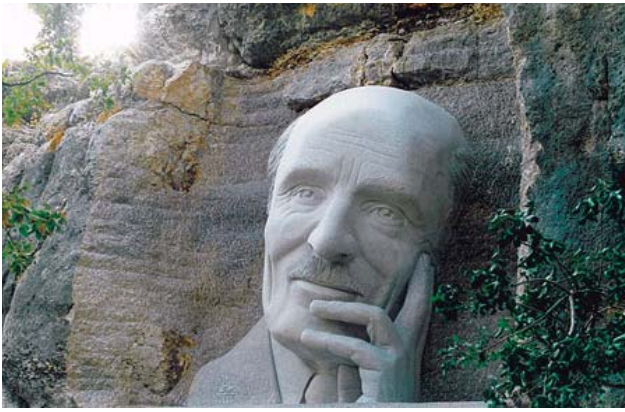
(٤٥) المصدر نفسه، ص ٢٧.

(٤٦) ميخائيل نعيمة: «المجموعة الكاملة، المجلد الخامس»، ص ٢٤٧.

(٤٧) ميخائيل نعيمة: «المجموعة الكاملة، المجلد الثامن». دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٠، ص ٢٤٣ - ٢٤٤.

(٤٨) المصدر نفسه، ص ٢٤٣.

(٤٩) كتب شوبنهاور عن شقاء العاقرة: «ومن أسباب شقاء العبقريّ أنّه لا يستطيع أن يجد له ندّاً في الوسط الذي يعيش فيه، بينما العامّة من الناس يستطيعون أن يجدوا لهم أشخاصاً متشابهين بل ومتماثلين معهم تماثلاً تاماً. ويضيف: «إنّ العبقريّ في صراع دائم مع عصره لأنّه لا يعيش له، وإنّما يعيش للأجيال المقبلة، بينما نجد أصحاب المواهب المتوسطة يصلون في



اللحظة المناسبة لأنهم متشبهون بروح العصر».

راجع فؤاد كامل: «الفرد في فلسفة شوبنهاور»، ص ٧١.

(٥٠) يقول روسو تمثيلاً لا حصراً: «ولقد أصبحت لا أتأمل، ولا أحلم أبداً بالذمّ ممّا أحلم به إلاّ عندما أنسى نفسي. إنّي أحسّ بانجذابات روحية، وبضروب طرب وافتتان لا سبيل إلى التعبير عنها إذ أنصهر في نظام الكائنات، وإذ أندمج بذاتي في الطبيعة بكلّيتها». ويضيف مشيداً بأهوية الطبيعة: «احتमित بالأهمّ الشاملة بأهويتها كلّ الناس، جاهداً، بين ذراعيها، بأن أتقي أذى بنيتها، فأسميت منفرداً بنفسي، أو كما يقولون نافرماً من المجتمع، مبغضاً للناس، لأنّ أشدّ العزلات وحشة تبدو لي مفضّلة على مجتمع الأشرار، وهو الذي لا يتغذّى إلاّ بالخيانة والبغضاء».

راجع جان جاك روسو: «هواجس المتنزّه المنفرد نفسه»، ترجمه من الفرنسية إلى العربية بولس غانم. اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع، توزيع المكتبة الشرفية، بيروت، لا ط، ١٩٨٣، ص ٩٨.

(٥١) يقول نعيمه في حوارية «يا ابن آدم» ما يلي: «وأنت، لو كان لك الإيمان المبصر، لما استطعت إلاّ أن تتنازل عن إرادتك لإرادة الحياة أمك لأنّها فوق كلّ إرادة، وعندئذٍ لا تصبح بدون إرادة، بل تصبح إرادة الحياة إرادتك».

ميخائيل نعيمه: «المجموعة الكاملة، المجلد الرابع»، ص ١٠٥.

(٥٢) ميخائيل نعيمه: «المجموعة الكاملة، المجلد الخامس»، ص ٢٤٨.

(٥٣) المصدر نفسه، ص ٧٦.

(٥٤) المصدر نفسه، ص ٧٦.

(٥٥) المصدر نفسه، ص ٧٧.

(٥٦) أريك فروم: «فنّ الحب»، ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد، ص ١٥٢.

(٥٧) سيغموند فرويد: «قلق في الحضارة»، ترجمة جورج طرابلسي. دار الطليعة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٩، ص ٨.

(٥٨) المرجع نفسه، ص ٨.

(٥٩) المرجع نفسه، ص ٨.

(٦٠) المرجع نفسه، ص ٩.

(٦١) المرجع نفسه، ص ١٠.

(٦٢) المرجع نفسه، ص ١٧.

(٦٣) المرجع نفسه، ص ١٧.

(٦٤) أريك فروم: «فنّ الحب»، ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد، ص ١٤٣.

(٦٥) يسوع الباحث العميق الدكتور زكريّا ابراهيم حبّ النفس بوصفه «تجلياً للحبّ الإلهي: «وكانّ الحبّ الإلهي هو النموذج الأسمى للأناية المعتدلة. وأية ذلك أنّ الذات البشرية هنا لا تحبّ الحقيقة الإلهية إلاّ لفرط ما أحبّت تلك العناصر العقلية، اللاشخصية، الكلية، الباطنة في صميم وجودها».

راجع زكريّا ابراهيم: «مشكلة الحب». دار مصر للطباعة، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٧٠، ص ١٣٦.

(٦٦) يقول الباحث أنس زاهد ما يلي: «أمّا الابتهاج فهو لا يتولّد لدى المرء إلاّ عن طريق الاتحاد بالجنس البشريّ إلى حدّ الذوبان... وهذه الحالة من التوحّد التي يعرفها المتصوّفون جيّداً تتمثّل في الإحساس بتضخّم الأنا إلى حدّ تلاشيها. إنّها حالة من حالات ذوبان ذات الفرد داخل إناء ذات جماعية كبرى تضمّ الآلاف وربّما الملايين». ويضيف: «وعندما تذوب ذات الفرد [...] يصبح جزءاً متناغماً مع الذات الكلية التي تشمل الكون بأسره».

راجع أنس زاهد: «هكذا سكت نيتشه، هكذا تكلم زوربا». مؤسّسة الانتشار العربيّ، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧، ص ٢١٨.

(٦٧) يقول شوبنهاور عمّا يسمّيه الخلق الجليل ما يلي: «ومثل هذه الشخصية تتأمّل الناس تأملاً موضوعياً خالصاً دون أن تحسب حساباً لما يمكن أن يقوم بين إرادته وإرادة غيره من علاقات، فهو يشاهد ردائلهم أو بغضهم له وجورهم عليه دون أن يبادلهم شيئاً من ذلك، ويلمح سعادتهم دون أن يأكله الحسد، وقد يرى فضائلهم دون أن يشعر بما يدفعه إلى الارتباط بهم، وهو يتأمّل جمال النساء دون اشتها».

راجع فؤاد كامل: «الفرد في فلسفة شوبنهاور»، ص ٥٩.

(٦٨) ميخائيل نعيمه: «المجموعة الكاملة، المجلد السادس». دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٩، ص ٥٢٠.

(٦٩) المصدر نفسه، ص ٣١١.

(٧٠) ميخائيل نعيمه: «المجموعة الكاملة، المجلد الأول». دار العلم للملايين، بيروت، لا ط، ١٩٧٩، ص ١٤٩ تمثيلاً لا حصراً.

(٧١) ميخائيل نعيمه: «المجموعة الكاملة، المجلد السادس». دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٩، ص ٧٥٠ - ٧٥٥.

(٧٢) يروي الدكتور شارل مالك اختباره الصوفيّ في توحّده مع الطبيعة من دون أن يذكر كلمة «الله»، فيقول: «أحسست فجأة بأنّي متوحّد مع هذه الحياة الزاخرة والطبيعة الصاخبة، على ما فيها من تنوّع وجمال، وتناسق وتناقض، وانتابني شعور غامر بأنّ دمي هو عصارته، وأوردتي من فروعها وجذورها، وطباعي من خصائص طبيعتها ونوازع تكوينها... لقد أحسست أنّي بالفعل جزء لا ينفك عنها، بل إنّني موقوت الرباط بها، مشدود الصلات، لا بالحسّ والمعرفة فقط، بل، وعلى الأخصّ، بحنين الفرع وتوقه إلى الأصل، وبوجدانية الوجود في كلّ ما يعنيه الوجود. أحسست بذلك، فأخذت أبكي بكاء الطفل، من دون أن يفقه الإخوة والرفاق ما بي، وبقيت على تلك الحال ما يقارب عشر دقائق...».

راجع شارل مالك: «المقدّمة، سيرة ذاتية فلسفية». دار النهار، بيروت، الطبعة الثانية، ٢٠٠١، ص ٢٨٠-٢٨١.

التربية المريميّة



المطران مارون العمار
النائب البطريركي
على منطقة الجبّة

تلاميذه، وكان يأتي إلى الصفّ على مزاجه، فلا يعلم ما يقول له، لأنّ الوقت الذي يغيب فيه عن المدرسة كان يؤلّف فيه مقطوعات موسيقيّة خالدة؛ فما الأهمّ؟).

I- علاقة مريم بالبيئة التربويّة

تعلّمنا البيئة التربويّة الدينيّة، عبر الممارسات والعادات والتقاليد، الكثير الكثير، لأنّها تحمل عادةً الكافي من الحكمة والنعمة إذا حافظنا على روحانيّتها الأصليّة، وحاولنا أن نصل إلى الغاية المنشودة منها، ألا وهي خلاص نفسي والآخرين. إذا فهم المرّي هذه الأسس يرتاح في رسالته التربويّة. مريم فهمت هذه الأسس، وحاولت أن تكون شاهدة حقيقيّة لها ولأهمّيّتها في حياتها وفي حياة الآخرين.

طبّقت الشريعة اليهوديّة بقلب منفتح على الله والإنسان. كانت حياتها منفتحة على الله في البشارة. فلمّا جاء الملاك وبشّرها بالحبّل الإلهي وهي لا تعرف رجلاً، قالت أنا خادمة الربّ فليكن لي بحسب قولك. ولمّا صدر أمر من أغسطس قيصر بإحصاء سكّان الإمبراطوريّة تحمّلت مع يوسف، على الرّغم من حملها المتقدّم، مشاقّ سفر عدّة أيّام إلى بيت لحم لتكتتب مع زوجها. ولمّا حان وقت ختانة الصبيّ تمّمت الشريعة وقدمته للربّ. كانت تذهب سنويّاً إلى أورشليم للحجّ في الهيكل كما تأمر الشريعة. حين أصبح عمر يسوع اثنتي عشرة سنة، أخذته معها بصحبة يوسف ليبدأ بدوره بتتيميم الشريعة.

ممّا لا شكّ فيه، كانت مريم مدرسة لابنها في الحفاظ على الشريعة والتقيّد بتعاليمها المحيية. كانت مريم مدرسة لابنها أيضاً في الصلاة. كانت تصلّي وتتأمّل وتمجّد الله وتشكره على كلّ

هل كانت العذراء مربيّة؟ ممّا لاشكّ فيه نعم، لأنّها ربّت يسوع، وعاشت معه حوالي ثلاث وثلاثين سنة. هل أسّست العذراء مدرسة تربويّة أو كليّة أو جامعة؟ لا شواهد على ذلك في الكتاب أو في التاريخ. هل كانت العذراء صاحبة مبادئ تربويّة تناقلتها الأجيال إلى يومنا؟ لا أعرف شيئاً عن ذلك.

إذاً من أين لي أن أعرف أو أن أكتشف بعض الأسس التربويّة التي عاشتها العذراء؟ سأحاول أن أستخلص، من المقاطع القليلة في العهد الجديد، وخصوصاً في إنجيلي متى ولوقا اللذين يتكلّمان على طفولة يسوع، بعض الأسس التربويّة في حياة مريم. وسأحاول أن أطبقها على عصرنا التربويّ الحاليّ.

لا بدّ من الإشارة أولاً إلى أنّ الدور التربويّ هو الدور الطبيعيّ المكملّ لدور الأمّ. مريم هي أمّ يسوع الإله كما تعلّمنا الكنيسة. كم كان عظيمًا دورها وكم كان خطيرًا، فهي مربيّة يسوع الذي جاء إلى الأرض بلا خطيّة. هناك من يقول بأنّ دور مريم المربيّة مع يسوع كان سهلاً جدًّا نظرًا لكون ابنها إنسانًا كاملاً، وإلهاً كاملاً. فلم يكن عليها إلاّ أن تقدّم له الحاجات الطبيعيّة لأمثاله من مأكّل ومشرب وملبس، وهو يعرف الباقي. ولكن، كيف لإنسان خاطئ كمريم أن يربي ولدًا بدون خطيّة كيسوع؟

عادةً يربيّ الكبير الصغير، والمتعلّم الجاهل، وغير الخاطئ الخاطئ، والرئيس المرؤوس... مريم كانت تعلم أنّ ابنها حبّلت به من الرّوح القدس، أي أنّه كان موجودًا قبلها، وكانت تعلم أنّ في حياته أسرارًا كثيرةً تجهلها، وأنّه طفل يصعب تأنيبه. لذلك لم يكن دورها التربويّ عاديًّا، لأنّ علاقتها كانت مع ابن غير عاديّ. وهنا تكمن الصعوبة في التربية. (أخبرنا أحد الآباء اليسوعيّين وكان رئيسًا لمدرسة الجمهور بأنّ أحد الفنّانين العباقرة كان من

محاضرة أقيمت في جامعة سيّدة اللويزة في ١٣/١٢/٢٠١٢، خلال مؤتمر بعنوان: التثقيف المريمي، نظّمه مركز الدراسات المريميّة

أحياناً، لأنّ التعاون التربويّ هو أهمّ من الإنفراد مهما كان هذا الإنفراد مهمّاً.

III- العلاقة مع الآخر

إلتزمت مريم الخلاص البشريّ الذي تجسّد يسوع من أجله. فلمّا زارت أليصابات ارتكض الجنين «يوحنا» فرحاً في بطن أليصابات حين سمعت سلام مريم وصاحت «من أين لي أن تأتي إليّ أمّ ربّي؟». هذا الفرح الذي عبّر عنه يوحنا الجنين وأليصابات، سبق الفرح العظيم الذي بشرّ به الملاك الرعاة إثر ولادة يسوع، والتسبيح الذي أشده جند الملائكة قائلين: «المجد لله في العلى وعلى الأرض السلام للحائزين رضاه»، والفرح الذي سيّج به الرعاة بعدما رأوا يسوع ووالديه.

هذا الفرح نقلته مريم في عرس قانا الجليل إلى المدعوّين لمّا طلبت من يسوع أن يصنع شيئاً ليلبّي حاجتهم إلى الخمر، وعاشته مع الأهل خلال حياة يسوع العلنيّة حتّى توصل أهل بلدته بأن يعرفوه أنّه ابن مريم ويوسف. هذا الفرح عاشته مع الرسل بعد القيامة وصعود يسوع إلى السماء وحلول الروح القدس في العنصرة. فرح الرسالة رافق حياتها إلى السماء. لكنّ حياة مريم لم تكن كلّها فرحاً. فقد حزنت لمّا مات يوسف، وحزنت لمّا رافقت ابنها في كلّ مراحل صلبه ودفنه؛ لكنّ هذا الحزن لم يؤدّ إلى الإنيهار وفقدان الأمل، بل كان فترة امتحان قاسية في الطريق نحو الملكوت.

ونحن في حياتنا التربويّة مع الآخرين، نتعلّم من مريم أن سبب فرحنا الحقيقيّ يكون عندما ننقل كلام الله إلى الآخرين ليعيش في حياتهم. ويكون سبب حزننا، إذا لا سمح الله، فقدنا يسوع من حياتنا. كما نتعلّم أن الجامعة، كما هي مكان علم وتربية، هي أيضاً مكان مميّز ننقل فيه كلام الله ورسائله الخلاصيّة إلى الآخرين. فلا نخف من أن ننقل الحقّ والسلام اللذين زرعهما في حياتي يسوع المسيح إلى رفقائيّ وطلّابيّ ومعلّميّ، لأنّ كلام الله يفرح له الجنين والصغير والكبير والملاك والراعي وكلّ من يسمعه. هل أنا من يسمع ذلك؟

IV- العلاقة مع الإبن

تبقى علاقة مريم مع ابنها المدرسة الأهمّ، وخصوصاً لأنّ ابنها ليس ولدًا عاديّاً. فمن البشارة، إلى الميلاد، إلى الختانة، إلى تقدمة يسوع في الهيكل، إلى وجود يسوع في الهيكل بين العلماء، إلى عرس قانا الجليل، كانت تقوم بدور الأمّ العاديّ. وفي الوقت

ما كان يصنعه معها ومع يسوع. كانت تردّد المزامير أمام ابنها حتّى حفظها، وكان بدوره يردّها في صلاته.

إنّ نشيد مريم «تعظّم نفسي الربّ»، هو خير دليل على روحانيّتها المميّزة، وخبرتها الكبيرة من حضور الربّ في حياتها. فالإبن الذي كان يسمع والدته تردّد هذا النشيد النابع من عمق خبرتها الإيمانيّة، لا بدّ له من أن يتأثر به إيجابياً ويمجّد الله ويمدحه بدوره، وهذا ما كان يفعله يسوع. «أحمدك يا أبت لأنك أظهرت هذه للأطفال وحجبتها عن الفهماء». هذه البيّنة التربويّة الإيجابية المنفتحة على الله وعلى الإنسان كانت بالنسبة لمريم السند الأوّل والأساس في تربيته ليسوع. ونحن في بيوتنا ومدارسنا ومعاهدنا وجامعاتنا، إذا انطلقنا في أسسنا التربويّة من خبرة الأجيال الإيجابية، متّكّلين على نور الله، الذي ينير كلّ ظلمة، وكلّ غموض، وكلّ سرّ، كما أنار مريم في البشارة وفي الهيكل وفي كلّ مراحل حياتها مع يسوع حتّى الصليب والعنصرة، نستطيع، نحن المربيّين ونحن الأولاد، أن نتفاهم لما فيه خيرنا وخير مجتمعنا وبيئتنا وكنيستنا.

II- علاقة مريم مع يوسف الزوج

مما لاشكّ فيه لم تكن مريم المربيّة الوحيدة ليسوع، فكان يوسف زوجها رفيق دربها في مهمّتها المميّزة. وكانت بمعيتّه تتمم فرائض الشريعة الإيجابية، ولا يمكننا أن ننكر دوره المميّز الذي أسمّيه اللاقط «أنتين» لمشيئة الله في حياته وفي حياة زوجته وفي العالم. فكان يكفيه حلم صغير لكي يبدي كلّ تساؤلاته ويتمم إرادة الله المخلّصة، ولو كان ذلك على حساب حرفيّة الشريعة. هذا الرجل المميّز لتدبير الله الخلاصيّ عاشت معه العذراء بتناغم وتواصل مميّزين. وكم كانت ثقّتها كبيرة بحكمته: فهي التي تبعته إلى بيت لحم لتكتتب معه حسب إرادة القيصر، وهي التي تبعته إلى مصر ومن ثمّ إلى الناصرة، وهي التي كانت ترافقه في الحجّ السنويّ إلى أورشليم. هذه الثقة الكبيرة بزوجها تبقى الشاهد الأكبر لاتّحاد العائلة وشهادتها التربويّة أمام الأولاد. عائلة مفكّكة تربويّاً وإيمانيّاً وحضاريّاً واجتماعيّاً لا يمكنها أن تربيّ أولادها تربية حقيقيّة. كما حفظت مريم بداخلها، سرّ البشارة، حفظت بحياتها سرّ يوسف واحترامها له. فهي لم تتعال على مكانته في العائلة، فكانت دائماً بصحبته حين كان على هذه الأرض.

إنّ علاقة الزوجين الواثقة ببعضهما هي الشهادة التربويّة الأساسيّة أمام الأولاد. تعلّمنا العذراء أنّ على كلّ مرّب أن يحافظ على دوره الخاصّ به ويحترم دور الآخرين التربويّ ولو لم يفهمه



وما عاشته مع أهل عرس قانا الجليل عاشته مع العائلة والأهل؛ لذلك كانت أمام التساؤلات تأتي لتستشير يسوع بأمور لا جواب لها عندها. وعلى أقدام الصليب كانت حاضرة، كما يقول لنا الإنجيلي يوحنا، لتعبّر بدون خوف عن علاقتها الدائمة بيسوع. لم تتوقّف هذه العلاقة مع صعود يسوع إلى السماء، بل استمرت مع الرسل إلى أن صعدت هي إلى السماء.

التمييز في دور مريم التربويّ مع يسوع أنّها كانت معلّمة ومتملّمة في آن. علّمت يسوع التدابير الدنيويّة التي يجب عليه أن يتعلّمها، لينمو بالقامة والنعمة أمام الله والناس، وتعلّمت من يسوع بأنّ الأولويّة هي لتدبير الربّ الخلاصيّ في حياتنا. علينا «أولاً أن نكون فيما هو للآب».

نتعلّم من علاقة مريم بيسوع الكثير. نتعلّم أولاً أنّ على كلّ منا أن يقوم بدوره حسب عمره ومكانته: الإنسان ليس مربّيّ بالفضرة أي من بداية حياته لنهايتها على الأرض، وهو بحاجة دائمة إلى من يوجّهه ومن يأخذ بيده لكي يتقدّم في الحياة. فعلى كلّ منا أن يكون أحياناً معلّماً، وأحياناً أخرى متعلّماً، وأحياناً معلّماً ومتعلّماً في ذات الوقت، وربّما هي الحالة العامّة في المستوى الجامعيّ. دور الأستاذ الجامعيّ أن يعلم المادّة التي تخصّص بها، ولكن عليه أن يتعلّم من الآخرين وربّما من طلابه أشياء أخرى مهمّة لا تتعلّق باختصاصه.

نتعلّم بأنّ موادّ الاختصاصات التي نتعمّق فيها ليست في أساس بداية الحياة ولا في نهايتها. هناك أسرار أخرى كثيرة في الحياة علينا أن نتأمّل فيها بصمت وهدوء وأن نحفظها في داخلنا ونستلهم الروح القدس كي نسبر أغوارها لنصل إلى يقين إيمانيّ يحرّرنا من جهلنا في مسيرتنا نحو الملكوت.

خاتمة

لم تُربّ العذراء يسوع ليكون ابنها وحدها أو لعائلتها الصغيرة. ربّت العذراء يسوع ليكون ابناً وأخاً وربّاً للبشريّة جمعاء. علمت أنّ الإنسان ليس لذاته، ولكنّه للحياة الأبدية مع الربّ. لذلك كرّست كلّ حياتها لخدمة ابنها وكنيستته والعالم. وها نحن اليوم على مثال العذراء، علينا أن نربّي أولادنا تربية شاملة مرتبطة بخلاصهم الشخصيّ وخلاصهم العامّ؛ فخلاص كلّ إنسان متعلّق بنا، كما أنّ خلاصنا متعلّق بخلاص كلّ إنسان.

العذراء التي جعلت من يسوع أخاً لكلّ منا، تجعلنا نحن إخوة لبعضنا البعض ومتضامنين من أجل الخلاص الشامل.

ذاته، كانت منفتحة على إلهامات الربّ لتعرف ما هو المميّز في دورها كأمّ الإله يسوع.

في البشارة قالت: «أنا خادمة الربّ». وفي الميلاد كانت تحفظ ما يقال لها في قلبها وتتأمّل فيه. وخلال الختان سمعت الكثير من سمعان الشيخ، وتعجّبت ممّا قاله لها وكذلك ممّا قالته حنة النبيّة. ولما وجدت يسوع في الهيكل بين العلماء، تعجّبت من المشهد، «يسوع ابن اثنتي عشرة سنة جالساً مع معلّمي الشريعة يستمع إليهم ويسألهم وكان جميع سامعيه في حيرة من فهمه وأجوبته». لما قالت له «يا بنيّ لماذا فعلت بنا هكذا، فأبوك وأنا تعذبنا كثيراً ونحن نبحث عنك؟»، أجابها «ولمّ بحثتما عني، أما تعرفان أنّه يجب عليّ أن أكون في بيت أبي؟ فما فهمنا معنى كلامه» (لو ١٢/٤١). وفي قانا الجليل، قالت لیسوع: «ليس عندهم خمر»، وقالت للخدم: «إفعلوا ما يأمركم به».

لم تكن مريم تفهم كلّ ما يجري معها، ولكن فهمت شيئاً واحداً وهو أنّه عليها أن تخصّص كلّ كيائها لخدمة ابنها. محبّتها لیسوع، وتكريس حياتها له وللآخر، هما عوضاً عن عدم فهمها لبعض الأسرار الإلهية في حياتها وحياة ابنها.

فهي التي هبّت لزيارة أليصابات لما علمت بحملها وأخذت معها ابنها. وبتعبير روحيّ أستطيع القول: إنّها قدّمت يسوع لأليصابات، ومن خلالهما حملت رسالة إلى البشريّة لم تستطع أن تخبّئها في داخلها إلى أن يحين الموعد، فهي سبّاقة.

وهذا ما عاشته أيضاً في عرس قانا الجليل لما قالت لیسوع «ليس عندهم خمر»، ثمّ قالت للخدم «إعملوا ما يأمركم به»، غير أبهة بجواب يسوع لها، وكأنّها لم تستطع أن تنتظر بعد حتّى يبدأ يسوع رسالته بصورة طبيعيّة. فقد استبقت الأمر لأنّ الحاجة كبيرة.



الأب فرنسوا عقل
مدير فرع الشؤف -
جامعة سيّدة اللويزة

الكنيسة الكاثوليكية والحرب

تمهيد

عن نفسها، وعن أبنائها ومقدّساتها، فأطلقت العنان في البداية، لحملات الدّفاع عن المقدّسات، بتأثير ذهنيّة تلك الحقب وظروفها، فاحترفت حملاتها عن مسارها الأساسي، إذ تداخلت فيها مطامع الملوك ومصالح الحكّام فلمست حقيقة قول السيّد: «من يأخذ بالسيف بالسيف يوّخذ».

أدركت الكنيسة حينها، أنّ القوّة ليست خير وسيلة للدّفاع عن الحقّ. والحرب وإن غيّرت معالم الجغرافية أحياناً، فهي لا تطوّر مسار التاريخ أبداً، بل قد تعود به إلى الوراء.

لذا، منع المجمع اللاتراني الثّاني عام ١١٣٩، في القانون ٢٩، تحت طائلة الحرّم الكنسي، مهارة النّبّالين والقذّافين المميّزة والمنبوذة من الله في المعارك بين المسيحيين^(١).

بناءً على ما تقدّم، سنحاول في هذا البحث المقتضب، استقراء مواقف الكنيسة الكاثوليكية المقدّسة وتعليمها، بما يتعلّق بإشكاليّة الحرب والسّباق إلى التّسلّح بين الدّول، وتسليط الضّوء على مفهوم السّلم ولاهوت السّلام.

I- شجّب الحرب بصورة عامّة

ما انفكّ شجّب الحروب يجتاح كلّ يوم بعض بلدان العالم. والحروب على أنواع؛ فمنها «الأهليّة» التي تشتعل بين فئتين أو أكثر من الشّعب الواحد، ومنها «الخاطفة» التي لا تدوم طويلاً، ومنها «الباردة» وهي بمثابة صراع دائم أو طويل الأمد، و«الاستنزافية» التي تعتمد خطط المناوشات المتقطّعة، ومنها «الدينيّة»، و«النّفسيّة» و«الاقتصاديّة» و«الإعلاميّة»... إنّ هذه الأنواع المختلفة من الحروب وغيرها ممّا لم نذكره، تندرج جميعها في

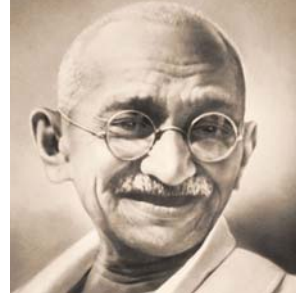
عرفت البشريّة الحروب منذ جريمة القتل الأولى في التاريخ حين أردى «الأخ الأوّل» أخاه.

إنّها النّزعة «القايينيّة» الأنانيّة المختبئة في عمق باطنيّة الإنسان غير الواعية، تنجح فيه أحياناً نحو السّيطرة على الأشخاص والأشياء. مركّب «تنازع البقاء» هي، وتسلّط المرء على أخيه الإنسان عن غير وجه حقّ. إنّها تلك الرّغبة «الذّيبيّة» المكنونة في طبيعة الكائن البشريّ المجروحة بالخطأ الأصليّ، تهدّد تهديداً مبطناً ودائماً المجتمع الإنسانيّ بمختلف فئاته، وغنى تنوّعه، بتحويله إلى غابة «ذئاب متطوّرة» حيث يصبح الإنسان ذئباً لأخيه الإنسان Homo homini lupus.

وها ذاكرة التاريخ القديم والحديث ما زالت تضجّ بصخب الحروب وغبار المعارك. فكم من قبائل ذبحت قبائل، وكم من شعوب أبادت غيرها، وكم من إمبراطوريّات سحقت أخرى واستعمرت مدناً واستعبدت أمماً. فمن حروب الرّومان إلى غزوات البرابرة والتّتر، إلى حملات الفرنج، إلى هجمات صلاح الدّين وفتوحات المماليك وتيمورلنك والعثمانيّين ونابوليون بوناپارت، ناهيك عن الحربيين الكونيّتين وغيرها الكثير من الصّراعات والمعارك والخلافات...

قد تدفع الحروب التاريخ والطّبيعة إلى التّطوّر كما اعتقد هيغل HEGEL، ولكنّ للتّقدّم الفعليّ وسائل أخرى سلميّة وحضاريّة، ترتبط بالفكر والعلم والثّقافة، أكثر منها بالعنف والقوّة والتّسلّط. أمّا الكنيسة التي ذافت طعم الاضطهاد والتّنكيل والاستشهاد، فهي حينها قد اضطرت في مرحلة معيّنة من التاريخ أن تدافع

CONCILIORUM OECUMENICORUM DECRETA, a.c.d. G. ALBERIGO – G. L. DOSSETTI- P. P. JOANNOU- C. LEONARDI – P. PRODI, (١) dell'Istituto per le scienze religiose, EDB, Boglogna 1996, p. 203



II- الحرب العادلة وحقّ الدّفاع المشروع

قد يتساءل البعض أحياناً، أن هل ثمة حرب عادلة؟ ومن يقرّر صحّة عدالتها؟ أليس الأمر نسبياً إلى درجة كبيرة؟ وألا يختلف مفهوم العدالة بين شعب وآخر أم بين أتباع هذا المذهب وذاك؟ ربّما يسلم المنطق البشريّ بعدالة الحرب فيعتبرها حقاً يمكننا ومشروعاً للدّفاع عن النّفس أو مقاومة اضطهاد ما، أو ضدّ جيش محتلّ غاصب، كما هو واقع الأمر بالنّسبة إلى الكثيرين من القادة والمنظرين.

ففي العهد القديم كانت الوصيّة الخامسة «لا تقتل» محصورة في القتل المتعمّد فقط، ولم تكن لتعني قطّ المقاومة المسلّحة في وجه الظلم والعنف.

أمّا في العهد الجديد فقد سأل بعض الجنود يوحنا المعمدان قائلين: «ونحن ماذا نعمل؟ فقال لهم. لا تظلموا أحداً، ولا تفترخوا على أحد، واكتفوا بأجوركم» (لو ١٤/٣). ويسوع نفسه أعجب بإيمان قائد المئة الروماني التّابع لجيش الاستعمار والاحتلال، والذي لا يؤمن بوحدايّة الله، فلم يلّمه على حمل السّلاح بل شفى له ابنه المفلوج، لأنّه لم يجد مثل إيمانه في إسرائيل.

وقد ناقش آباء المجمع الفاتيكانيّ الأنف الذّكر في إحدى الجلسات المجمعية، إشكاليّة الحرب العادلة وغير العادلة، فطالب بعضهم بإلغاء الأسلحة العصرية، والتخلّي عن منطق التميّز التقليديّ ما بين «الحرب العادلة» و«غير العادلة»^(٢)؛ فيما نادى البعض الآخر بعدالة هذا النّوع من الحروب والمقاومة الجماعية للاضطهاد، من أجل تحقيق السّلام.

وارتأى يومها الكاردينال ألفريدو أوتافاني (Alfredo OT-TAVIANI)، أنّ على المجمع مناقشة كلّ الوسائل والمبادرات المطروحة، لدفع عمليّة السّلام إلى الأمام، وإيجاد بعض الحلول السّلمية للصّراعات والخلافات بين الشّعوب.

لذا، رأت الكنيسة أنّه من الصّورويّ جدّاً، بثّ ثقافة جديدة في مجتمعاتنا المعاصرة، هي ثقافة رفض العنف، التي يجب أن تدرج في مناهج التّربية المدنيّة والدينيّة، كوسيلة فعّالة لحضّ الشّعوب على الاعتراف المتبادل بالحقوق والواجبات فيما بينها، وتجنّب كلّ صراع طبقيّ أو عرقيّ وجلّ أنواع الأنظمة الأمبرياليّة

خانة العنف الذي ترفضه المسيحيّة بصورة عامّة. وعليه، كم كان مصيباً قول غاندي GANDHI الشّهير: «العين بالعين يصبح العالم أعمى»؛ ممّا حمل المفكّر الفرنسيّ أوليفيه لاکومب Olivier LA-COMBE على القول: «حضّ غاندي المسيحيّين على أن يتذكّروا أنّ الإنجيل فعّال».

وبما أنّ الكنيسة عادةً، تمنح قضية حقوق الإنسان الطّبيعية والأولوية القصوى، فالأعمال التي تتنافى مع هذه الحقوق هي بصريح العبارة إجرامية وممقوتة. وما الطّاعة العمياء المتجسّدة في منطق -نفذ ثمّ اعترض- بكافية لتبرير من ينفذ تلك الأوامر. عالجت الكنيسة إشكاليّة الحرب إبّان المجمع الفاتيكانيّ الثّاني المسكوني، في الفصل الخامس من الدّستور الرّعويّ «فرح ورجاء» تحت عنوان «صون السّلام وبناء جماعة الأمم»؛ فشجبت بربريّة الحروب بصورة عامّة وأدانته (ك ع ٧٧)^(٣)، لأنّها خطر داهم يهدّد النّاس في كلّ زمان ومكان، بقدر انغماسهم في الخطيّة وأعمال الشرّ التي هي نفسها حرب ضدّ الخير والسّلام الدّاخلي (ك ع ٧٨).

أعلنت الكنيسة موقفها بوضوح، برفضها تلك الحروب التي قد تبيد شعباً بأجمعه أو أمةً بأكملها أو أقلّيّة عنصريّة لأيّ سبب كان. إنّها أعمال إجرامية رهيبية وينبغي أن تكون محرّمة (ك ع ٧٩). فالأعمال الحربيّة التي تهدف، دونما تمييز إلى هدم مدن كاملة أو مناطق واسعة بما فيها من سكّان، هي بمثابة جريمة ضدّ الله والإنسان، ويجب أن تشجب بشدّة من دون أيّ تردّد (ك ع ٨٠). ثمّ دعت الكنيسة كذلك، إلى التمسك بالاتفاقيات الدّولية المتعدّدة حول كلّ ما يرتبط بالحرب في حال وقوعها، كتلك التي تعنى بمصير الجنود الجرحى والأسرى. وناشدت الجميع بالتمسك بها وتطويرها قدر الإمكان، كيما تحدّ من وحشيّة الحروب بطريقة أفضل وبفاعليّة أكبر.

لذا يجب العمل بدون توقّف على نشر ثقافة السّلام ونبذ الحروب، بغية القضاء على ذهنيّة العنف والقوّة العمياء المدمرة.

(٢) سوف نستعمل في سياق البحث المصطلح (ك ع) للدّلالة على وثيقة «فرح ورجاء» من وثائق المجمع الفاتيكانيّ الثّاني.

(٣) Cf. I padri presenti al Concilio Ecumenico Vaticano II, (a.c.d.) Segreteria generale del Concilio, p. 267



لتركيب الصواريخ وصناعة القذائف والقنابل، بل بالحري تلك الرؤوس الكبيرة التي تخطط للحرب والعنف والدمار وراء كواليس الحياة اليومية^(٥).

٧١- نزع السلاح

إنّ التّقدّم الملموس للتّسلّح المتطوّر جدًّا والخطير، يزيد إلى حدّ بعيد من هول الحرب وفسادها. فباستخدام الأسلحة العصرية المذهلة، تستطيع الأعمال الحربية أن تسبّب خراباً واسعاً دونما تمييز، يتجاوز حدود الدّفاع المشروع تجاوزاً بعيداً. وعليه، فقد دعا البابا بولس السادس مرات عديدة، إلى نزع السلاح الحربيّ بصورة شاملة كي لا يؤدّي إلى خطأ لا يُغفر. لكنّ ذلك يجب أن يكون عملاً جماعياً وإلاّ يضحى جريمة إذ يحرم طالبي السّلام من الدّفاع عن أنفسهم^(٦). «فكلّ سباق مرهق إلى التّسلّح يغدو عتاراً لا يمكن التّفاضي عنه»^(٧).

السّياسيّة والاقتصاديّة، وتنمية روح الأخوة بين النّاس^(٤)، من دون التّنكّر لنظريّة حقّ الدّفاع المشروع، شرط أن تكون الجماعة السّياسيّة المعنيّة، قد استنفدت كلّ إمكانيّات الحلول السّلميّة؛ مع ضرورة التّمييز المطلق ما بين القيام بالحرب بهدف الدّفاع العادل عن الشّعوب وبين الرّغبة في فرض السّيادة على أمم أخرى تحت ستار شعارات وهميّة فارغة وأعداز كاذبة، وحجج واهية. فاستخدام القوّة لأغراض سياسيّة أو عسكريّة لا يمكنها أبداً أن تكون تبريراً لتحقيق السّلام (ك ع ٧٩).

III- شروط الدّفاع المشروع وملحقاته

نستنتج ممّا تقدّم أنّ ثمة شروط محدّدة ينبغي لها أن تتوفر من أجل شرعيّة أي عمل دفاعيّ يعتمد على القدرات العسكريّة. وعليه يكون الدّفاع المسلّح شرعيّاً في الحالات التّالية:

أ- في حال غدت الجماعة السّياسيّة ضحيّة ظلم واضح يكون بمثابة حافظ صريح وصارخ لدفاع مشروع؛

ب- بعد استنفاد جميع الحلول السّلميّة الممكنة عمليّاً، من دون أدنى وصول إلى النّتيجة المرجّاة؛

ج- عندما تكون كلّ النّتائج السّلبيّة التي يسبّبها الكفاح المسلّح أقلّ خطراً من الظّلم الذي ينبغي القضاء عليه؛

د- إن كان ثمة أمل كبير جدّاً في كسب الحرب من أجل كسب السّلم فالسّلام؛

هـ- إن كان من المؤكّد أنّ الدّفاع المسلّح سوف يؤوّل إلى احترام قدسيّة حقّ الشّعوب المظلوم.

أمّا في حال اشتعال الحرب بين دولتين، وهذا أمر غير محبّد عموماً، فعلى الجيشين تجنّب قتل المدنيّين. كما أنّه من السّداجة بمقدار أن تلقى مسؤوليّة القتل في الحروب على الجنديّ المحارب وحده في ساحة الوعى، وهو مأمور مسكين ينطلق من مبدأ «نفذ ثمّ اعترض» تلقّنه منذ اليوم الأوّل لدخوله معترك الحياة العسكريّة، كما لا يجب أن يتحمّل المسؤوليّة وحدهم أولئك العمّال الذين يُستخدمون في مصانع الأسلحة

(٤) Cf. G. F. SVIDERCOSCHI, Storia del Concilio, Milano 1967, P. 654

(٥) راجع، تيودول ري-مرميه، الخلفيّة، (تعريب أمين مرعي)، منشورات معهد الليتورجيا في جامعة الرّوح القدس، الكسليك-لبنان ١٩٩٣، ص. ٣٦٥-٣٦٩.

(٦) Commission Pontificale "Iustitia et Pax", Chemins de la Paix, Messages Pontificaux pour les journées mondiales de la Paix (1968-1986), Cité du Vatican 1986, pp. 90-91

(٧) Cf., A.A.S., LIX, 1967, p. 283

فالسّلام الحقيقيّ المبدئيّ بالنّسبة إلى الكنيسة، هو عطية من الله؛ وصورة لفرح تجسّد الكلمة الإلهي، ونتيجة لتجسّده كإله السّلام الحقيقيّ وأميره الذي صالح بصليبه النّاس جميعهم مع الله الواحد والثّالوث ومع أنفسهم والآخرين، ثمّ أفاض روح الحبّ في أفئدتهم بعد قيامته من بين الأموات. لذا، على البشر جميعهم بخاصّة المسيحيّون منهم، أن يتّموا الحقّ بالمحبّة ويكونوا سعاة سلام توّاقين إليه، جادّين في سبيل تحقيقه بعيداً عن شتى أنواع العنف (ك ع ٧٨).

كما يجدر العمل بشتى الوسائل على تغيير الذّهنيّات من خلال التّربية ونشر ثقافة السّلام عبر احترام العدل وضمّان الحقوق، والصّلاة المتواصلة لأله الحبّ الحقيقيّ.

أمّا الكنيسة فهي نفسها ذلك الصّوت المطالب بالسّلام، على ما يؤكّد البابا بندكتوس السّادس عشر^(١١)، مكملّاً ما سبق وأعلنه خادم الله البابا يوحنا بولس الثّاني في رسالته «أعطيكم رعاة» أنّ السّلام مسؤوليّة شاملة، ينتظر أنبياء وصانعيه الذين لا يمكن أن نحرم منهم. وإنّما يقوم على العدل، والانفتاح على الغفران ومحبّة الأعداء؛ فلا إمكانيّة لسّلام حقيقيّ إلاّ بالغفران^(١٢).

الخاتمة

قالت الأمّ تريزا دي كالكوتا Teresa DI CALCUTTA: «السّلام يبدأ بابتسامه».

إنّها ابتسامه ذلك السّلام الدّاخليّ النَّابع من حياة روحيّة سليمة وعميقة. ابتسامه الاعتراف الصّادق بوجود الآخر، وبحقوقه وبفردته وباختلاف رأيه ومعتقدده.

لم يعد مقنناً ما ادّعاه نيتشه Nietzsche! فالقوة ليست هي الحقّ، بل الحقّ هو القوة. وكم تحتاج مجتمعاتنا اليوم إلى التّفكير مليّاً بكلمات الرّئيس الأميركيّ الرّاحل جون كينيدي John KENNEDY حين قال: «على البشريّة أن تضع حدّاً للحرب، وإلاّ فإنّ الحرب ستضع حدّاً للبشريّة»^(١٣).

أمّا خادم الله البابا يوحنا بولس الثّاني فقد أكّد بدوره «أنّ النزاع المسلّح هو في حال حدوثة، شرّ محتمّ» ناهيك عن تهديد الحرب النوويّة^(١٤). كما أنّ «الرّدع القائم على التّوازن في الظروف الرّاهنة، ليس غاية في ذاته، ولكنّه خطوة على طريق نزع السّلاح تدريجيّاً فيمكن أن يعتبر مقبولاً أدبيّاً»^(١٥).

لذا، يجب تقليص كمّيّة اقتناء الأسلحة النوويّة، بانتظار إلغائها على وجه كامل، حفاظاً على سلامة العائلة البشريّة^(١٦).

فبدل إنفاق الأموال الطّائلة لصنع الأسلحة المتطوّرة، يجب العمل بتواصل من أجل مداواة البؤس في العالم. فالسّباق إلى التّسلّح هو جرح بالغ الخطورة في جسم الإنسانيّة، وهو يؤذّي الفقراء كثيراً.

فها صوت الكنيسة يصرخ بين الفينة والأخرى في براري السّباق إلى التّسلّح، معلناً أنّ العناية الإلهيّة تشاء أن تتحرّر البشريّة ممّا كانت تفرضه الحرب عليها قديماً (ك ع ٨١).

٧- لاهوت السّلام

تعني كلمة «سلام» في اللاتينيّة Pax، وهي تتحدّر من الجذر نفسه لعبارة Pactum أي «العقد». وهناك من يعتقد أنّ السّلام غياب الحرب؛ بل إنّ «فلسفة السّلام» التي طالما دوّت أصداء مبادئها في أروقة المدارس الرومانيّة قديماً -Si vis pacem, para bel-lum أي «إن أردت السّلام فحضّر للحرب»، لم تعد مقبولة في لاهوت كنيسة اليوم. كما ليس السّلام في السّباق إلى التّسلّح لصدّ أعداء ربّما لم يوجدوا بعد ولكن يحتمل ظهورهم؛ أو من أجل خلق ما يسمّى «توازن القوى» للحفاظ عليه. فهذا لا ينتج عنه سلام حقيقيّ ومستقرّ؛ بل إنّ عمل البرّ والصّلاح والخير، ومشروع بناء متواصل ترصف حجّارته يوماً بعد يوم. إنّ نشر الحبّ بين البشر وترسيخ أسس العدالة بين الشّعوب، عبر أناس ما انفكوا يتوقون إلى عدل أكمل، ما يتطلّب سهر السّلطات الشّرعيّة على تحقيقه في كلّ مكان (ك ع ٧٨).

(٨) Cf., Giovanni Paolo II, Incontro con i giovani nello stadio del prater di Vienna, 10 settembre 1983

(٩) Cf. Message du Pape Jean-Paul II, la 11^e session extraordinaire de l'Assemblée Générale des Nations Unies, sur le désarmement, 7 Janvier 1983

(١٠) Giovanni Paolo II, (a.c.d. Angelo MONTONATI) Parole sull'uomo, Fabbri editori, corriere della sera, Bergamo 1995, p. 244

(١١) البابا بندكتوس السّادس عشر، إرشاد رسوليّ سزّ المحبّة، حاضرة الفاتيكان، تعريب ونشر اللجنة الأسقفية لوسائل الإعلام جلّ الديب- لبنان، رقم ٤٩.

(١٢) البابا يوحنا بولس الثّاني، الإرشاد الرّسوليّ رعاة القطيع، حاضرة الفاتيكان ٢٠٠٣، تعريب ونشر اللجنة الأسقفية لوسائل الإعلام جلّ الديب- لبنان، رقم ٦٧.

(١٣) راجع، تيودور ري-مرميه، الخلقية...، ص. ٣٨٩.



فالأرض كبيرة جداً، وهي تتسع لجميع الشعوب والدول والديانات والثقافات. و«لكل شعب دعوته»، على حد قول الكاردينال روجيه إتشيفاراي Roger ET-CHEGARAY. ما من شعب يمكنه إلغاء الآخر بل إنّه لا يملك أصلاً حقّ القيام بذلك؛ لأنّ الشعوب برمتها، أعضاء في جسد البشرية الواحدة. وكلّ شعب كما يؤكّد موريس بلونديل Maurice BLONDEL يحمل فكرة مميزة يريد أن يجسدها في العالم، هي عقله ورسالته ونفسه. إنّه دعوة عالميّة شاملة إلى التّكامل، والسّباق إلى التّسلّح بالإيمان والأخلاق والعقل والفكر والعلم والثّقافة وعمل الخير، والقضاء على الظّلم والجهل والفقر والقهر.

المراجع

- البابا بندكتوس السّادس عشر: إرشاد رسوليّ سرّ المحبّة، حاضرة الفاتيكان، تعريب ونشر اللجنة الأسقفية لوسائل الإعلام جّلّ الديب- لبنان؛
- البابا يوحنا بولس الثّاني: الإرشاد الرّسوليّ رعاة القطيع، حاضرة الفاتيكان ٢٠٠٣، تعريب ونشر اللجنة الأسقفية لوسائل الإعلام جّلّ الديب- لبنان؛
- المجمع الفاتيكانيّ الثّاني، الوثائق المجمعية، نقلها إلى العربية يوسف بشارة، عبده خليفة، فرنسيس البيسري، طبعة ثالثة منقّحة، [د.م.]، ١٩٨٩.
- ري-مرميه، تيودول: الخلقية، (تعريب أمين مرعي)، منشورات معهد الليتورجيا في جامعة الرّوح القدس، الكسليك-لبنان ١٩٩٣؛
- ACTA APOSTOLICAE SEDIS: LIX (1967) 283;
- Commission Pontificale "Iustitia et Pax", *Chemins de la Paix, Messages Pontificaux pour les journées mondiales de la Paix (1968-1986)*, Cité du Vatican 1986;
- CONCILIORUM OECUMENICORUM DECRETA, a.c.d. G. ALBERIGO – G. L. DOSSETTI- P. P. JOANNOU- C. LEONARDI – P. PRODI, dell'Istituto per le scienze religiose, EDB, Bologna 1996;
- Giovanni Paolo II, *Incontro con i giovani nello stadio del prater di Vienna*, 10 settembre 1983;
- Giovanni Paolo II, (a.c.d. Angelo MONTONATI) *Parole sull'uomo*, Fabbri editori, corriere della sera, Bergamo 1995;
- *I padri presenti al Concilio Ecumenico Vaticano II*, (a.c.d.) Segreteria generale del Concilio.
- Message du Pape Jean-Paul II, à la 11^e session extraordinaire de l'Assemblée Générale des Nations Unies, sur le désarmement, 1983.
- SVIDERCOSCHI, G. F.: *Storia del Concilio*, Milano 1967.

فالسّلام لا يكمن في أكذوبة «توازن القوى» بحسب المصطلح المعروف؛ بل في توازن القيم الخلقية، ونشر العدالة، واحترام الاختلاف؛ وإلّا فالسّلام على السّلام.

أمّا كنيسة يسوع، فتعتبر البشرية عائلة واحدة وإن أرهقتها أوزار الحروب الأهلية والمحلية والعالمية وعواقبها. ينبغي لهذه العائلة اليوم شجب الحرب بصورة عامّة وتجنّبها، والبحث العميق عن السّلام الحقيقيّ عبر اعتبار الشّخص البشريّ قيمة كبرى، ومحوراً في حدّ ذاته، إذ تغدو حرّيته وكرامته وحقوقه أولوية في ذهنيّة تقدّمية جديدة، تدفع البشرية إلى بلوغ ملء قامتها وحلم كمالها؛ فتتحقّق بذلك نبوءة أشعيا النّبي: «يطبعون من سيوفهم سككاً ورماحهم مناجل فلا ترفع أمة على أمة سيفاً ولا يتعلّمون الحرب فيما بعد» (أشعيا ٢: ٤).



د. جورج لبكي

البطريركيّة المارونيّة والسياسة

البطريركيّة المارونيّة و السياسة عبر التاريخ

على الصعيد التاريخي، لعبت الكنيسة المارونيّة دوراً بارزاً في الحياة السياسيّة داخل الطائفة المارونيّة وعلى الصعيد اللبناني. ويمكن القول إنّ هذه الكنيسة لعبت و تلعب دوراً قومياً، بالإضافة إلى دورها الوطنيّ.

الكنيسة المارونيّة والسياسة

لقد تبلورت العلاقة بين الكنيسة المارونيّة والسياسة، عبر عدّة حقبات تعود إلى المراحل الأولى لتأسيس الكنيسة المارونيّة. فالكنيسة المارونيّة كنيسة بطريركيّة منذ نشأتها. فهي لم تتأسس كباقي الكنائس في منطقة جغرافيّة معينة، ولم تتأثر بالتنظيم الإداريّ المدنيّ الذي كان سائداً في القرن الخامس للميلاد، إنّما تكوّنت من مجموعة أديار منتشرة في مختلف أصقاع الشرق الأوسط. وقد تحلّقت هذه الأديار حول أب عامّ، أصبح فيما بعد البطريرك. وفي الواقع، لم تكن للمطارنة الموارنة أبرشيات محدّدة قبل المجمع اللبنانيّ المنعقد عام ١٩٣٦، بل كانوا يعيشون مع البطريرك في الكرسيّ البطريركيّ بصفة مساعدين له ينتدبهم في مهمّات كنسيّة ومدنيّة مختلفة.

إذاً، الحقبة الأولى للعلاقة بين الموارنة والسياسة بدأت مع البطريرك الأوّل يوحنا مارون. فالقدّيس مارون لم يؤسس كنيسة، بل كان راهباً متسكّفاً في صومعته. فبعد سقوط أنطاكية، المركز الأهمّ للكنيسة المارونيّة، بسبب الفتح العربيّ وانقطاع سبل الإتصالات مع القسطنطينية، كان لا بدّ من سدّ الفراغ القياديّ وحفظ الرعيّة. وقد تمكّن البطريرك يوحنا مارون من الإنطلاق بهذه الكنيسة، وسط ظروف سياسيّة ودينيّة وعسكريّة صعبة. وكان لها دور مميّز في تنظيم الجماعة والدفاع عنها، خاصّة في أوقات المصاعب والمحن.

تتميّز التجربة السياسيّة المارونيّة بطابع فريد في العالم وفي الشرق الأوسط. هذه التجربة هي الأكثر تنوّعاً في الشرق، وقد ميّزت الموارنة عن سواهم من مسيحيي المنطقة. وعندما نتكلّم في الكنيسة والسياسة، فإنّنا نعني الكنيسة كمرجعيّة دينيّة تتعاطى الشأن السياسيّ.

ولقد حدّد الإرشاد الرسوليّ العلاقة بين الكنيسة و السياسة بما يلي: «لا يمكن أن يكون للمسيحيين حياتان متوازنتان: إحداها مسمّاة روحية والأخرى علمانيّة. ولكلّ منهما قيمها المختلفة. وهذا مبدأ ينطبق على الجميع. والعلمانيّون، لكي يدخلوا روح خدمة الإنسان والمجتمع في النظام الزمنيّ، وهي روح إنجيليّة، لا يجوز لهم التخلّي عن المشاركة في السياسة، أي عن النشاط الاقتصاديّ والاجتماعيّ و التشريعيّ والإداريّ، والتفاني المتعدّد الأشكال و الهادف إلى تعزيز الخير العامّ، عضويّاً وعبر المؤسسات. (الإرشاد الرسوليّ: ١١٥ ص ١٨).

وأضاف: «إنّه من المستحسن أن تزداد المشاركة المنصفة في المسؤوليّات داخل الأمتة، ليتمكّن الجميع من وضع مواهبهم وقدراتهم في خدمة إخوتهم. ويعرفون أنّ لهم مساهمة متميّزة يقدّمونها إلى بلدهم عملاً بمبدأ الاستنابة، بابداعهم وممارستهم ما لهم من روح مبادرة» ع ص ٦٠.

إنّ هذا الدور السياسيّ للكنيسة المارونيّة الشرقيّة التكوينيّ لم يكن نتيجة ظروف أنيّة، بل هو نتيجة كينونة تاريخيّة لجماعة عاشت أكثر من ١٥٠ سنة في هذا الشرق في ظروف لم تتوقّف فيها التحدّيات و المخاطر المتعدّدة المصادر والاتجاهات ككفاح الأقلّيّات للحفاظ على كيانهم ووجودهم، والصراع بين المذاهب الدينيّة، والضيق الاقتصاديّ، والاضطهادات من كلّ الأنواع. إنّ الطابع الرئيسيّ للكنيسة المارونيّة هو أنّها كنيسة بطريركيّة على رأسها بطريرك يشكّل المرجعيّة الأولى في أنطاكية.



العامل الديني. وقد وصل ذلك إلى حدّ تجاهل شبه كامل لدور الكنيسة على الصعيد الوطني.

وعلى العكس، ففي ظلّ الأزمات وتراجع دور الزعامات السياسيّة المدنيّة، يقوى العامل الكنسيّ من جديد، لأنّ الناس يشعرون بالحاجة إلى الحماية، التي لطالما حملت رايتها الكنيسة المارونيّة وعلى رأسها البطريركيّة. ولقد تجلّى ضعف الكنيسة المارونيّة عندما عجزت عن وقف الاقتتال المارونيّ، في أواخر الثمانينات.

وأثناء الوجود السوريّ بسبب حالة الفراغ على صعيد الزعامات

السياسيّة المارونيّة، تجلّى الدور السياسيّ للبطريركيّة المارونيّة كلاعب أساسيّ في المجال اللبنانيّ والإقليميّ والدوليّ. فمنذ قيام دولة لبنان الكبير عام ١٩٢٠، وبعد استقلال لبنان عام ١٩٤٣، ازدادت الثنائيّة بين الطبقة السياسيّة وعلى رأسها البطريرك المارونيّ. والأمثلة على ذلك كثيرة: فالبطريرك عريضة كان يريد

استقلال لبنان، ولكن ضمن معاهدة صداقة وتعاون مع فرنسا؛

أمّا الرئيس شمعون الذي سار في سياسة معاهدات مضادّة للموجة الناصريّة التي كانت تجتاح العالم العربيّ، فقد اصطدم مع البطريرك الذي كان يؤيّد انتهاج سياسة أكثر حياداً في الشرق الأوسط، وأخذ هذا الصدام صورة علنيّة أبان أحداث ١٩٥٨ التي وضعت الرئيس شمعون في مواجهة الموجة الناصريّة في الشارع

اللبنانيّ، إذ عارض البطريرك بولس المعوشي سياسة الرئيس شمعون، وأيّد سياسة أكثر حياداً واعتدالاً حتى لُقّب «بمحمّد المعوشي»؛ كذلك عارض البطريرك المعوشي محاولة التجديد للرئيس فؤاد شهاب عام ١٩٦٤ لولاية ثانية، وطلب من الولايات المتحدة العمل على دعم استمرار اللعبة الديمقراطية في لبنان.

من جهة أخرى، أظهرت الحرب اللبنانيّة، التي بدأت في ١٣ نيسان ١٩٧٥، هذه الثنائيّة. فبعد النكسات المسيحيّة الأولى، توجه السياسيّون الموارنة البارزون في تلك الفترة (بيار الجميل- كميل شمعون- ريمون إدّه) إلى بكركي محمّلين إيّاها مسؤوليّة تدهور الوضع المسيحيّ، وطالبن منها القيام «بواجباتها» للدفاع

عن المسيحيّين من خلال الاتصال بالكرسيّ الرسوليّ وبالذول العربيّة الفاعلة في المنطقة. أمّا الرئيس بشير الجميل فلم تكن علاقته جيّدة ببكركي دائماً. وقد راح نجم بكركي يتصاعد رويداً رويداً مع تراجع دور الطبقة السياسيّة المارونيّة المتزايد، بفعل الإغتيالات السياسيّة والتهجير أو السجن أو التهميش بسبب قوانين الانتخاب. فالقيادات المارونيّة التي تعاقبت على السلطة

أمّا الحقبة الثانية فقد بدأت مع السلطنة العثمانيّة التي اجتاحت الشرق في أوائل القرن السادس عشر. وقد تمكّن البطريرك، في هذه المرحلة، وخاصّة في القرن التاسع عشر، أن يصبح الشخصيّة السياسيّة الأكثر تأثيراً في الجبل اللبنانيّ. والجدير بالذكر أنّ العثمانيّين أدخلوا نظام الله إلى الشرق، وعلى رأس كلّ طائفة زعيمها الدينيّ. وقد منحوا لهذا الأخير السلطة الزمنيّة، وتركوا له حقّ البتّ في الأمور القضائيّة ومسألة الأحوال الشخصيّة والأوقاف.

الحقبة الثالثة بدأت مع زوال السلطنة العثمانيّة ونشأة لبنان الكبير. وقد كان للبطريرك الياس الحويك دور كبير في إقامة لبنان المعاصر، وعودة الأقضية الأربعة التي سلخت منه، وذلك من خلال اشتراكه في مؤتمر فرساي عام ١٩٢٠.

وهذه الدولة مرّت بأربع مراحل أساسيّة:

الأولى هي مرحلة الإنتداب الفرنسيّ (١٩٢٠-١٩٤٤) انتهت باستقلال لبنان، وكان للبطريرك دور كبير في إقامة الكيان واستقلاله؛ المرحلة الثانية امتدت منذ ١٩٤٣ حتى ١٩٧٥، وهي فترة تراجع فيها الدور السياسيّ للبطريركيّة بسبب ظهور طبقة مارونيّة سياسيّة جديدة، لها واقعها داخل الطائفة وخارجها مع الطوائف الأخرى؛ المرحلة الثالثة وهي مرحلة الحرب، وقد تراجع فيها دور البطريركيّة بسبب سيطرة الميليشيات المسلّحة؛ أمّا المرحلة الرابعة ١٩٩٠-٢٠٠٥ فتميّزت بعودة الدور السياسيّ للبطريركيّة المارونيّة من الباب العريض، بحيث أصبحت من جديد المرجعيّة المارونيّة وحتى اللبنانيّة الأولى الأكثر نفوذاً في جبل لبنان (داخل الطائفة المارونيّة وخارجها). وقد تثبّت هذا الدور بعد الانسحاب السوريّ من لبنان عام ٢٠٠٥، وعودة التنافس بين مختلف المذاهب اللبنانيّة على السلطة.

مشكلة الثنائيّة السياسيّة

ولكنّ المفارقة الكبرى تكمن في أنّ هذه المعادلة تغيّرت بعد قيام دولة لبنان الكبير، التي لعبت الكنيسة المارونيّة دوراً محورياً بشأنها، إذ ظهرت طبقة سياسيّة مدنيّة تولّت المناصب الوزارية والنيابية والإدارية، وعلى رأسها رئاسة الجمهوريّة.

وكان بنتيجة ذلك أنّه في الحالات السياسيّة العادية، وفي غياب أيّة توترات اجتماعيّة أو أمنيّة، تقوى الزعامات المدنيّة ويتراجع

- بالخير والعافية... ولا يرضى أحد، إذا كان سليم العقل، بأن يبقى تحت الوصاية ما دام على قيد الحياة. وهذه الوصاية المستمرة منذ سبعة وعشرين عامًا أشعرت اللبنانيين بأنهم غير مؤهلين للنهوض بمسؤولياتهم، وهذا يلحق ضررًا كبيرًا للبنان وباللبنانيين». (النداء الخامس ١ أيلول ٢٠٠٤).
- الخصوصية اللبنانية الناتجة عن تعدد الأديان والثقافات والانفتاح على الحضارات العلمية، وضرورة مراعاة هذه الخصوصية في القوانين.
 - دور لبنان في محيطه العربي؛ وقد شدّد على دور لبنان في محيطه العربي بصورة لا لبس فيها، كلٌّ من الإرشاد الرسوليّ من أجل لبنان والمجمع المارونيّ اللبناني، ما وفرّ تغطية سياسية لاتفاق الطائف الذي نصّ على عروبة لبنان.
 - قيام دولة المؤسسات والحق.
 - احترام حقوق الإنسان.
 - اعتماد مبدأ الحوار القائم على الإحترام المتبادل كسبيل وحيد لحلّ الخلافات، ولمراعاة مشاعر الأفراد والجماعات المختلفة.
 - العيش المشترك بين جميع الطوائف اللبنانية؛ لقد شدّدت البطريركية المارونية منذ قيام دولة لبنان الكبير عام ١٩٢٦ على أهمية العيش المشترك بين جميع اللبنانيين. هذا هو قدر اللبنانيين وخيارهم الحرّ، وإن تكن هذه مرّت بصعوبات مختلفة. فالبطريركية تعتبر أنّ ما يجمع بين اللبنانيين هو أكثر ممّا يعرف: «بجمع بينهم الإيمان بالله الواحد، والانتماء إلى وطن واحد، والارتباط بمصير واحد (معًا أمام الله، مجلس بطاركة الشرق).
 - التضامن مع المحيط العربيّ.
 - بناء نظام سياسيّ واقتصاديّ واجتماعيّ عادل.

الإشكاليات

- الكنيسة لا ترتبط بأيّ نظام سياسيّ.
- الكنيسة لا تقترح برامج اقتصادية أو خطط تنمية أو أنظمة سياسية.
- الكنيسة تذكّر بالمبادئ الانجيلية التي تدعو إلى احترام الفرد وتقاسم الثروات بين الدول الغنية والدول الفقيرة، وبين الأغنياء والفقراء داخل كلّ دولة.
- الكنيسة تطالب بأمور وجودية (كالحرية والاستقلال)، بينما تطالب الطوائف الأخرى بأمور مطلبيّة (كالخدمات الاجتماعية).

منذ عام ١٩٩٢، لم تكن تملك شعبية واسعة في الشارع المارونيّ والمسيحيّ عمومًا. بل إنّ هذا الشارع حملها تبعة تراجع الوضع المسيحيّ السياسيّ منذ اتفاقية الطائف، واعتبر أنّ من وصلوا إلى السلطة فيفضل البندقية السورية، وليس بواسطة الانتخابات. وقد بدا الأمر جليًا، لأنّ قوانين الانتخابات النيابية الاستثنائية زوّرت صحّة هذا التمثيل، ومنعت شرائح كبيرة من اللبنانيين من ممارسة حقوقهم الديمقراطية. وقد شكّل إبعاد رموز الطبقة السياسية المارونية أو سجنهم أو اغتيالهم حالة فراغ في كلّ الساحة السياسية المارونية، لم تتمكّن سوى بكركي من ملئها. وقد قام البطريرك بممارسة هذا الدور التاريخي، لأنّه في زمن المحنة والشدائد ينظر المسيحيون إلى رموزهم الدينية للدفاع عنهم، فهم يعتبرون أنّ الطبقة السياسية مراقبة بينما بكركي دائمة.

والرئيس السابق الياس الهراوي احتجّ على قيام وساطة بين بكركي ودمشق، معتبرًا أنّ العلاقات مع سوريا هي بين بلدين تخصّ المسؤولين فيهما. كذلك أخفقت الوساطة الثانية مع سوريا على عهد الرئيس إميل لحود، بحجّة أنّ العلاقات بين البلدين تمرّ بالسلطات التشريعية، وليس من جهة طرف آخر مهما يكن.

في المبادئ التي تناهى بها البطريركية المارونية على الصعيد السياسيّ

بعد عودة بكركي إلى لعب دورها على الساحة اللبنانية، شدّدت البطريركية على المبادئ التالية: استقلال لبنان، الانسحاب السوريّ، احترام حقوق الإنسان، إقامة دولة الحقّ والمؤسسات، والاهتمام بالقضايا الاقتصادية والاجتماعية، كما يلي:

- استقلال لبنان التام، وضرورة بسط سيادة الدولة على كامل أراضيه.

- الحرية التي هي في أساس النظام اللبناني، وتتقدّم حتى على مبدأ العيش المشترك. هنالك ترابط عضويّ بين الموارنة والحرية. فالموارنة لجأوا إلى جبال لبنان، وتحملوا مشقّات العوامل الطبيعية القاسية وشظف الحياة باسم الحرية. ولبنان يجب أن يقوم على أساس الديمقراطية والمساواة واحترام حقوق الإنسان. وقد أشار البطريرك صفير إلى أنّه لو خيّرنا بين العيش المشترك والحرية لاخترنا الحرية: «إنّ ما يفترق إليه لبنان تحمّل مسؤولياته بذاته. وهذا يحرمه ما يعود عليه

SAINT JEAN-MAROUN PREMIER PATRIARCHE MARONITE
HEROS DE L'INDEPENDANCE DU LIBAN :DANS UNE LETTRE
ADRESSEE AU SEPTIEME SIECLE AUX HABITANTS DU
MONT LIBAN SAINT JEAN MAROUN ECRIT: «CETTE MON-
TAGNE EST LA MONTAGNE DE LA LIBERTE»

L'histoire du premier Patriarche Maronite Jean Maroun reste peu connue même au sein de l'église Maronite. Jusqu'à une date récente certains prélats et chercheurs niaient même son existence! Pourtant Saint Jean Maroun a joué un rôle clef dans l'affermissement et le développement de l'église Maronite. En effet, si les historiens s'accordent à dire que Saint Maroun a vécu au cinquième siècle, l'église Maronite ne s'organise autour d'un Patriarche qu'au septième siècle. Le grain de sénevé est resté deux siècles enseveli. Il est mort mais a redonné et continue de le faire des graines par millions. Saint Maroun fut ce grain de sénevé qui s'endormit sous terre pendant deux siècles durant.

L'histoire de l'Eglise Maronite prend son point de départ avec Saint Maroun qui vivait en ermite dans les Monts du Taurus. La sainteté de Maroun se tarda pas à se faire connaître au grand jour. De partout, les fidèles accouraient pour se faire soigner et écouter la parole de Dieu chez le serviteur de Dieu. Très vite après sa mort un monastère fut construit sur l'emplacement de la mort du Saint. Et plus rapidement encore une multitude de monastères dédiés à Saint Maroun virent le jour et s'étendirent depuis la Mésopotamie jusqu'au bord de l'Oronte. Les fidèles des alentours venaient accomplir leurs devoirs religieux dans ces monastères. Ces derniers ne tardèrent pas à se fédérer sous l'autorité du Supérieur du Monastère de Saint Maroun bati sur l'Oronte. Selon plusieurs témoignages historiques ce monastère devint très puissant. Mais les dangers n'allaient pas tarder à se pointer...

En effet, l'Islam conquérant venait de sortir de la péninsule arabique et déjà s'affronter à l'Empire Byzantin puissance régionale de l'époque mais pas pour longtemps... Et pour tout dire les églises chrétiennes s'étaient lancées dans de sanglantes et interminables futilles querelles théologiques qui allaient leur couter très chers. A tel point que le siège Patriarchal d'Antioche, siège de la première des églises fondées par les apôtres du Christ devint vacant pendant plusieurs décénies et ce à partir de l'an 609 pendant bien longtemps. En effet, les Patriarches d'Antioche vivaient heureux à Constantinople sans beaucoup se quérir du sort des chrétiens d'Orient. Saint Jean Maroun vécu dans cette époque perturbée et secouée par des luttes intestines internes et régionales.

Naissance de Saint Jean Maroun

Selon la tradition, Jean Maroun est né à Sarum, une petite ville prospère située au sud de la ville d'Antioche. Il a

التحديات

الوضع الصعب للأقليات في كلّ دول العالم، وليس فقط في الشرق الأوسط، وتحديات التأقلم مع حكم الأكثرية.

- نتائج الحرب السلبية على المسيحيين على صعيدين أساسيين: المشكلة الديموغرافية ومشكلة الهجرة الناجمة عن عدم القناعة بوجود مستقبل زاهر وآمن في هذه البقعة من العالم. - تراجع وانكفاء الزعامات السياسية المارونية بفعل التهجير، أو قوانين الانتخاب الجائرة منذ ١٩٩٢، الإغتيالات، انكفاء الزعامات السياسية التي نشأت خلال الحرب، عدم تمكّن النخب من المارونية من الإرتقاء على الصعيد السياسي بسبب السيطرة المحكمة لما تبقى من الزعامات السياسية التقليدية على الساحة السياسية. (وكما أشرنا سابقاً، فقد اضطرت بركي إلى سدّ هذا الفراغ، فأضحت ضمير، ليس فقط المسيحيين، بل الكثير من اللبنانيين).

- التلاقي الكامل بين الكنيسة المارونية والإدارة العامة. - ترجمة الشعارات والمبادئ إلى أمور مطلبيّة عملية من خلال وضع آليّة لحصول المسيحيين على حقوقهم الاجتماعية والتربوية والصحيّة. - المساعدة على إعداد كوادر تتخرط في الشأن العامّ والإدارة، وهذا ما يدعو إليه الإرشاد الرسوليّ صراحةً وبقوّة. (الإرشاد الرسوليّ ١١٥ ص ١٨٠).

ونهايةً، فالكنيسة المارونية مدعوة إلى إعادة تنظيم نفسها وتحديث هيكلتها وإدارتها، لكي تتمكن من التعامل بنجاح مع الواقع الجديد الذي نشأ بعد الحرب.

ولكن، مع الانسحاب السوريّ من لبنان، يعود الدور المارونيّ من الباب الواسع وبمطلب الكثير من اللبنانيين، ذلك أنّ ضعف المسيحيين في المرحلة السابقة وخسارة الرئيس الجمهوريّة للكثير من صلاحيّاته، نجم عنه صراع بين الشيعة والسنة على السلطة (امتدّ إلى كلّ العالم العربيّ). وما الامتداد المارونيّ والمسيحيّ في كلّ لبنان وتعايشهم مع جميع الطوائف إلاّ تجسيد لهذا الدور الفاصل- الجامع في آنٍ معاً. لذلك، من الواجب أن يعود الصوت المسيحيّ إلى سابق عهده. أمّا عودة هذا الدور فمرتبط بتنظيم الموارد لأنفسهم على قاعدة «مورونيم تقسي».

أي المارونية تنظيم.

وفي ما يلي نبذة عن القديس يوحنا مارون، أوّل بطريرك على الطائفة المارونية، أوردها بأصلها الفرنسيّ، كما كتبها:

été appelé Jean-Sarumite par rapport à son village Sarum. Scolarisé au départ à Antioche, il poursuivit ses études au Monastère de Saint Maroun où il étudia la philosophie, la théologie, la linguistique et la Sainte Écriture. Il a été ordonné à la prêtrise au monastère de Saint Maroun. L'adoption d'un nom monastique était la tradition: il a choisi le nom de Saint Maroun qui veut dire le Maître «al-Sayed», d'où le nom de Jean Maroun.

Jean Maroun se rendit à Constantinople où il a appris la patrologie grecque. Ensuite, il revint au Monastère de Saint Maroun où il est devenu écrivain dans une grande variété de domaine comme l'art de la parole, les sacrements, de biens de l'Église et de la législation. Il a travaillé notamment sur le livre de l'ordination et sur le renouveau des cérémonies liturgiques. Il a enseigné et prêché le dogme de l'Église catholique selon le Concile de Chalcédoine, qui a proclamé que dans le Christ il y a deux natures humaine et divine. Il a compilé une série de lettres dans lesquelles il a encouragé les fidèles à adopter ce dogme sacré et les a exhortés à rejeter l'enseignement de la monophysite et des monothélites.

Un des rares documents qui existent sur Saint Jean Maroun figurent dans un des documents de la secte alaouite de Syrie qui le critique avec véhémence au vue de son zèle à défendre la foi.

Évêque

Saint Jean Maroun voyageait dans toute la Syrie où il défendait le dogme de Chalcédoine. Ainsi, il visitait paroisses et monastères renforçant l'enseignement des chalcédoniens, en les exhortant à rester fidèle à l'enseignement de l'Église catholique. Son style attrayant et ses méthodes d'argumentation convaincantes trouvèrent beaucoup de succès auprès des fidèles.

Selon les chroniqueurs, Jean Maroun a été consacré évêque en 676A.D. Il s'est établi au Mont-Liban dans la ville de Batroun à un moment où l'expansion rapide arabe et les attaques constantes des monophysites mettaient en péril la présence de l'Église catholique au Mont-Liban. Jean Maroun était le vrai chef capable d'affronter les conquérants venus du désert d'Arabie, de contester les monophysites et d'assurer l'unité du Maronites avec l'Église de Rome.

En ces temps difficiles et éprouvantes, Saint Jean Maroun voyageait entre les villes et les villages, consolait les opprimés et les pauvres et affermissait la foi de ses fidèles. Tout comme son maître Saint Maron, Dieu l'avait doté d'un don spécial de guérison des pestiférés et des malades incurables. Outre ce don de guérison, Saint Jean Maroun était un excellent professeur et un prédicateur efficace, un fin politique et un leader exceptionnel de sa communauté.



St. John Maron
(Paroisse Saint Jean Maroun,
Etats-Unis)

Jean Maroun établit son éparchie à Batroun, une ville côtière d'origine phénicienne, située entre Byblos et Tripoli. A partir de son éparchie, il continuait à enseigner, à prêcher et à établir de nouvelles paroisses. Il a protégé ses fidèles regroupés autour de lui au Liban en posant la première pierre de la nouvelle nation libanaise maronite.

Saint Jean Maroun Patriarche d'Antioche

En raison des combats qui ont persisté au septième siècle au Moyen-Orient la population chrétienne de Syrie diminua. Plusieurs raisons ont conduit à la migration massive des chrétiens vers le Liban. D'abord, il ya eu la mort du patriarche d'Antioche Anastase en 609. Puis les Perses envahirent la Syrie et menacèrent de prendre Constantinople. Plus tard, l'Empire Byzantin revendiqua la Syrie, puis les Perses se pointèrent à nouveau. Puis, vint la conquête arabe en 636. Ajoutez à cela les combats incessants entre les Arabes et l'Empire Byzantin qui traînaient à la fin du siècle. Pris entre les persécutions et les luttes incessantes pour reprendre la Syrie il n'était plus sûr pour le Patriarche de vivre à Antioche. En conséquence, le Patriarche se déplaça à Constantinople et le siège Patriarcal est devenu vacant. Ainsi, entre 640 et 702, Macédonius, Macaire, Théophane et Georgius ont été nommés Patriarches titulaires d'Antioche mais n'étaient plus en mesure de remplir leurs fonctions pastorales à Antioche même.

Au Liban, les Maradites sur lesquels l'Empire byzantin dépendait pour se protéger des incursions de la dynastie des Omeyyades, étaient devenues une puissance militaire avec qui il fallait compter. Les Maradites qui - selon beaucoup de Chroniqueurs étaient Maronites ou leurs alliés, est devenue si puissante qu'on les appelait: "Le mur en laiton". N'ayant pas un berger et un leader parmi eux pour diriger leurs affaires, les Maronites se sont sentis abandonnés et ont cherché un moyen de combler le vide. Les Maronites ont saisi cette occasion pour élire Jean Maroun en 685 comme Patriarche d'Antioche.

L'obéissance de Jean Maroun à l'Église de Rome et de son amour pour son patrimoine antiochien lui ont permis de

monter sur le Siège d'Antioche, le plus ancien siège de l'Église catholique.

Selon la tradition le nouveau Patriarche se rendit à Rome pour recevoir l'approbation pontificale. Le pape Sergius le confirma «Patriarche d'Antioche et de tout l'Orient», et lui donna le pallium comme un signe de la succession hiérarchique et l'autorité suprême. Jean Maroun retourné à Antioche en grande pompe ou il a été installé en tant que Patriarche sur le plus ancien siège de l'Église catholique. (Le Patriarche actuel étant le soixante dix septième Patriarche et le 65me si on prend en compte les patriarches qui se sont succédé sur le Patriarcat d'Antioche depuis les Apôtres).

Le Patriarcat d'Antioche se déplace à Kfarhay au Liban

Quand les Maronites élirent leur Patriarche sans obtenir le consentement de l'Empereur Justinien, ce dernier fût très furieux et décida de mettre un terme à l'indépendance



de l'Église naissante en détruisant les Maradites en Arménie et au Liban. Puis il ordonna à l'armée Byzantine d'envahir le Liban et de capturer Saint Jean Maroun et de l'amener à Constantinople vivant. Justinien II pensait qu'en s'emparant du Patriarche, c'est-à-dire, du leader des Maronites, il porterait le coup de grâce à ces derniers.

L'armée byzantine entra au Liban. Elle se heurta aux Maronites en deux locations stratégiques: Amioune et Samar Jbeil. Saint Jean confia le commandement des troupes à son neveu Ibrahim qui remporta une victoire décisive sur les assaillants sur les deux fronts. Les deux commandants de l'armée byzantine Maurice and Mouricianos, furent tués et l'armée de Justinien II défaite.

Après cela, Saint Jean Maroun établit son siège patriarcal à Kfar-Hay, un village dans la région de Batroun et le nomma "Reesh Moran" qui veut dire la tête du Seigneur. Ainsi, le Patriarcat d'Antioche se déplaça au mont Liban ou les Maronites s'organisèrent politiquement, religieusement, socialement et économiquement.



Le role de Saint Jean Maroun

Jean Maroun était à la fois un chef civil et religieux. Il avait le bon jugement et la vision pour le renforcement et l'organisation des Maronites au Liban. Il a fait des maronites une nation indépendante et une église autonome. Il a également rassemblé les monastères isolés et les a libérés de la tyrannie des forces dominantes de l'époque. En outre, il a préservé l'identité liturgique et théologique du Patriarcat d'Antioche. Il recueillit et regroupé le troupeau épars, lui fournissant une terre qu'il pouvait appeler sienne et où ils pouvaient vivre en liberté.

L'Église Maronite célèbre la Fête de Saint Jean Maroun le 2 mars. Saint Jean Maroun fut l'organisateur de l'Église Maronite. Il réussit à surmonter brillamment les difficultés locales et régionales de son époque dans un Moyen-Orient secoué par des conflits interminables. Paradoxalement, plus d'églises lui sont dédiées en dehors du Liban notamment aux Etats-Unis.

Son exemple devrait nous inspirer dans cette époque d'incertitudes que traversent beaucoup de chrétiens d'Orient (d'où une émigration massive). Ignoré depuis des siècles, Saint Jean vient d'avoir son rôle enfin reconnu. Une anaphore spéciale (Prière eucharistique) qui porte son nom "L'anaphore de saint Jean Maron Patriarche d'Antioche" lui est consacrée. Cette anaphore a été réintroduite dans le nouveau missel maronite. Et pour la première fois, le patriarche Maronite vient de célébrer la Fête de Saint Jean Maroun à Kfer Hai là même où Saint Jean Maroun avait établi son Siège Patriarcal. Ce dernier s'est enrichi des reliques de Saint Maroun ramenées d'Italie après plusieurs siècles. En contrepartie, **la statue de Saint Maroun incrustée dans les murs du Vatican soutient les remparts de l'église catholique.** Le synaxaire de l'église Maronite célèbre la Fête de Saint Jean Maroun le 2 mars. Maintenant que justice historique est faite, il reste à implorer **les grâces de ce grand Saint fondateur. Et je sais personnellement par expérience qu'elles sont nombreuses.**

Dr Georges labaki

Un des derniers humanistes

Président de l'Association Saint Jean maroun JAMIM



إيلي مارون خليل

بابا فرنسيس، أنعش الكنيسة!

صليبك النَّحَاسِيُّ، سيقهرُ أصنامَ هذا الزَّمانِ. حذاؤك البسيطُ، المُشَقَّقُ، العتيقُ، سيُعبِّدُ لنا الطَّرِيقَ إلى حيثُ البَقَاءُ. كما جئتَ في الزَّمانِ الأسودِ. بثوبك الأبيض النَّاصِعِ، ستُضيءُ عوالمَ نفوسنا، أرواحنا، والأحلامَ، قبل إنارتك عينيَّ الجسدِ، فينا، والمادَّةَ والطَّمَعِ. كلُّنا إليك، كلُّنا، لا ينقصُ أحدٌ، لا يتباطأُ أحدٌ، لا ينشغلُ أحدٌ، لا يرفضُ أحدٌ. لاسقيمُ ولا سليم؛ لا فقيرٌ ولا... لا! أَلْغَيْتُ الممْتَلِئَ تَكْبِيرَ مالٍ، قد لا يتواجدُ معنا. ماله يُثْقَلُ عليه. كبرياؤهُ تُغرِّقُهُ في تهاوته. شهواتُهُ تُعمي بصره، فلا بصيرةَ له. ستقلبُ زمننا الأسودَ، هذا، إلى زمنِ الفرحِ والأملِ والسَّعادةِ والرَّجاءِ.

بابا فرنسيس!

وعلى غرارِ سَمِيكَ بَدَوْتَ. تواضَعُكَ بك ارتفع. فَرَّقَكَ مِثَالُ الغنى. بساطتُكَ طريقُ قداسِتك، ومعك وعبرك، نتقدِّس. إنفتاحُكَ أدخلكَ العُقولَ. سلامُ نَفْسِكَ أكسبكَ القلوبَ. فها أنتَ واحدٌ منَّا، بيننا تُقيم، معك نُقيم حوارًا دائمًا، إليك نتوق، إياك نتشفع.



إِطْلالتُكَ الأولى! محبَّةٌ نَجَسَدَتْ! بَدَوْنَا ننتظرُكَ، وبدوتَ آتِيَا إلينا بالوعي كُلِّهِ، مملوئينِ فراغًا وخوفًا وبأسًا وتَشَرُّدًا؛ وممتملِّنا بالثقة والشَّجاعة والثبات والرَّجاء! ممتلئينِ حزنًا؛ ومملوءًا نِعَمًا! كنا في نارِ انتظارِكَ، نرنو إليك ولا نعرفُكَ! نهتفُ باسمِ الفقراءِ والمسحوقينِ والمرذولينِ، وعبوئنا إليك، وقلبنا معك، ورجاؤنا فيكَ! طويلًا جدًّا إنتظرناكَ. كان إنتظارنا مجيئِكَ، أطولَ من ليلنا. بدا إنتظارنا مجيئِكَ، أشدَّ قَلَمًا من وحيدِ هائمٍ في صحراءِ وجئتَ!

في الوقتِ القاتلِ، جئتَ. وجئتَ في الزَّمانِ المناسبِ. في الوقتِ المستطعِ، جئتَ. وجئتَ في الزَّمانِ الأسودِ.

وقتنا، هذا، قاتِلٌ. نحنُ مقتولونِ إيمانًا وعزَّةً وكرامةً. لا نُظهِره، إيماننا، فنتساءلُ، مأكولينِ خوفًا إلى حدِّ الرُّعبِ: هل نحنُ، حقًّا، مؤمنون؟ ما حدُّه، هذا الإيمانُ؟ ما نوعُه؟ ما صفاتُه؟ ما غايته، والرَّجاءُ؟

لِمَ ليس راسخًا فينا، يُقَوِّننا، يُسعدنا، يخلقُ أمامنا الآفاقَ الأكثرَ وساعةً؟ الإيمانُ، أساسًا، يَشُدُّ العزمَ، يُعطي الثَّقةَ، يمنحُ الرَّجاءَ، منه تنبثقُ أَهْليُّمُ السَّعادةِ، وأدغالُ الأشواقِ، فأينه فينا؟

وفي الزَّمانِ المناسبِ جئتَ. في «عزِّ الحَشْرَةِ» إليك. فنحنُ، مسيحيي لبنان والشرقِ، نُهَنِّئُنا بك. جذبتَ زماننا من بؤسه وبياسه، إلى بأسه وحيويته. معك، مذ إطلالتِكَ الأولى، وكانت مشرقةً مُنيرةً، كطلَّةِ الأنبياءِ، بدأنا مسيرةً إنجيليَّةً نحو الخلاصِ، خلاصنا وخلاصِ الأممِ كُلِّها. لا تُخلِّصُ أُمَّةً وحدها، أنت؛ أنتَ للجميعِ، في أيِّ مكانٍ، أيِّ زمانٍ.

وفي الوقتِ المستطعِ جئتَ. وقتنا، هذا، مَبْتورٌ، ناقصٌ. لا هو حاضرٌ حقيقيٌّ واعٍ، مدرِكٌ، مخطَّطٌ، ولا مستقبلٌ حقيقيٌّ ثابتٌ، راسخٌ، أكيدٌ، ولا هو ماضٍ منه نعرفُ، نستوحى، نستفيد. إنَّه زمانُ «اللازمان». عصاك الخشبيَّةُ، ستبني لنا زمانًا مميِّزًا ومميِّزًا.



سجياً فزرتوموني، وكنتُ جائعاً... وكنتُ عطشاًناً..» رائعة هذه البداية، وإن بدت «صادمة» لكثيرين! ننتظر التتمة. وإنك لمُقدِّم! «بابا» فرنسيس!

أعتقدُ بأنَّ غالب «رجال» الدِّين، عندنا، يلزمهم «إعادة تأهيل». فليقرأوا الإنجيل مجدداً. لقد نسوه. وليقرأوا رسائل مار يعقوب. وأعمال الرُّسل. و«العهد الجديد» كلّه. علّهم يُعيدون اكتشاف يسوع!

«عينك علينا»، بابا فرنسيس، فنحن في أمس الحاجة إلى فقرك الغني، إلى تواضعك الشامخ، إلى بساطتك السامية، إلى انفتاحك الخصب... إلى عناية حقيقية تأخذ بنا في طريق الترقّي... يجب أن نثبت في شرقنا هذا. هنا وُلد يسوع. هنا نشأ الدِّين. من هنا انتشر. وجودنا المميّز، هنا، يُميّز هذا الشرق، أفنخله؟!

أيها البابا فرنسيس الأوّل!

وفيك ما «كان» من زمان، في بطاركتنا ومطارنتنا ورهباننا وكهننتنا. ساعدنا في صلاتنا من أجلهم، ليعودوا كما الأوائل: بذاراً صالحاً، ما ينعكس على الرعيّة صلاحاً أعمّ. لن أطيل، بعد؛ إليك، قداسك، هذه الهمسة، لعلك تجهلها: لست أوّل من حمل صليباً خشبياً بين رجال الدِّين. بطاركتنا سبقوك. فقد كانت صليباً لهم من خشب، أما قلوبهم فكانت من ذهب! ألا ساعدنا/ساعدهم ليعودوا كما في هاتيك الأيام. والله يرعاك.

أنت جعلتنا ذوي دالةٍ عليك. تقربت فقربتنا. أحببتنا فأحببتنا. تنازلت فرفعتنا. مددت إلينا اليد، صافحتك، منا، القلوب. أما الآن، بابا فرنسيس! الآن، وقد «راحت السكره وإجت الفكرة»! ماذا بعد الآن؟!

إحذر، بعد الآن. قد يحاولون تطويقك، فتفقد حرّيتك المشرقة. قد يحاولون تدجينك، فتفقد ريادةك. قد يحاولون التقرب، فتفقد حياديّتك. قد يحاولون الإغراءات، التلميحات، التهديدات... فتفقد ذاتك، تعود لا تعرف نفسك، فتفقد كنيستك! ما لهذا جئت، أنت!

أحببتنا لأنك «بابا»، وتحديداً لأنك «بابا الفقراء»، بل بابا «الثورة» التي ستنبش في الكنيسة، وستغيّر ما يتضح واجب تغييره. وستقوم ما يقتضي تقويمه. وستنشئ ما يُفترض إنشاؤه. لا في «الفاتيكان» وحسب، إنّما في العالم كلّه: شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً. ولعلنا، نحن في الشرق، الألع ضرورة للعمل، التشجيع، التصويب... فقد باتت كنيستنا، إجمالاً، كنيسة مظاهر ووجاهات وزعامات وغنى وترف حتّى البطر؛ وبدت، إلا مع القلة النادرة من بعض رجال الدِّين، كنيسة الخلاص، خلاص النفس والجسد. رجال الدِّين الصالحون هؤلاء، هم من يجعلون أبواب معابدنا مشرعة أمام بقية المؤمنين. هم من أبقى عليهم، هؤلاء المؤمنون. وما إنك قد بدأت. تخليت عن مظاهر كثيرة، وزرت السجون، وأقمت فيها «الذبيحة» الإلهية، وهذا «فتح» جديد؛ وقد كان واجباً! كنتُ



د. ديزيره القرزي

الأزمات التي تمرّ بها الأسرة

هذا. هنا دور المعالج النفسيّ في إرشاد الأهل نحو مؤسسة ثلاثم الطفل، بعد إجراء الروائز والفحوص المناسبة عند الاختصاصي النفسيّ.

وتكون مشكلة الإعاقة، عادةً، على صعيد الذكاء والشخصية. ولكن، كيف يحدّد الذكاء وما هو فعلياً؟ إنه «يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالتأقلم الذي ليس إلّا التوازن بين الاستيعاب والملاءمة؛ بمعنى أوسع هو توازن في التبادل بين الأشخاص والأدوات».^(١)

إذاً، علينا، قبل كلّ شيء، بحسب بياجيه المتخصّص في دراسة الذكاء عند الطفل، تحديد الإعاقة التي يُعاني منها الطفل، وهل تقتصر على الذكاء أو تتطوّر على صعيد الشخصية بأكملها؟ هنا دور الاختصاصي النفسيّ في تحديد ذلك، على ما أشرنا، باستعماله مقاييس الذكاء المختصّة، وفقاً لعمر الطفل، ولنوع إعاقته.

ويتمّ تقدير نسبة الذكاء على الشكل الآتي^(٢):

- تقدّر الدرجة الخام التي حصل عليها الطفل في الاختبار.

- يُستخرج العمر العقليّ المقابل للدرجة الخام من جدول الأعمار العقلية.

- يُحسب العمر الزمنيّ للطفل بالشهور.

- تُحسب نسبة الذكاء بالمعادلة الآتية: نسبة الذكاء =

$\frac{\text{العمر العقليّ} \times 100}{\text{العمر الزمنيّ}}$

إنّ معدّل نسبة الذكاء مئة؛ وكلّ ما نقص عن ذلك يجعلنا نطرح مشكلة التراجع العقليّ عند الطفل. وإذا ما قلّ هذا المعدّل عن

١- مقدّمة: كثيرة هي المشاكل والأزمات التي تعترض طريق الأسرة في حياتها اليومية، من الزواج، حتّى ولادة الأطفال، ثمّ في خلال تربيتهم ومرضهم، ومشاكلهم الدراسية، أو العاطفية، أو غيرها... ويمرّ العمر لتصير هذه المشاكل عادية. ولكن ما العمل عندما تتولّد هذه المشاكل في حياتنا؟

٢- مشكلة الطفل الخديج: عندما يولد الطفل قبل أوانه، ويكون في خطر، وتلزمه عناية لوقت غير محدّد، تكون الأسرة في حالة ذعر خوفاً من موته، وما قد يصيبه من مشاكل جسدية تترك آثارها فيه مدى الحياة. وفي بعض الأحيان يلوم الرجل زوجته لكونها غير قادرة على حمل الطفل المدة اللازمة، وهنا يمكن أن تنشأ خلافات لا يستهان بها بين الشريكين.

٣- مشكلة الطفل ذي الاحتياجات الخاصة: في أحيان عديدة يولد الطفل مع إعاقة معيّنة، عقلية أو جسدية، تكون واضحة منذ الولادة، أو حتّى قبلها، كالتخلّف العقليّ mongolisme، أو حاملاً لصبغية ٢١ (Trisomie 21)، أو يكون أصمّ، أو أكمّ، أو أعمى... ويمكن للإعاقة ألا تُعرف قبل عمر الدراسة (٣ سنوات تقريباً)، وتكون دليلاً على تراجع في نسبة الذكاء لدى الطفل، ويكتشف هذا من خلال الروائز النفسية للذكاء التي يقوم بها الاختصاصي النفسيّ.

ولا شكّ في أنّ الإعاقة عند الطفل تعيق الأسرة بأكملها؛ فهو، ولو كان محبوباً، مختلفاً، وتربيته مختلفة أيضاً؛ فالمدرسة التي يقصدها ليست كمدرسة إخوته أحياناً، ومثلها النشاطات التي يقوم بها. ويجب أن يكون الأب والأمّ متفقيين ليستطيعا تخطّي

(١) J. Piaget, La psychologie d'intelligence, Paris: Armand Colin, 1967, p. 14

(٢) إجلال محمّد سري، إختبار ذكاء الأطفال، القاهرة، عالم الكتب، طبعة ثانية، ١٩٨٨، ص ١٤.

وغيره، فتترك آثاراً قوية في الأسرة. ويمكن، بفعل هذا، أن تشعر الأم بالآلم، والأب بالعجز، والإخوة بالذنب. هنا يكمن دور الاختصاصيين الاجتماعيين والنفسيين في مساعدة هذه الأسرة.

هـ - مشكلة الموت في الأسرة: إذا أدى مرض الطفل إلى موته، صار وضع الأسرة حرجاً جدياً، فالعلاقة بين الشريكين يمكن أن تدخلها البرودة والجفاء، وهذا ما يؤثر في الإخوة والأخوات الذين يمكن أن يشعروا بالذنب بسبب موت أخيهم. وفي هذه الحال، على الاختصاصيين النفسيين مساعدة الأسرة بأكملها لتخطي هذه الصدمة، والعودة إلى الاستقرار.

إن موت أحد أفراد الأسرة، سواء أكان الأم أم الأب، أو كان واحداً من الإخوة، أو الولد، موضوع يؤثر جداً في نفسية أفرادها. فموت الأب فقدان للحماية والسلطة، وموت الأم فقدان للرعاية والحنان، وموت الأخ فقدان للعضد والمشاركة؛ وهنا دور الاختصاصيين النفسيين ليساعد في تحمل ألم الفراق، بدل الانطواء على الذات والاكتماب. ومن شأن هذا الاختصاصيين المساعد أن يعين الأسرة على إيجاد آليات دفاع ملائمة تُخرج الفرد من قوقعته، ليجدد قدراته، بالرياضة والأنشطة الاجتماعية وغيرها... ما يمكن أن يساعده على الخروج من الشعور بالفراغ بفعل فقدانه عزيزاً عليه. وفي الحقيقة، يفرض الموت نفسه على الأسرة، فتشعر بأنها «تحت تأثير الخبرة الحقيقية التي تتطلب، قسراً، الافتراق عن الأداة التي لم تعد هنا»^(٧). ويبقى هذا الفراق صعباً ومؤلماً، بل يطبع كل أفراد الأسرة طوال الحياة. ولكن كل ولادة حرة جديدة، لا تتحقق إلا بموتٍ وافتراق، كما يقول فرويد: «إننا لا نستطيع حقيقة أن نحب أداة إلا إذا تخلينا عن امتلاكها، وتقبلنا أن نترك لها حريتها»^(٨).

٦ - مشكلة العنف في الأسرة: ماذا يفعل الاختصاصيين النفسيين حين يكون أمام أسرة يحكمها ويقهرها العنف المنزلي، المعنوي

الستين، فعلينا توجيه الطفل إلى مدرسة مختصة؛ وهنا تبدأ معاناة الأهل.

وعلى صعيد الشخصية، بإمكان الكثير من الروايات أن تساعد في التأقلم الاجتماعي: «كتمان السرّ، والحكم الصادق على الأمور، والقدرة على مقاومة العادات، وعلى الإدارة، والإقبال على الزواج، والقدرة على المساومة والنقاش، والشعور بالخطي والذنب تجاه الآخر، وحب السيطرة عليهم، وطبيعة الشخص بالنسبة إلى الآخر، وإرضاء النفس والآخرين، وتقبل النظام المروري...» وقد أعد هذا الاختبار الدكتور مدحت أبو النصر.^(٩)

من هنا يمكن أن نقول إن هناك إعاقات على صعيد الذكاء، وأخرى على صعيد الشخصية، وبالتالي يجب تحديدها للقدرة على مساعدة المعاق وأسرته، وتوجيههما نحو الطريق السليم؛ لكنّ العبء يبقى كبيراً على الأسرة. فنحن، كاختصاصيين نفسيين، نجد تعاسة كبيرة عند الأسرة التي فيها طفل يشكو إعاقة معينة. فهو يشغل أمه إلى درجة «أنها أمام الآخر، يكون نقص ولدها دائماً هو الموضوع بالنسبة إليها... لأنّ نقص طفلها يكشف لها نقصها هي»^(٤).

أمّا بالنسبة إلى الأب، فإنّ طفله المعاق يمثل صورة كاريكاتورية لعجزه ونقصه، ومجرد التفكير في ذلك غير محتمل بالنسبة إليه^(٥). إذاً، يشعر كل من الأب والأم، أمام إعاقة الطفل، بالنقص والذنب، وهذا ما يخلق مشاكل كبيرة داخل الأسرة، ولاسيما عند الإخوة والأخوات، لأنّ من أصعب الأشياء «مزاحمة شخص يتألم»^(٦). وهذا ما يوئد عدم توازن في الأسرة بين الأب والأم والإخوة، ويوجب متابعة المعاق وكل أفراد أسرته.

٤ - مشكلة الطفل المريض: إن تفاقم مرض الأطفال لافت في أيامنا هذه، على الرغم من اللقاحات التي تعطى له؛ فمن الممكن أن تعرف الأسرة بعض الأمراض الخفيفة، ولو بشيء من القسوة، لكنّها لا تترك آثاراً كبيرة. أمّا الأمراض المستعصية، كالسرطان

(٣) إسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي، اختبارات الذكاء والشخصية، القاهرة: مركز الاسكندرية للكتاب، ٢٠٠١، ص ١٩٩.

(٤) S. Freud, *La vie sexuelle*, Paris: P.U.F., 1997, p. 87

(٥) S. Tomkiewisz, *Relations du débile mentale avec sa famille*, in *confrontations psychiatriques*, Paris, no 10, 1973, p. 66

(٦) M. Poro, *L'enfant et les relations familiales*, Paris: P.U.F., 1963, p. 187

(٧) J.M. Quinodoz, *La solitude apprivoisée*, Paris: P.U.F., 1991, p. 74

(٨) *Ibid*, p. 57



الوصول إلى هذا الهدف، تصير الحياة المشتركة والجنسية، في بعض الأحيان، بلا هدف، وتفقد قيمتها.

يحتاج هذا الثنائي إلى دعم، ولاسيما إذا كانت المرأة هي سبب عدم إنجاب الأولاد بكونها عاقراً، فهنا يجب تقويتها ومساعدتها على استعادة ثقته بنفسها التي يمكن أن تضحل. ويمكن أن تستعيد المرأة العاقر ثقته بنفسها عن طريق إيجاد عمل تفجر من خلاله قدراتها، وتكتشف ذاتها مجدداً كشخص مثمر على الصعيد العملي والفكري.

إنّ السؤال الأساسي الذي نطرحه على كلّ امرأة لم تُنجب: «هل يمكنها أن تكون امرأة من غير أن تكون أمّاً؟» ولا بدّ من القول إنّ كلّ امرأة، سواء أكانت متزوجة أم لا، تمرّ بهذه الأزمة وبهذه التساؤلات. تسمى هذه الحالة في علم النفس بأزمة الأمومة الفارغة^(١٣). وهذا ما يجعل المرأة تشعر بالفراغ والنقص؛ وهنا، عليها أن تملأ هذا الفراغ بأشياء مفيدة، على الصعيد الفكري والاجتماعي والعاطفي، ما يجعلها تشعر بأنوتتها ووجودها تماماً. إنّ النساء اللواتي أُعطينَ نعمة إنجاب الأطفال كثيرات، وقليلات هنّ النساء اللواتي يخترن إنجاب الأفكار والأهداف لتحقيق ذواتهنّ، في مجتمع لا يقصدُ بالمرأة المستقيمة إلاّ المرأة التي تُنجب أطفالاً.

٨- خاتمة: يمكن أن تصادف الأسرة، في طور نموّها، كلّ المشاكل التي استعرضنا في هذا الفصل (وأخرى كثيرة سواها). المهمّ أن يصمد الأبوان أمامها، ويبقيا متحابين، متماسكين، ويحيطا أبناءهما الآخرين بالمحبة والتفهم، لأنّ هذا ما يُبقي الأسرة متماسكة، ويحافظ على وحدتها وتألّقها.

أو الجسديّ؟ هل يبقى مكتوف اليدين، إذا لم تكن القوانين التي تحمي الطفل والمرأة من هذا القهر فاعلة؟

في الواقع، إنّ الأسرة التي تسودها التوترات الانفعالية الشديدة، والهيّاج المستمر، ويتحكّم بها سوء العلاقة بين الأبوين، والخلاف على تربية الطفل، وتوتر الطفل كثيراً، وتوصله إلى نوبات من الغضب والبكاء والعناد^(٩)، وربّما العدوانية والتمركز حول الذات، وإلى أحلام اليقظة أيضاً^(١٠). فالعلاقة السيئة والمتوترة بين الوالدين وفي الأسرة تنتقل إلى الطفل الذي كثيراً ما يعمد إلى تقليد والديه.^(١١)

إنّ وجود الاختصاصي النفسي والاجتماعي الإيجابي يقوّي المرأة (فإيجاد عمل للمرأة، مثلاً، يضمن استقلاليتها، ويقوّي إرادتها) لتتمكّن من الدفاع عن حقوقها وحقوق أبنائها، ورفض الظلم والعنف.

ولا شكّ في أنّ العنف يتأتى من العنف، ومن تربية قاسية عاناها الأب أو الأمّ في أسرتهما. وقد قال فرويد، في كتابه عن الطفل هانز Hans مفسراً: «ليس الطفل هو الوحيد الذي عانى من وقتٍ إلى آخر في طفولته رهاباً. فمثل هذه الأمراض شائعة جداً، حتّى بين الأطفال الذين لا تترك تربيتهم الصارمة مجالاً لأخذ مأخذٍ عليها... والأطفال المشار إليهم يصيرون فيما بعد عصائين بدرجة طفيفة، أو يبقون أصحاء معافين. والرهابات التي يعانون منها تُخرس وتكمّم... في الحضانة، لأنّها مستعصية على العلاج، وفي الوقت نفسه مزعجة جداً بكلّ تأكيد، وتظهر فيما بعد بأشكال كثيرة وأمراض متفرقة».^(١٢)

إذا تمكّن الاختصاصي النفسي من لفت الأهل إلى خطورة ممارستهم العنف، الذي ربّما قد مورس عليهم في طفولتهم، يمكن أن يساعد الأسرة في الإفلات من أمراض نفسية كثيرة.

٧- مشكلة العقم عند الثنائي الزوجي: أهمّ أهداف الزواج بناء أسرة، وإنجاب الأطفال. وعندما يعجز أحد الشريكين عن

(٩) وفيق صفوت مختار، مشكلات الأطفال السلوكية، القاهرة: دار العلم والثقافة، ط ١، ١٩٩٩، ص ٣٩ - ٤٠.

(١٠) المرجع نفسه، ص ٣٩.

(١١) المرجع نفسه، ص ٤٢.

(١٢) سيفموند فرويد، التحليل النفسي لرهاب الأطفال، (هانز الصغير)، ترجمة جورج طرايشي، بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ١٩٨٤، ص

١٥٧.

(١٣) Catherine Bergeret-Ameselek, Le mystère des mères, p. 148

منطقة اليورو في خصائصها ومستقبلها



د. لويس حبيقة

بعيحت أصبحت السوق فعلاً واحدة. كانت التواريخ مختلفة، علماً أن ألمانيا كانت دائماً الرائدة، ولم يكن هنالك مجال يوماً لخلق وحدة أوروبية أو وحدة نقدية من دونها.

هل كان خلق الوحدة النقدية الأوروبية في محلّه؟ ما هي التكلفة والمنافع؟ لماذا حصلت الأزمة التي تمّ تجاوزها بذلك؟ وجهد من دون أن تكون الوحدة قد تعافت تماماً؟ في أبرز بنود التكلفة، نذكر أن الوحدة النقدية تُفقد الدول الأعضاء سياستها النقدية الوطنية، وتجعلها تخضع في هذا المجال لأوامر السلطة المركزية أي لفرانكفورت. تخسر الدول المنضمة إلى الوحدة إمكانية تعديل سعر صرف نقدها لتنشيط الصادرات ومعالجة وضع ميزان المدفوعات. لو كان لليونان مثلاً نقدها الوطني، لسقطت عملتها وبالتالي خفّت مشاكلها، من دون أن ننكر أن هذا يعني تقفير الشعب لمصلحة الاستقرار الاقتصادي. عندما يكون لكلّ دولة نقدها، تتحمّل بطرق مختلفة أيّ خضّة آتية من الخارج بحيث يتحرّك النقد لامتصاص الخلل. في الوحدة النقدية، تنعكس الخضّة مباشرة على الأسعار والأجور، بحيث يكون الوجود أكبر، خاصة على المواطن العادي. في الدول التي تعتمد نقداً وطنياً، يعكس سعر الصرف الأوضاع الداخلية من إنتاجية وتنافسية، بينما تخسر هذه الحيوية تلك التي تعتمد نقداً مشتركاً.

في المناطق المندمجة بعمق تحت نقد واحد كالولايات المتحدة، يتجمّع الانتاج في مناطق محدّدة للاستفادة من عامل «وفورات الحجم»، بينما يتوزّع بشكل أفضل في المناطق ذات الاندماج الخفيف نسبياً كأوروبا. في صناعة السيارات الأميركية مثلاً: ٦٦,٣٪ من الانتاج يقع في الوسط الغربي، و٢٥,٤٪ في الجنوب، بينما لا يحصل الغرب الأميركي إلا على ٥,١٪ والبقية في شمال الشرق. أمّا في أوروبا، فيقع ٣٨,٥٪ من إنتاج السيارات في ألمانيا، و٣١,١٪ في فرنسا، و١٧,٦٪ في إيطاليا، والباقي موزّع. كما أن

تحققت منطقة اليورو بعد عقود من الجهود التي قادها قياديون كبار أمثال ديغول وأديناور وغيرهما. وإن كان مشروع اقتصادي. فوائد ومساوي، فإنّ المهمّ أن تأتي النتيجة النهائية إيجابية. تمرّ المنطقة منذ سنة ٢٠٠٨ بأزمة كبيرة كادت أن تطيح بالنقد المشترك، وتتسبّب بانفراطها، أي عودة عقود إلى الوراء. أدركت القيادات الأوروبية عمق المخاطر وعملت جاهدة على تخفيف الخسائر ونجحت. كانت السياسات المالية سخية، ليس فقط ضمن بعض الدول، إنّما فيما بينها. وساهمت سياسة الإقراض في تجنّب كارثة أكبر في اليونان وإسبانيا وغيرهما. كانت السياسة النقدية للمصرف المركزي المشترك ذكية، إذ ضخّت الكتلة النقدية الإضافية لتوفير السيولة للمصارف، وعبرها للأفراد والشركات. ساهمت القروض الدولية عبر صندوق النقد والوحدة الأوروبية كما من بعض الدول الأعضاء في تجنّب كارثة في اليونان وغيرها. شاركت المصارف في الإنقاذ، إذ ألغت قسماً كبيراً من الديون التي وفّرتها لبعض الدول وفي مقدمها اليونان. خلاصة ما حصل، إنّنا لم نعد نتكلّم اليوم عن استمرارية اليورو ومنطقته. فالجميع مقتنع أنّ اليورو سيستمرّ والمنطقة ستبقى، بل أنّ سعر صرفه يتحسنّ بخطى ثابتة وسريعة تجاه الدولار الأميركي.

ما هي السياسات الأساسية التي اعتمدها دول مجموعة اليورو السبع عشرة، وساهمت في خلقها وفي استمراريتها؟ ألغت الدول القيود على تحرّك رؤوس الأموال فيما بينها، وحتّى مع الخارج. قامت بها في أوقات مختلفة تبعاً لأوضاعها وجهوزيتها الداخلية. في التواريخ، ألغت فرنسا هذه القيود في سنة ١٩٩٠، وألمانيا في سنة ١٩٦٧، واليونان في سنة ١٩٩٤، وإسبانيا والبرتغال في سنة ١٩٩٢. حرّرت الدول الأعضاء سياسة الفوائد لديها كي تعكس الفائدة سوق المال، وكان ذلك في سنة ١٩٩٠ في فرنسا وبلجيكا وإيطاليا، و١٩٨١ في ألمانيا، و١٩٩٢ في كلّ من إسبانيا والبرتغال. شاركت الدول الأعضاء في تطبيق سياسات مصرفية مشتركة



ناضجة. ارتفعت تكلفة الانتاج وانخفضت الصادرات كما انهارت ميزانيات الحساب الجاري. بين سنتي ٢٠٠١ و ٢٠١١ ارتفعت تكلفة العمل بنسبة ٣٣,٢٪ في اليونان، و ٣٠,٧٪ في إيطاليا، و ٢٦,٦٪ في إسبانيا، و ٢٠٪ في أيرلندا مقارنة ب ١١,٥٪ في الولايات المتحدة و ٠,٩٪ في ألمانيا.

ثالثاً: عندما حصل الركود الدولي، زادت المشاكل حدة، خاصة عندما انهارت أسعار الأصول، وفي مقدمها العقارات، وبدأت الإفلاسات المصرفية الخطيرة. ارتفعت نسب الدين العام إلى حدود لم تشهدا هذه الدول من قبل، واضطرت إلى ترشيد إنفاقها في ظروف ركود، مما عمق الأزمة وسبب الاضطرابات الشعبية والاجتماعية. في ألمانيا التي تتمتع باقتصاد قوي وإنتاجية وتنافسية مرتفعة، نجحت الدولة كما القطاع الخاص في إبقاء الأجور كما هي، أي ضببت التكلفة، فاستمر النهوض ونشطت الصادرات إلى دول الأطراف. في هذه الفترة من وجود اليورو، تعمقت الفوارق بين الدول، وكان ممكناً أصلاً التخفيف من سرعة الانضمام إلى الوحدة أو جعلها مجموعتين في البداية حتى تتقارب أكثر الأوضاع.

تحتاج كل وحدة نقدية إلى سنوات من الجهد كي يستفيد كل أعضائها من القوة المشتركة. اليوم، أوروبا أنقذت نفسها وجمعت قواها وعاد النمو، وإن يكن بنسب خفيفة. إذا استمرت الدول في العمل المشترك الشاق المبني على الرغبة في الوحدة، ستعرف أوروبا في العقد الحالي ازدهاراً نموذجياً لم تعرفه أي من دولها من قبل.

هنالك دولاً تتخصّص في صناعات معينة تبعاً للموارد الأولية التي تحتوي عليها.

أمّا المنافع، فهي كبيرة وتبدأ في تخفيض تكلفة التبادل المالي التي كان يفرضها التحويل بين العملات المختلفة. اعتماد نقد واحد يخفّف تكلفة التجارة، ويوحّد الأسعار مع الوقت بين الدول، ويساهم في نشر التنمية بطريقة أكثر عدالة. النقد الموحد يسهّل الاستثمارات بحيث تزول مخاطر تغيير أسعار الصرف التي يخشى منها دائماً قطاع الأعمال. يشجّع النقد الواحد على انتقال العمّال بين المناطق تبعاً للعرض والطلب. تزداد شفافية الأسعار إذ تسهّل مقارنتها بين الدول المجاورة. إنّ اعتماد نقد موحد لمجموعة قوية كأوروبا يساهم في جعل اليورو نقداً دولياً بامتياز ينافس الدولار على الصدارة كاحتياطي وكوسيلة للتبادلين التجاري والمالي. أخيراً، إنّ قسماً كبيراً من التجارة الدولية الأوروبية تحصل فيما بين دول المنطقة، وتصل هذه النسبة إلى النصف في أيرلندا وبلجيكا، ٤٠٪ في هولندا ونسب أقل في الدول الكبيرة.

ساهم اعتماد اليورو في تحقيق تغييرات كبيرة وهيكلية في الدول الأعضاء. في مقارنة التكلفة بالمنافع، تكون الأخيرة أكبر في الدول المنفتحة اقتصادياً أكثر. إنّ الدول الكبيرة تستفيد أكثر في البداية، إذ تكون جاهزة لتوسّع الأسواق الخارجية مع نقد موحد. أمّا الدول الأقل غنى، فلا بد أن تتعرّض أوضاعها في البداية لتستفيد فيما بعد مع تحسّن إنتاجيتها كما أوضاعها التنافسية. ما الذي حصل تحديداً في الوحدة النقدية الأوروبية، ولماذا وصلت إلى حدود التفكك والانهيار؟

أولاً: توحدت الفوائد نتيجة السياسة النقدية الواحدة لنقد مشترك، أي عملياً انخفضت الفوائد في دول الأطراف كإسبانيا واليونان لتعادل فوائد دول الوسط أو النواة كألمانيا وفرنسا. انتقلت رؤوس الأموال بسرعة وبكميات كبيرة من دول الوسط إلى الأطراف للاستثمار والاستهلاك كما لشراء العقارات مستفيدة من قروض بفوائد متدنية وفرتها المصارف.

ثانياً: ارتفعت الإيرادات الضريبية في دول الأطراف، كما سخت حكوماتها في الانفاق محدثةً عجزاً مالياً لا سابق له. في سنة ٢٠٠٩، وصل عجز الموازنة من الناتج إلى ١٥,٦٪ في اليونان، و ١٤ في أيرلندا، و ١٠,٢٪ في البرتغال، و ١١,٢٪ في إسبانيا. اعتماد اليورو في دول الأطراف ضرب تنافسيتها في المرحلة الأولى، أي: نقد قوي مشترك في اقتصادات ذات هيكلية ضعيفة وغير



جان كميد

كسروان عبر جيل من الأدباء والشعراء

ومن هؤلاء أيضاً المحامي الشاعر نادر صفيير من القليعات، الذي أمضى جزءاً كبيراً من حياته في مناصب قضائية خارج لبنان، إذ كان الفرنسيون يعينونه تارةً في تونس وطوراً في سوريا، ولما عاد إلى لبنان في سنّ متقدمة تعاطى المحاماة دون أن يتسنّى له الكثير من التألق والبروز، مع أنه كان صاحب دراسات قانونية تضعه في مرتبة علماء هذه المادّة.. فضلاً عن شاعريته.

هل ترك من ذكرنا، أو بعضهم، دواوين أو مؤلفات؟ المؤسف أنّ المخطوط من آثارهم أوفر من المطبوع. فلبولس مراد جملة كتب، في طليعتها ديوانه الشعريّ، كانت في عهدة نجله مراد، وهو خطيب وعامل كبير في الحقل العامّ بالمنطقة، وقد مات ولم نعرف مصير هذه المخطوطات من بعده. ولفيليب كميد ديوان أيضاً، ومسرحيات شعريّة ونثريّة موضوعة ومترجمة وقصائد عديدة خارج الديوان. لكنّ الملفت للنظر في الثلاثي المؤلف من كميد ومراد وابراهيم بركات أنّ كلاً منهم عشق شخصيّة من الشخصيات الفدّة في زمنه فخصّها بكتاب شعريّ أو نثريّ. فالكتاب الوحيد المطبوع لفيليب كميد هو «طُرف المحاسن في تهنئة سيادة الأباتي لويس الخازن». والأباتي المذكور هو المطران يوسف الخازن من بعد، ابن ساحل علما.. وبالنسبة لمواطن فيليب كميد الذي كان يعتزّ بمنّ أطلعت بلدته من ملائمة وأخبار تبوّأوا المناصب الكنسيّة الرفيعة حتّى وصل أحدهم إلى السدّة البطريركية. وهذا الكتاب يضمّ مجموعة القصائد التي قيلت في تهنئة الحبر الخازنيّ عندما تسنّم كرسيّ الرئاسة العامّة للرهبانية الحلبية المارونية (الرهبانية المريمية اليوم)، وبينها عدّة قصائد لجامع الكتاب نفسه، وإحداها لشقيقته مرتا كميد.

أمّا الأثر الوحيد المطبوع لابراهيم بركات فهو «معلّقة شعريّة» تنوف على المئتي بيت، موجّهة إلى الصحافيّ اللبنانيّ الكبير في مصر داود بركات نسيب الشاعر. فقد كان اعتزاز ابراهيم بداود بالغا، كيف لا وقد كان أعظم محلّل سياسيّ يكتب باللغة العربيّة في

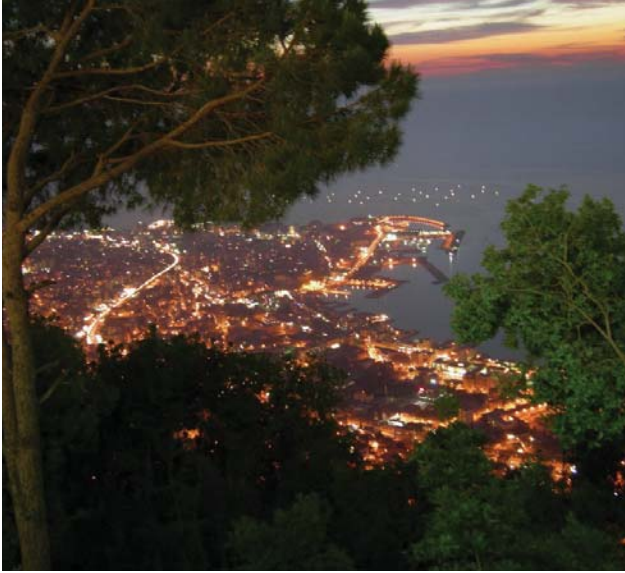
كالحلم، أو كشريط الذكريات البعيدة، تتراعى لي تلك الفترة. جميلة هي.. بمقدار ما تختلف عن أيامنا هذه، أي بمقدار ما كانت فترة صفاء في الأجواء، وفي النفوس.

الشعر، والخطابة، ومنمّق الكلام كانت تبسط ظلّها على المجالس والحلقات، وحتّى على المرافعات القضائية، فكان «أرجل» المحامين من تدفّق بيانا أمام قوس المحكمة، وشفع مرافعته بالشواهد من أبيات الشعر والأمثال.

في المحيط اللبنانيّ الواسع كان هناك، من هؤلاء المحامين، جبرائيل نصّار ويوسف السودا ويوسف جرمانوس وجورج يزبك وفؤاد الخوري وإميل لحدود، وفي محيط جونيه وكسروان كان لدينا فيليب كميد وبولس مراد وابراهيم بركات «المشروقي» الذي تعاطى الصحافة في مصر زمناً ثمّ أبّ إلى لبنان يتابع فيه رسالة الصحافة والشعر والمحاماة.

أمّا مراد أبو نادر، الجزينيّ الذي اتّخذ من جونيه مقاماً نهائياً له، فقد منعه صفة القاضي أولاً من إظهار قدرته في مجال مزج القانون بالبلاغة، إذ كان عليه أن يلفظ الأحكام لا أن يلقي المرافعات، ولكنّه عندما تقاعد فتح مكتب محاماة وعادت العبارات المسبوكة ذهباً تطوف على لسانه وشفتيه.

هذا الرباعيّ من «أدباء المحاكم» كما كانوا يسمّونهم، كان وحده المعروف في نطاق جونيه وجوارها، إنّما كان هناك عدد آخر مماثل في القرى الكسروانية المختلفة، أبرزهم القاضي الشاعر بولس زين من غزير، الذي كان وضعه في القضاء يشبه وضع مراد أبي نادر، إنّما لم يحلّ ذلك دون أن يتحلّب المقاطع الشعريّة المتينة والعذبة في آن عندما يخلو إلى نفسه مرتاحاً من هموم المنصب القضائيّ وأعبائه. وقد نشأ ولده أنطون زين على غراره، فإذا به شاعر يكتب الشعر لنفسه لا للآخرين، مُفنيًا عمره في وظيفته المتواضعة بسرّاي جونيه، وقد قضى نحبه منذ أعوام.



الأب بولس عبّود الغوسطاويّ أحد أئمّة رجال التاريخ في تلك الحقبة من نهضتنا الأدبيّة والعلميّة، والعلامة الأب جبرائيل القرداحي من فيطرون.

ومن رواد جونية آنذاك، نظرًا للقربى التي كانت تربطه بفيليب كמיד، العلامة الأب أنطون يمينّ الشبّابي واضع قاموس الحقوقيّ وقاموس التجارة ومعجم مثلث اللغات: عربيّ- فرنسيّ- إنكليزيّ. فقد كان يؤمّ بيت قريبه في جونية بصورة متواصلة، فيوافيه إليه قادرو علمه والمحتاجون إلى آرائه وفتاواه في الدعاوى الكنسيّة وغيرها. وهناك أيضًا الشاعران الأبوان لويس وفرنسيس زوين، والأوّل كان يوقّع قصائده مذيلاً إيّاها بعبارة «أحد أساتذة مدرسة غزير».

إلى جانب هذه النخبة الرفيعة من رجال الدين الأعلام كان هناك كهنة آخرون يقرضون الشعر أو يُقننون علوم اللغة بدرجة محترمة، كالأب الشاعر يوسف الحاج من دلبتا، والأب يوسف منصور من عجلتون، فضلاً عن آباء «الرسالة اللبنايّة»، والمدرّسين في معهد الأخوة المريميّين من كسروانيّين كالأب لويس ريشا وغير الكسروانيّين كالأب شكرالله عطالله. فهل يتصدّى غيارى على التراث الأدبيّ والعلميّ في هذه المنطقة لإحياء ذكرى هؤلاء الكبار الغابرين من أبنائها وساكنيها والتنقيب عن آثارهم ونشرها؟ هذه هي الخدمة الحقيقيّة التي تؤدّي لكسروان فيما لو تحقّقت، وهو ما نأمل، وما هو واجب علينا جميعاً.

عصره، ورئيس تحرير جريدة «الأهرام» الملقّب بشيخ الصحافة العربيّة. وابراهيم عمل معه مدّة في حقل الصحافة عندما كان في مصر، فكان من الطبيعيّ أن تدفع صلة النسب هذا الأخير إلى تخليد ذكر ابن عائلته وسليل الدوحة المشروقيّة ومواطنه اليحشوشيّ بهذه المطوّلة الشعريّة المنشورة في كتّيب خاصّ.

يبقى أثر مخطوط لا مطبوع، دبّجه يراع بولس مراد عن السياسيّ اليونانيّ الداهية فنزيلوس، الذي عرفه المؤلّف شخصيّاً أثناء وجوده في اليونان وعمل معه سحابةً من الزمن. وهذا الأثر هو عبارة عن دراسة لا عن كتاب شعريّ، وكم يشوقنا أن نراه مطبوعاً لأنّه يتناول شخصيّة وحياة وجهاد أحد بُناة اليونان الحديثة. لكنّ الحياة الأدبيّة في ذلك العهد لم تقتصر على المحامين، إذ عرفت جونية شعراء من وزنهم من غير محترفي المحاماة ولو لم يكونوا بعيدين عنها في عملهم، وطلّعتهم يعقوب فيّاض الذي كان لولب بلديّة جونية طوال أربعين عامًا، والذي اشتهر بالشعر والخطّ وإتقان حساب الدوبياء ومسك الدفاتر اللذين كان يلقنهما للراغبين، كما اشتهر على الأخصّ بحلّه العُقد في قضية توزيع الحصص الإرثيّة عندما تتشابك درجات القرابة حتّى ليَشكُل الأمر على الفقهاء ورجال الشّرع، فيأتيه المختصّون بذلك يستفتونه ويأخذون منه الرأى الجامع المانع.

وهناك أيضًا سمّيّ ليعقوب فيّاض وصنوّ في الشعر، هو يعقوب صفير شقيق نادر صفير الذي أتينا على ذكره، وقد سمعته مرّة يلقي قصيدة في رثاء الأب نعمة الله مبارك الرئيس العامّ للمرسلين اللبنايين، كما سمعت يعقوب فيّاض يرثي الشيخ يوسف الخازن بقصيدة خلال حفلة تذكاريّة كان من خطبائها موسى نمور وأمين نخلة وغيرهما من سادة الكلمة، ومع ذلك ظلّ لقصيدة فيّاض وقعها ورونتها.

هؤلاء كانوا فرسان الساحة الأدبيّة في جونية، إنّما كان هناك، بعيداً عن السراي والبلديّة، كهنة أعلام اختصّوا باللغة أو بالتاريخ فضلاً عن العلوم الدينيّة، وكانوا كلّهم أيضًا شعراء: الأب بطرس باسيل من معراب، الواضع الحقيقيّ لمعجم «المنجد» بشهادة المغفور له المطران بولس عقل التي سمعناها من فمه شخصيّاً، وهو صاحب مسرحيّات شعريّة كانت تُمثّل إذ ذاك، والأب يوسف الصايغ من حيّاطة اللغويّ المشهور، وهو أيضًا صاحب مسرحيّات شعريّة، وضيعه في اللغة الأب يوسف عون من الزعيترة، والأب بولس (أو بطرس) منصور من بطحا وهو شاعر، والمؤرّخ الشهير

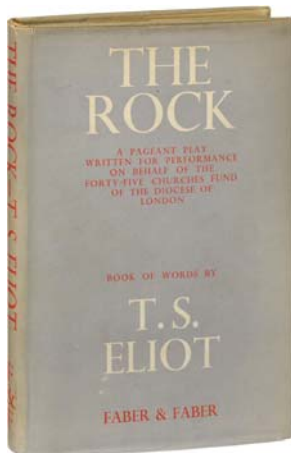
القصيدة الإنكليزية الحديثة في القرن العشرين



د. ديزيره سقال

التي سبقت ظهور أدولف هتلر والنازية، وتعرّفوا إلى نتاج شاعرية نمساويين كبار هما ريلكه وهوفمنشتال، بالإضافة إلى تأثرهم بشاعر كبير آخر من القرن الثامن عشر هو هولدرلن. وقد عكسوا في شعرهم، بحدة، نمط الحياة المعاصرة المرّ (أودن)، والحزن العميق الناتج عن همّ العصر (سبندر)، والضياع الاجتماعي والسياسي (لويس)، وعبثيات اللحظة الحاضرة (مكنيس). على أنّ السخرية المفجعة لم تكن بعيدة عن نتاج شعراء جدد ما لبثوا أن نالوا شهرة في الثلاثينات، ومنهم كينيث فيرينغ. وقد استمرّ الاتجاه الكلاسيكي في النموّ مع أرشيبالد مكليش الذي تغدّى شعره من الروافد الفرنسيّة والإنكليزية معاً، وظهر هذا في مطوّله «كونكويستادور» Conquistador التي نرى فيها ملامح لاتجاهات كلّ من عزرا باوند وسان جون بيرس وإليوت وهوبكنز وويلفرد. لقد آمن مكليش بالعدالة الاجتماعية، وتطوّر شعره السياسي شيئاً فشيئاً، حتّى ظهرت قناعاته الاجتماعية والسياسية في مؤلّفه «الخطاب العام» Public Speech.

٣- الحسرة الدينيّة في الشعر/ ردّة يوتوبيّة



وتجلّت الحسرة الدينيّة بوضوح عند عدد من الشعراء، أبرزهم ت. س. إليوت الذي عبّر بوضوح عن هذه الناحية في قصائده التي كتبها بعد مطوّله «أربعاء الرماد» Ash -Wednesday، أبرزها «الجوقة» The Rock (1934). وقد وجد هذا الشاعر في الاتجاه الدينيّ عزاءه وأمله وسط عالم يعصف به القمع

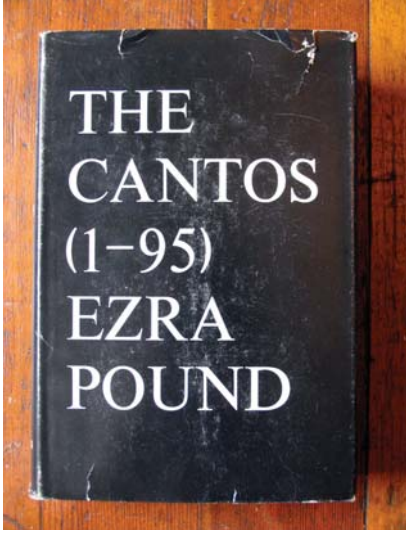
١- نحو رؤيا أخرى للوجود

كان الشعر الإنكليزيّ (ونعني به الشعر الغربيّ المكتوب باللغة الإنكليزية)، في أوائل القرن العشرين، قد اتّسم، عموماً، بالنزعة الفيتوتورية، ولكنّه أخذ يتّجه شيئاً فشيئاً نحو إيجاد صورة مقبولة للعالم، تحاول أن تجد وسيلة، كما تقول الناقدة لويس بوغان، لبلوغ حقيقة عاطفيّة وعقليّة لا تستطيع أن تشوّهها الأحكام الدوغماتيّة أو العقديّة، ولا الأحكام المسبقة التي تشوّه الأمور. من هنا، كانت بداية نزعة الحدّثة بداية من حطام الماضي، إذا صحّ التعبير، باتّجاه رؤيا أخرى للوجود، رؤيا إنسان صقلته الماديّة، وأدماه إفلاس الإنسانيّة.

هكذا اتّسم النتاج الغربيّ الحديث بالحدّثة المأسويّة. وكانت رؤياه تلتقي، خصوصاً، في خانة الدراميّة الحادّة الموجهة، حتّى في سخريّتها، كما هي الحال مع الشاعر و. هـ. أودن. وقد ركّز هؤلاء، كما فعل ت. س. إليوت وهارت كرين وغيرهما، على تحليل هموم النفس الحديثة ويأسها وضياعها. ولكنّ التركيز على هذا الموضوع كان سمة شعر العصر، بصورة عامّة، حتّى في أكبر قصيدة في هذا الشأن، عنيت مطوّلة إليوت «الأرض الخراب» The Waste Land.

٢- نزعات واتجاهات مختلفة

وقد شكّنت السرياليّة طريقها إلى نصوص الشعر الإنكليزيّ، منذ نشأتها على يد روادها في فرنسة خصوصاً، بعد الدادائيّة. كما تسرّبت الآراء الماركسيّة إلى هذا الشعر، وكان أوّل ظهورها في إنكلترا في نتاج كلّ من أودن، وستيفان سبندر، وس. إي. لويس. وقد نمّى هذه الآراء انتشار البطالة والتعاسة في إنكلترا ما بعد الحرب العالميّة الأولى. فهؤلاء الشعراء المذكورون رأوا أنّ الأزمة سببها عناصر شهدوها منذ طفولتهم: عناصر التبذير والتحلّل في المجتمعات المجاورة. وكان بعضهم قد عرف أمانية في المرحلة



بل مفهومه النيتشويّ، أي قتل الضعف وإبعاده عن المجتمع، وإسقاط كلّ القيم التي نُسبت إلى مفهوم الخير عبر التاريخ وهدفها تدعيم الضعف في العالم، بما فيها القيم الدينيّة المسيحيّة على وجه الخصوص. وهذا الأمر ارتبط عند باوند بالمال وبعادة الديكتاتورية. لقد آمن هذا الشاعر بأنّ الإنسان يمكن أن يكون الله، كما فعل نيّشه تمامًا في مؤلّفاته الفلسفيّة.

٥- خلاصة/ غلبة الهمّ الحضاريّ

هكذا عرف الشعر الإنكليزيّ تحوّلًا من الألام الرومنطيقية التي سيطرت على العصر الفيكتوريّ إلى البحث عن حلّ لأزمة الإنسان مع الواقع في عالمه الحديث. وقد كثرت الاتجاهات، كما رأينا، وتوّعت الآراء، وبعضها متناقض. ولكنّ الهمّ الحضاريّ، ومشكلة سيطرة البوار على الحياة الإنسانيّة كانت النقطة الأساسيّة التي ركّز عليها الشعر الإنكليزيّ في هذه المرحلة؛ فهّمّ الحداثة الرئيس يقوم على ما يمكن أن نسميه «أزمة الضمير التعسّ» - وهذا الضمير التعسّ الغربيّ مرده أنّ الإنسان فقد إنسانيّته في الغرب، وصار سلعة وآلة ليس لها إلاّ دور إنتاجيّ في المجتمع الصناعيّ.

والسلطة المبكيّة. كذلك بالنسبة إلى أودن الذي اتّجه نحو منظور دينيّ يواجه به هو أيضًا بوار العالم وعقمه الروحيّ، ولا سيّما في «رحلة إلى حرب» Journey to a War. ولكنّ هذا لم يدفعه إلى التخلّي عن عقيدته الماركسيّة. ونحت إيديث سيتويل هذا المنحى وبحدّة سوداويّة متشائمة، تنمى بها جفاف الروح في العالم الحديث. وقد واكبت هذه الروح الدينيّة روح وعظيمة تمثّلت بتيّار أيفور وينترز ومدرسته الكاليفورنيّة، وبمنحى جماليّ مثله والاس ستيفنز، وبمنحى اجتماعيّ كان على رأسه وليامز كارلوس وليامز.

إلى جانب هؤلاء أخذت ماريان مور تعالج في شعرها المشاكل الاجتماعيّة الإنسانيّة برؤيا بريئة للأشياء. وقد أفاد الشعر الإنكليويّ كثيرًا من التطوّر الأسلوبيّ الذي عرفه هذا القرن، وخصوصًا الاتّجاه التصويريّ، فبات يستوعب كلّ الاتجاهات بلا صعوبة.

٤- نزعة القوّة/ عزرا باوند ونيّشه

في الأربعينات تجلّت بوضوح أفكار عزرا باوند في ديوانه «أغان» Cantos حيث نجدنا أمام فكر نيّشويّ جديد يناقض المفهوم المسيحيّ والليبراليّ، ويمجّد القوّة تمجيدًا مطلقًا. فقد طمح باوند إلى خلق دولة ثابتة وقويّة، على رأسها «القائد النبيل». وهجر مفهوم الخير ليجد نفسه ممجّدًا مفهوم العداويّة والشرّ؛ ولكن ليس المراد بالشرّ مفهومه التقليديّ،





د. أنطوان يوسف صفيير

دفاعاً عن الكيان... لا تآزراً من النظام

خواطر في الحكم والحكام

عندما تلتبس الأمور في ذهن الفرد أو الجماعة، وتمتزج المفاهيم، فيختلط الغث بالثمين والحقّ بالباطل والنور بالظلمة والأنا بالغير، وصالح الفرد بالصالح العام..

غداة لا فصل بين القانون وحاميه، وبين الحاكم والسلطة المعطاة له، وبين الدولة والنظام، فأَيّ وطن نرجو وأيّ كيان نحن مؤتمنون على مصيره؟..

في ثوابت التاريخ السياسي عند الشعوب، أقربها وأبعدها، أرقاها وأدناها، أن ما من مرّة تماهى شخص الحاكم بشخصية الدولة، حتّى حسب أنه الدولة والدولة هو.. وما من مرّة ركب الحكام رؤوسهم فخلطوا بين مفهوم الدولة ومفهوم النظام، فقام في اعتقادهم أن نظامهم القائم في عهد، هو الدولة، وأنهم بدفاعهم المستमित عن نظامهم يدافعون عن الدولة... ما من مرّة حدث ذلك، إلا وكانت بدايات الإنحطاط والجاهلية الجديدة. الدولة هي هذا المعطى الثابت الذي تتنظم الجماعة في أطره، ويحكمه دستوراً وأنظمة وقوانين. أمّا النظام فهو ذلك الجسم الآلية المتحرك الذي تتمظهر فيه سياسة الحاكم القابض على السلطة ومنهجيته في فترة حكم يبقى- طال أم قصر- في حكم المتغيّر والظرفيّ الزائل.

فالدولة غير النظام. تلك لها صفة التسامي والديمومة، وهذا إلى تبدل وتغيير. في كلّ عهد يخضع النظام لشتى التغييرات والتطورات، وربما الانقلابات. إنّما الدولة الموقّعة تبقى هي في كينونتها ودستورها وأنظمتها.

منذ بداية عهود الإستبداد في الشرق، قديماً... قديماً تطبّع العقل وتقولبت الذهنية على قبول أو تقبل حالة الخلط بين الدولة والنظام القائم وبين شخصية الدولة وشخص الحاكم السلطان، ذاك أنّ الحاكم الضعيف المستبد أو القويّ الظالم ينبري يدافع عن نظام عهده بحجّة الدفاع عن الدولة. فيرسخ في قناعات الناس وفي اللاوعي من وجدانهم أنّ دولتهم هي في الضرورة هذا النظام القائم بشخص حكامه، وإذا بالشعب يحض ولاءه للحكام في الوقت الذي يعتقد أنّه يوالي الدولة... الولاء غير الموالية.

الولاء يكون للدولة وللوطن. أمّا الموالية أو المعارضة فهي للنظام القائم أو الحاكم. وهذا حق مقدّس في الممارسات الديمقراطية. من هنا، فإنّ الشعب، بوحى من ولاءه المطلق، للوطن يسلك سبيل المعارضة، لأنّ الولاء الصحيح والسليم يعني ليس فقط الموالية للنظام أو التبعيّة له- إذا استقام، وحسب، بل واجب المعارضة أيضاً إذا تعسّف أو جبن أو انحرف في متاهات الغلو والغرور بالنفس.

قصة



عسل بلدي



شربل شربل

- تصوّري أنّ النحل، وبوساطة الغذاء الملكي، قادر على «صنع» ملكة من بيضة عادية، أجل عادية!
- أنا أعرف ذلك. ما الغريب في الموضوع؟
- قد لا يكون في الأمر غرابة، ولكنّ فيه خطورة.
- ماذا تعني؟
- يقول «ألكسي كاريل» صاحب الكتاب «الإنسان ذلك المجهول»، ما معناه أنّ البشر لو استطاعوا أن يجدوا غذاء ملكياً يستطيع الطفل البشريّ تناوله، من دون آثار جانبية، لخلقنا جيلاً من العمالقة (سوبرمان). وحقّته في ذلك ما يحصل في عالم النحل. فالملكة التي «يصنعونها» تستطيع العيش حوالي ثلاث سنوات في حين لا تتجاوز النحلة العادية ثلاثة أشهر، وفي موسم الربيع حيث يطول النهار ويكثر العمل قد لا تعمّر أكثر من ثلاثة أسابيع. ما يعني أنّ عمرها يطول أكثر من عشرة أضعاف عمر إختوتها...
- ولا تنس حجمها!
- نعم. حجم الملكة يساوي حوالي ثلاثة أضعاف حجم أختها العادية.
- ولكن، أين الروعة في هذه الفكرة؟! ألا ترى أنّ كارثة ستحلّ في الكون إذا توصلنا إلى صنع هذا الغذاء الخرافيّ؟
- لا يمكننا نعتة بالخرافيّ ما دام أمامنا مثال النحل.
- تصوّر أنّ يعيش الإنسان ما يقارب الألف سنة! نحن نعيش بضع عشرات من السنين ونسأم «تكاليف الحياة» على حدّ قول زهير، ونخاف من «التفجّر السكانيّ»، على ما يراه مالتوس، فكيف بنا إذا عشنا بضع مئات؟!؟
- سأظلّ أحبّك!
- ...
- كانت النفوس تملّ حديث الحرب والمعارك والمبادرات ومحاولات التهديّة، فيحاول الأستاذ ابراهيم أن ينقل الحديث إلى دائرة الأدب والثقافة، لكنّه سرعان ما كان يفلت منه، ليعود الكلام على

- لم يكن الأستاذ ابراهيم على اتصال وثيق بالمملكة الحيوانية. فوالده كان موظّفاً في الحكومة، بعيداً كلّ البعد عن الأعمال الزراعية وتربية المواشي والطيور... وهو لا يذكر أنّ أهله اقتنوا يوماً كلباً أو هرة أو عصفوراً... وحين انتقل إلى السكنى في القرية المجاورة، وجد نفسه وسط عدد لا بأس به من الجيران المهتمّين بتربية النحل. وكان كثير من هؤلاء من الزملاء المعلمين، أو من الموظّفين الذين اتّخذوا من تربية النحل هواية تحوّلت عند نضر منهم إلى احتراف، ومصدر إضافي للدخل.
- وكانت مصلحة الإنعاش الاجتماعيّ، في الستينات والسبعينات من القرن العشرين، تولى اهتماماً خاصاً بنشر تربية النحل، عن طريق توزيع عدد محدود من القفران، وبأسعار رمزية، على الراغبين في ذلك، فكثر عدد المشتغلين بهذا القطاع، من مزارعين وغير مزارعين.
- وكان انتشار المناحل في الجوار لافتاً. فإذا خرج الأستاذ إلى الشرفة الشرقية شاهد صديقه «نزيه» يروح ويجيء وسط قفرانه. وإذا خرج إلى الشرفة الغربية لاح له من بعيد طيف زميله «نجيب» مرتدياً بزّته الخاصّة، فيخيّل إليه أنّه يرى نيل أرمسترونغ، رائد الفضاء الأوّل، يتنقّل على سطح القمر. وإذا مدّ نظره عبر النافذة الشماليّة تكرّر مشهد المناحل.
- أين أنت يا رجل؟ أضعتك. قالت زوجته.
- إيتي هنا، هنا.
- دعني أرى ماذا هناك.
- لا شيء. لا شيء. مجرد رائد فضاء...
- ظننت أنّ هناك رائدة فضاء... لقد طال وقوفك. القهوة تنتظر، وأنت لا تحبّها باردة.
- باردة؟ الباردة تثير التقيؤ في النفس. وإن حلوة.
- لقد أنجزت أعمالاً كثيرة، قبل إعداد القهوة.
- وأنا وقفت على فكرة رائعة.
- قبل أن تقف قرب النافذة؟

لسع النحل يعطي المناعة وينفع في معالجة مرض «العصبي»؟
إذاً، فالتجربة مبررة.

استعد الأستاذ ابراهيم استعداداً اعتبره كافيًا لاستقبال القفيرين، فهياً لهما مكاناً في الحديقة، وأكثر من الرجوع إلى المراجع. ولم يكن بحاجة إلى إقناع زوجته بأهميته ما يفعله. ولم تبخل عليه بالتشجيع. فوالدها يربّي النحل، ولكن في قفران «عربية» مستطيلة، مصنوعة من القصب، وكان يعتمد إلى عصر أقرص الشهد لاستخراج العسل. يا الله، ما كان أطيبه!

واحتفاءً بتسلّم القفيرين الموعودين، دعا الأستاذ الأصدقاء إلى سهرة عنده تلك الليلة. وانهايت على النحل المتمرن النصائح، واستطاع بعضهم أن يأخذوا منه وعداً بعدم التفكير في المضاربة وتكسير أسعار العسل، فتقبّل ذلك بروح رياضية وطمأنهم إلى أنّه مجرد هاوٍ لا يفكر في الاستثمار والتجارة.

في اليوم التالي، أتاه أحد الأصدقاء بمطعميتين وتبرّع بتركيزهما تحت الغطاءين. فالقفير الجديد قليل العدد، وعليه أن يعمل بجدّ حتى يستطيع تربية ملكة تزيد عدده. ولا يستطيع العيش، بدايةً، من دون مساعدة خارجية. لذا، على النحل إطعامه السكر المدوّب في الماء. وأحسن طريقة وضعه في المطعمية التي لا يمكن للنحل الوصول إليها إلا من الداخل، وبذلك يبعد الحشرات الفضولية من زراقت ودبابير وغيرها عنه. وبوجودها يستطيع النحل أن يضع الطعام من دون إثارة النحل داخل القفير، أو اللجوء إلى نفث الدخان بوساطة المنفخ لإرباك النحل...

إنشغل النحالون بالاهتمام بمناحلهم ومتابعتها حيث نُقلت إلى البساتين، وما أكثرها في جنوب لبنان! أمّا ابراهيم فلم يحاول كشف القفيرين لتفقد أحوالهما. وذات يوم، أتى جاره، وهو كبير النحالين والأعظم خبرة بينهم، ودخل حديقة الأستاذ وكشف القفيرين فوجدهما في حالة يرثى لها. لقد أصابهما مرض فتاك، ولو لم يتدارك الأمر ويستعمل العلاج المناسب لخسر ابراهيم كلّ شيء.

اجتمع النحالون عشيةً، وكان بابراهيم شوق لمعرفة ما رآه جاره الذي بادر إلى القول: صاحبنا، ابراهيم، يصدق فيه القول «إسمع تفرح جرّب تحزن»، فتثقافته النحلية لا غبار عليها، أمّا قفيرا فيشارفان على الهلاك. ثمّ راح يصف ما رآه ويعطي الأستاذ دروساً لا تُنسى.

هزّت هذه الحادثة ابراهيم، وتقبّل ملاحظات جاره شاكرًا على كره منه، وفرّر استعمال دفتر صحّي لكلّ قفير، واعتماد روزنامة واضحة لكلّ ما عليه أن يقوم به نحوه.

النحل ملء الأفواه والأذان، فيجد نفسه مستمعًا، أو مستفهمًا، في أحسن الأحوال؛ فهل يرضى أن يظلّ مهمّشًا، وحديث النحل أطول من حديث الحيات؟ وما دام ينوّع قراءاته، فلم لا يولي هذا الموضوع ما يستحقّه من الاهتمام؟

وهكذا، وجد الأستاذ ابراهيم نفسه مهتمًا باقتناء المراجع الأجنبية والعربية، وراح يقرأ بشغف، أجل بشغف، ما يستطيع الوصول إليه حول هذا الموضوع. وسرعان ما اكتشف أنّ عالم النحل أوسع ممّا كان يتصوّره. فالقفير ملكة بكلّ ما في الكلمة من معنى. مملكة منظّمة تنظيمًا دقيقًا وصارمًا. مملكة أنثوية لا رحمة فيها ولا شفقة. الذكور فيها مهمّشون! والفاؤض منهم عن الحاجة عبء ثقيل معرّض للتصفية! وممالك النحل تتغازى، والويل للضعيفة، فعليها تدور الدوائر...

شيئًا فشيئًا أصبح لدى الأستاذ ابراهيم اطلاع، لا بأس به. وصار قادرًا على مجاذبة الأصدقاء أطراف الحديث مجاذبة حذرة. وصار قادرًا على التطرّق إلى خطوات عملية في معاملة النحل لا تخطر ببال هؤلاء. وكثيرًا ما حاول بعضهم تجربتها. كلّ هذا، ولم يصرّح بأنّه يلجأ إلى المراجع ويوسّع دائرة قراءاته. وهكذا، صار يشعر بالميل إلى التحدّث في هذا الموضوع من دون ملل. وربّما لجأ إلى «تحضير» بعض الموضوعات ليتمكّن من إثارتها. فمهنة التعليم أقتنعه بأنّ الارتجال مدعاة للوقوع في الخطأ. وراودته فكرة اقتناء عدد من القفران، إلا أنّه تردّد في الإعلان عنها، أو قل أخفاها مؤقتًا.

جاء الربيع مشرقًا، ذلك العام، وعقدت أعراس النحل الملكية في الأعالي، وبدأت الملكات بتوزيع البيوض على الأماكن المخصّصة لها. واهتمّ النحالون «بتطريد» النحل رغبة في زيادة عدد القفران. ودارت الأحاديث حول طرائق التطريد الناجحة. فوجد الأستاذ ابراهيم الظرف مؤتياً لطرح أفكار لا يعرفها هؤلاء. وأغلب الظنّ أنّه أثار اهتمامهم بما يُدلي به من نظريات، حتّى صاروا يطلبون رأيه في بعض الطرائق فيجيب، حيث يعرف، مرفقًا جوابه بـ «أظنّ» و«ربّما» و«لم لا نجرب»؟ وغيرها من العبارات التي لا تتطوي على كثير من التواضع. ونزولاً عند رغبة الأصدقاء وتشجيعهم، وبعد وعدهم إيّاه بتقديم كلّ المساعدات اللازمة، عند الضرورة، أفتنح نفسه بضرورة تقديم طلب إلى مصلحة الإنعاش الاجتماعي للحصول على قفيرين. ولم لا يجرب؟ فالوعد بالعسل مغرٍ، وليس أطيّب منه إلا «الخلّ ببلاش». وهو غذاء ودواء. يُحلي ويقوّي وينشط الذاكرة وغير الذاكرة... وإذا كان «لا بدّ دون الشهد من إبر النحل» فلم الخوف؟ ألا يؤكّد جميع النحالين أنّ

وذاث يوم تمّوزيّ قانظ، ذوّب إبراهيم السكر وارتدى قميص النحالين المزوّدة بقبّعة قاسية موصولة بالقميص بوساطة قناع حديديّ ناعم يحمي الوجه، فوق بنطلون جينز سميك، ولبس قفّازين مطّاطيين، وتوجّه لإطعام القفيرين.

وفيما هو يهيم ليفعل خطر بياله أن يتفقد أحوالهما من الداخل، فلم يكتف برفع الغطاء الخارجي الذي يغطّي المطعميّة والصندوق معاً، وإنّما استعمل «العتلة» (قطعة حديد من أدوات النحال) ورفع المطعميّة عن الصندوق؛ وما هي إلّا لحظات حتّى جُنّ جنون النحل فهاج وماج وهاجمه مهاجمة لم يتوقّعها، وبدأت إبر النحل تنفرز في كلّ مكان فيه. إخترفت القفّازين المطّاطيين واخترقت القميص، وكان يرتديه فوق آخر من غير أكمام، ودخل النحل من ساقى البنطلون وراح يُعمل إبره في رجليه وفخذه. فما كان منه إلّا أن ابتعد هارباً واقتطع غصناً من أقرب شجرة وراح يذود به عن نفسه لاثداً بزاوية مدخل البيت المجاور، حتّى تمكّن من إبعاد النحل عنه.

وبعد قليل، قرّر العودة لإفضال الصندوق، فلا يجوز تركه مفتوحاً. عاد حاملاً أوجاعه. وما كاد يحاول وضع الغطاء حتّى عاود النحل هجومه بأشرس ممّا سبق. لكنّ الأستاذ أصرّ على عدم الانهزام فأقفل بعد أن ناله منه أكثر ممّا ناله في المرّة الأولى.

لم ينته الأمر عند هذا الحدّ، فبعد دقائق معدودة أحسّ إبراهيم ناراً متأجّجة في داخله، ونظر في المرأة فرأى وجهه شديد الاحمرار، وبدأت تنتشر في جسمه بقع حمراء مقبّبة وجاشت نفسه وانتابته موجة من التقيؤ لم يسبق له أن كان عرضة لمتلها، ولم تفلح الوسائط التقليديّة في الحدّ منها.

بعد أقلّ من نصف ساعة وجد نفسه في المستشفى حيث تحمّل وخزات إضافية. وخزات إبر المصل والحساسيّة... وخرج مساءً، مع وصفة طبيّة متنوّعة الأصناف وتأكيد من الطبيب بأنّ ما أصابه يعادل لسعة حيّة سامّة.

انتشر الخبر بين الجيران والأهل الذين زاروه أفراداً وجماعات، وقد مزج الكثير منهم تهنئته بالسلامة بعبارات اللوم: «ما لك ولتربية النحل يا أستاذ؟»، «لكلّ مصلحة أربابها، وأنت ميدانك الكتاب والتعليم، فلماذا تتعدّى إلى مصلحة غيرك؟»، «ألا تعرف الحكمة التي تقول: ولا بدّ دون الشهد من إبر النحل؟ تحمّل إذن». «سامحك الله، ألا تعرف أنّ إبر النحل قادرة على اختراق الملابس الخفيفة؟»، «من يفتح قفيرا في عزّ الصيف؟»، «لماذا فتحت من غير أن تدخّن؟»...

وكان ذلك متوقّعا. وقد نُشرت تفاصيله، قبل أشهر من تنفيذها، في الصحف والمجلاّت، ونُشرت الخرائط، أجل نُشرت- ولكن، من يُصدّق؟- وفيها أنّ شرق صيدا سيسقط، وأنّ بوابة إسرائيليّة سوف تُنشأ في كفرالوس على طريق جزين...

وهكذا حصل، ومن دون إراقة دماء، نُفّذت المؤامرة، فغادر إبراهيم المنطقة مع من غادر.

نُهب القرى وجُرفت، وكان ذلك متوقّعا، فما رُسم قد رُسم... ونُفّذ.

خرب بيت إبراهيم فانتقل إلى العيش في شقّة. خسر أشياء كثيرة، ومن جملة ما خسره ممارسة تربية النحل.

في العشرين من تمّوز سنة ٢٠٠٢، وبعد عشرين عاماً على تجربته اللاسعة، حكى لي إبراهيم هذه الحكاية فنقلتها كما رواها، باستثناء بعض التهنّات العميقة، وقوله إنّه جرّب مرّة أكل العسل فوجده... مُرّاً.

وبعد قليل، قرّر العودة لإفضال الصندوق، فلا يجوز تركه مفتوحاً. عاد حاملاً أوجاعه. وما كاد يحاول وضع الغطاء حتّى عاود النحل هجومه بأشرس ممّا سبق. لكنّ الأستاذ أصرّ على عدم الانهزام فأقفل بعد أن ناله منه أكثر ممّا ناله في المرّة الأولى.

لم ينته الأمر عند هذا الحدّ، فبعد دقائق معدودة أحسّ إبراهيم ناراً متأجّجة في داخله، ونظر في المرأة فرأى وجهه شديد الاحمرار، وبدأت تنتشر في جسمه بقع حمراء مقبّبة وجاشت نفسه وانتابته موجة من التقيؤ لم يسبق له أن كان عرضة لمتلها، ولم تفلح الوسائط التقليديّة في الحدّ منها.

بعد أقلّ من نصف ساعة وجد نفسه في المستشفى حيث تحمّل وخزات إضافية. وخزات إبر المصل والحساسيّة... وخرج مساءً، مع وصفة طبيّة متنوّعة الأصناف وتأكيد من الطبيب بأنّ ما أصابه يعادل لسعة حيّة سامّة.

انتشر الخبر بين الجيران والأهل الذين زاروه أفراداً وجماعات، وقد مزج الكثير منهم تهنئته بالسلامة بعبارات اللوم: «ما لك ولتربية النحل يا أستاذ؟»، «لكلّ مصلحة أربابها، وأنت ميدانك الكتاب والتعليم، فلماذا تتعدّى إلى مصلحة غيرك؟»، «ألا تعرف الحكمة التي تقول: ولا بدّ دون الشهد من إبر النحل؟ تحمّل إذن». «سامحك الله، ألا تعرف أنّ إبر النحل قادرة على اختراق الملابس الخفيفة؟»، «من يفتح قفيرا في عزّ الصيف؟»، «لماذا فتحت من غير أن تدخّن؟»...

وكان ذلك متوقّعا. وقد نُشرت تفاصيله، قبل أشهر من تنفيذها، في الصحف والمجلاّت، ونُشرت الخرائط، أجل نُشرت- ولكن، من يُصدّق؟- وفيها أنّ شرق صيدا سيسقط، وأنّ بوابة إسرائيليّة سوف تُنشأ في كفرالوس على طريق جزين...

وهكذا حصل، ومن دون إراقة دماء، نُفّذت المؤامرة، فغادر إبراهيم المنطقة مع من غادر.

نُهب القرى وجُرفت، وكان ذلك متوقّعا، فما رُسم قد رُسم... ونُفّذ.

«تجاوز الحطام» مع أ.د. أمين ألبرت الرّيحاني



د. عصام الحوراني

في فاس وغرناطة وتلمسان، وأخيراً في مصر. هذا الفيلسوف قد تجاوز حطام أمة كانت تمرّ في عهده في طور الانقسام والتمزّق والفوضى، تجاوز الحطام النفسي الذي أحاق به مراراً، وكانت ذروة تحطّمه النفسي، عندما لجأ إلى مصر سنة ١٣٨٤ م تاركاً زوجته وأولاده في تونس، وقد تولّى قضاء المالكية في مصر. وحمله الشوق إلى أسرته لكي يستدعيهم إليه، وبعد توسّط لدى حاكم تونس أفرج عن أسرته فركبوا البحر قادمين إليه. وعندما وصلت السفينة التي كانت تقلّهم إلى مرسى الإسكندرية، هبت عاصفة هوجاء لعينة، ففرقت السفينة بمن فيها، يقول ابن خلدون: «ذلك مصابي بالأهل والولد، وصلوا من المغرب في السفين، فأصابها قاصف من الريح ففرقت، وذهب الموجود والسكن والمولود، فعظم المصاب والجزع، ورجح الزهد، واعتزمت على الخروج عن المنصب...» (ابن خلدون، التعريف بابن خلدون...، المجلّد السابع من كتاب تاريخ العبر وديوان المبتدأ والخير... ص ٥٦٥).

هذا الفيلسوف العربيّ الكبير تجاوز الحطام المادّي والنفسيّ في أكثر من مرّة، فكانت لسيرته المأساوية وتجاربه المرّة ولما أحاط به من شجون في المجتمع والسياسة، أسباب أسهمت في بلورة أفكاره، وعملت على تشكيل وعيه في هذه الأزمنة الرديئة، فإذا به يؤلّف ويُنْتج ويُدع، ويؤسّس لقواعد علم الاجتماع ولقوانين التاريخ، بما في ذلك قوانين التحوّل والتراكم والتطوّر، ولا سيّما في مقدّمته المشهورة لكتابه «تاريخ العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السُلطان الأكبر».

يتوقّف قطار أمين ألبرت الرّيحاني في أثناء تجواله فوق أكثر من حطام، وفي محطّات أدبيّة ستّ تجاوزت هذا الحطام، فتراه ينتقل من الفلسفة واللّغة إلى الشعر، فالرواية والنثر المرسل،

«سَمِعْتُمْ أَنَّهُ قِيلَ عَيْنٌ بَعِينٌ وَسِنٌّ بَسِينٌ، وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: لَا تُقَاوِمُوا الشَّرَّ، بَلْ مَنْ لَطَمَكَ عَلَى خَدِّكَ الْيَمَنِ فَحَوِّلْ لَهُ الْآخَرَ أَيضًا» (متّى ٥: ٣٨-٤٠). هكذا واجه عدد من اللبنانيين، من أنقياء الفكر والأدب والقلب من المتتوريين الكبار، الحطام المادّي كما والحطام النفسيّ في زمن الضيق والشدة والوجع. لقد تجاوز عدداً كبيراً من هؤلاء الأدباء والمفكرين اللطم والشّر ومنطق السيف «لأنّ كلّ الذين يأخذون بالسيف بالسيف يهلكون» (متّى ٢٦-٥٢).

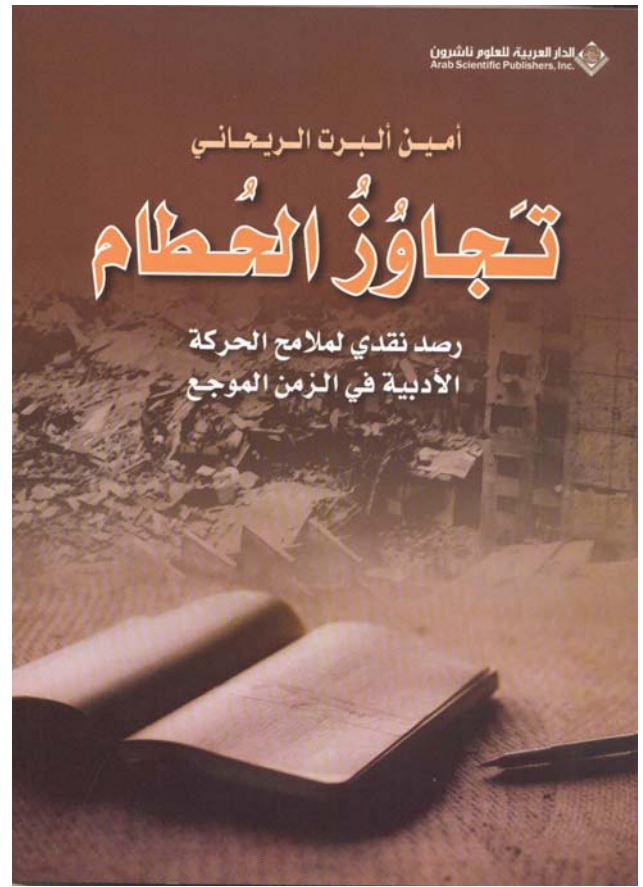
لقد تجاوزوا منطق القوّة الجسديّة والبنديقيّة واستبدلوها بالعلم الحيّ، والصوت العذب وإيقاع السلام. هذه الأقلام التي تجاوزت الحطام الذي شهده الوطن وما زال يشهده في كلّ جيل، سارت تكمل رسالة العقل والمحبة، بروح منفتحة على كلّ الثقافات.

وأمين ألبرت الرّيحاني هو نفسه قد تجاوز الحطام مراراً في كلّ أعماله الأدبيّة السبعة عشر منذ مطلع شبابه في عام ١٩٦٦ مع لمع مشرقيّة. وهو الآن يشهد، بالرّصد النقديّ، على ملامح الحركة الأدبيّة في عصر متعاقبة موجعة اشتدت فيها المآسي والأزمات في وطنه، وقد أثار الأدباء والشعراء عثماتها بكتاباتهم الحيّة المشرقة، وذلك في كتابه تجاوز الحطام الصادر حديثاً في بيروت عن الدار العربيّة للعلوم ناشرون.

«تجاوز الحطام» يُدكرنا بمئات الأدباء والشعراء والمبدعين الذين تجاوزوا حطاماً كاد يقضي عليهم في أزمنة الأهوال والفواجع التي تتردّد في كلّ عصر وجيل، وبخاصّة في هذا الشرق المسكون بالآفات السياسيّة والاجتماعيّة، المسكون بالعبوديّة والاستبداد منذ أقدم الأعصر ولا يزال لسوء الحظّ. وتحضرني مأساة ابن خلدون (١٣٣٢-١٤٠٦) الفيلسوف الإشبيليّ الأصل والتونسيّ المولد، الذي كان علّم زمانه في الإدارة والسياسة والقضاء والأدب والفكر والعلوم، وقد تولّى شؤوناً سياسيّة رفيعة

بطروحات أطلقها الكاتب وبحث بأمرها وهي تخص الثقافة العربية والعقلانية العربية، والحضارة العربية في سياق عملية التطور الآخذة بالتسارع الجنوني في عصر العولمة هذا. إنها اللغة التي «تصنع الناس أكثر مما يصنع الناس اللغة»، وهو قول جاء على لسان غوته المفكر والأديب الألماني المشهور، وقد أورده المؤلف في مستهل كلامه على «اللغة العربية أمام تحديات اللغات الأوروبية». نعم، فقد أشار الكاتب إلى «القدرة اللغوية الفاعلة وطاقاتها الخلاقة في التعبير عن حقيقة وجود الكائن الإنساني على اختلاف مستويات هذا الوجود». (ص ٢٦) قال ديكارت: أنا أفكر، إذاً أنا موجود، ولما كان الفكر يرتبط باللغة ويتحد بها إلى حد بعيد، فإن دور اللغة في عملية النهوض بالإنسان من النواحي المختلفة بالغ الأهمية. من أجل هذا، يُعالج الدكتور الريحاني اللغة ومدى علاقتها بالفكر والوجود والعلوم الإنسانية من أدب وتاريخ وفلسفة وغيرها، كما يطرح مسألة قوانين اللغة وأساليبها، وعلاقة النصوص الأدبية بالتمكّن من اللغة وكتب اللغة. وهو يتصدى بشكل لافت ومثير لفضية اللغة العربية ومدى صمودها أمام تحديات اللغات الأوروبية، ومقدمًا اقتراحاته الخمسة المجدية التي تسهم في عملية تطوير اللغة العربية، كما تسعى إلى حلّ أزمتها الحالية.

مشكلات اللغة العربية، وبخاصة في عصر العولمة، أثارها الكاتب دارسًا بعمق، محللاً، باحثاً بدقة. لقد بحث في مسألة دور النصّ الأدبي في عملية تدريس اللغة، فتناول بالتتابع المنطقيّ الرّصين المواضيع الآتية المرتبطة بعضها ببعض، وهي: ماهية اللغة وعلاقتها بالفكر والوجود، وقد خلص إلى القول بأنّ اللغة التي هي «رمزٌ ومجازٌ وتخيلٌ تتبع جميعاً من مَصْدَرِيّ التراث والإيحاء». (ص ١٥) هذه اللغة ترتبط بالفكر بعلاقة عضوية، كما وصفها الكاتب واستطرد إلى القول بأنّ «العلاقة بين اللغة والوجود هي علاقة فلسفية بقدر ما هي علاقة تعبيرية ذاتية... وعملية المطابقة بين اللغة والوجود تفرض ضرباً من الحلولية الإشرافية المتفاعلة مع الكائن البشري...». (ص ١٦) ثمّ بحث الكاتب بمدى علاقة اللغة بسائر العلوم الإنسانية من أدب وتاريخ وفلسفة. وإذا كان الأسلوب هو الذي يحيك العلاقة بين اللغة



فإلى الأدب اللبناني المهاجر، وإلى إشراقات الفنون، وأخيراً يتوقّف القطار في محطة ريحانية فيها «علامة من عبقر تشرق على المبدعين (الريحاني وجبران) كي تبقى مراميهما ممتدة من رحاب «خالد» إلى عالم «المصطفى»، ومن لبنان إلى دنيا العرب وحول الكرة الأرضية». (من الريحاني إلى جبران، ص ٢١٣) قطار الدكتور أمين الريحاني في كتابه هذا يتوقّف في محطات لها مكان ويحويها زمان، وليس مثل «قطار ولا محطة» يتخبّط فيه الزمان متهاكاً.

لقد استوقفنا الكاتب في كلّ محطاته، فشدّنا بجرارة وشغف إلى رحاب تلك المحطات، نتقل وإياه في بهو كلّ محطة وفي أرجائها العامرة، تغمرنا نشوة النقد الأدبيّ الراقي، حيث البصائر النافذة، والنظر الثاقب الدقيق البعيد الغور، والجديد من الأفكار والآراء والأخبار. وإنني سوف أتوقّف مع القارئ في محطات أراها مهمة للغاية وملحة في زمننا الحاضر، أولها تتعلّق

عن اللغة والعمل على تتويجها بتاج العقل. كذلك تستوجب إعادة تصنيف العربية من ثنائية الفصحى والعامية إلى ثنائية اللغة الكلاسيكية واللغة الحديثة، شأنها في ذلك شأن جميع اللغات الحية». (ص ٢٩)

يتناول د. ريجاني «إشكالات فلسفية» تخص اللغة من ناحية الشكل النحوي والشكل المنطقي للجملة، ومن ناحية الوجود، ومن ناحية مستوى الفهم الحضاري لدى شعب ما، بسبب أن اللغة هي نتيجة الفهم. هذه الإشكالات تُهيئ للأخذ بعدد من المقترحات والأفكار التي يطرحها الباحث من أجل النهوض بلغتنا العربية وتصويب مسارها على طريق التطور والتجديد والحياة. وهذه المقترحات تتلخص بما يأتي: أولاً: القبول بتبسيط القواعد العربية. ثانياً: القبول بمبدأ تبسيط التراكيب والجمال إلى الحد الذي يُقيها سليمة وواضحة المعنى. ثالثاً: القبول بمبدأ الترقى بالعامية إلى مستوى الفصحى المتداولة. رابعاً: الإكثار من تعريب آداب الآخرين وفلسفاتهم لأننا في الأدب والفلسفة منتجون، أما العلوم فترجمتها لا تجدي اللغة نفعاً، لأننا لا نزال للعلوم مستهلكين لا منتجين. خامساً: التنبّي غير المتردد لمفردات اللغات الأوروبية الآتية إلينا بتقنيات الآخرين أو ببعض عاداتهم وتقاليدهم التي دخلت حياتنا الاجتماعية اليومية. (ص ٣٢-٣٤) إن هذه الأفكار الثورية الملحة التي طرحها الدكتور أمين الريحاني، هي في غاية الأهمية، وتستوجب دراستها ومتابعتها من قبل المهتمين والباحثين بأمر اللغة العربية وبخاصة المجامع اللغوية العربية في بغداد ودمشق والقاهرة، فيما لو هي ناشطة وتعمل في هذه الأيام العسيرة التي تمرّ بها عواصم الثقافة في البلاد العربية.

تلك الصفحات في اللغة، والتي تصدرت كتاب تجاؤز الحطام، يُمكن أن تكون، بحد ذاتها، مقدّمة لمؤلف كبير في عملية تيسير اللغة العربية وفي أساليب تطويرها لكي تلحق بالنهضة الحداثوية. كما يُمكن أن تكون مادة أساسية لدراسات جامعية معمّقة في اللغة العربية وإمكانية صمودها بثبات أمام تحديات لغات العولمة في عصرنا هذا. نلاحظ كثافة المعلومات والحجج والبراهين والآراء الموثقة بدقة، فالكاتب يستند إلى أسماء وأسماء كثيرة لعلماء في اللغة ولباحثين كبار في هذا المضمار، أجنب وعرب. فتراه ينتقل من صلاح فضل، وريمون طحّان، ودينز بيطار، والشيخ عبد

والأدب فالأسطورة هي التي تحيك العلاقة بين اللغة والتاريخ... والرابط بين اللغة والعقل يقودنا إلى الرابط بين اللغة والفلسفة». وفي باب «اللغة العربية أمام تحديات اللغات الأوروبية»، يُعالج الكاتب مسائل مهمة تخص «اللغة ومنظومة الاختبار الحضاري» أي العلاقة الوثيقة بين الإنسان ولفته؛ وكما أن البشر يتوزعون بحسب ممارساتهم لمهن مختلفة، كذلك فاللغة تتوزع أيضاً بحسب تلك المهن، فنرى لغة طبيّة، ولغة هندسيّة، ولغة حقوقيّة، ولغة أدبيّة... إلى ما هنالك من مهن متنوّعة. ويقول د. الريحاني: «وضمن كلّ لغة من هذه اللغات تجد الأفراد يتشحنون بوشاح لغويّ فرديّ خاصّ يُفصل على قياس كلّ منهم فيميّزها عن لغة الآخرين». (ص ٢٧) ويتناول الكاتب أيضاً موضوع «منطق اللغة» فيرى أن «لكلّ لغة منطقها في معالجة الأمور وفي تصويرها والتعبير عنها، حتّى عند الكاتب الواحد الذي يكتب بلغتين اثنتين». (ص ٢٨)

وينتقل الكاتب إلى ما تُواجهه اللغة اليوم من تحديين متعاظمين: تحدّي خارجي يرقى إلى مسألة تقدّم اللغات الأوروبية، وتحدّي داخلي يرقى إلى سيطرة اللهجات المحكيّة العامية على اللغة الفصحى المشتركة. وهكذا، كما يرى الكاتب، فإنّ الفصحى «تراجع تجاه هذين التحديين في غياب فعل لغويّ حقيقيّ متواصل يُخرج العربية من سجنها ويُطلقها في فضاء العصر لمواكبة معالم تقدّمه المعرفيّة المختلفة». (ص ٢٩) إن بداية التصدي لهذه المشكلة المتفاقمة تحتاج، كما يرى الريحاني إلى تهيئة الأجواء بالنسبة إلى السلوكيّة الذهنيّة العربية بل وإلى نمطيّة التفكير عن العرب. وقد تكون بداية التصدي لهذه المشكلة على حدّ ما جاء من قول لرولان بارت كما أورده المؤلّف: «إنّ التجديد مُفزع لأننا نخشى أن نُخطئ... وإنّ الحداثة تقدّم في اختلاط التجربة بالعمل المستقبلي، ولا بدّ من أن يكون لدينا استعدادٌ للقابليّة». (حوار عن الأدب، لرولان بارت وموريس نادو، يُراجع مجلّة الفكر العربيّ، بيروت: كانون الثاني ١٩٨٢، ص ١٥-٢٧) ويطرح الدكتور الريحاني تساؤلات مهمة للغاية فيقول: «قابليّة التجديد والحداثة تدخل في السلوك الذهنيّ للفرد والمجتمع، وبالتالي تُهيئ للتجربة اللغويّة كعمل مستمرّ. فهل ارتضينا، في لبنان والعالم العربيّ، مبدأ التجربة اللغويّة المستدامة؟ وهل قبلنا بفكرة العمل اللغويّ المستقبليّ؟... هذه المسألة الخطيرة تستوجب نزع صفة القداسة

«تجاوز الحطام على صهوة القسيده»، الفارس المجلي، المتفتن الرائق الأسلوب، الخبير بمحاسن الكلام ومساوئه، يسبر الأغوار ويختبر صلابة الشعر ومعدنه. هو يُعَين بدقّة كيف «يستلّ سعيد عقل من الفجر بهاء الشعر»، فيبحث في حقيقته الشعرية، وكيف أنّ الشاعر «يحفر معالم وجهه في ظلال الكلمات التي يقطفها من أجل التقاط معالم الآخرين، أو معالم الأشياء والمعاني وخلفيات المعاني... فهو يتقن شبك الكواكب شبكاً مستحيلاً يصعب أن يتكرّر». (ص ٧١-٧٢)

وشعر شوقي أبو شقرا في تجاوز الحطام يُختصر بإشكاليات اللغة والصورة الشعرية، والمعنى. «إشكالية اللغة... تلك التي يُداعبها، يُغريها، يكتشف أسرارها، يرحل بها ومعها إلى أرض بكر لا يعرفها سواه. يستلّ من أصلاتها حداثة غير مسبوقه ليبنى منها لغة جديدة في قلب اللغة... وعلاقة شوقي بالصورة الشعرية كعلاقة حاوٍ يعزف على مزمار الكلمة التي تركض وراء صورة لم تظهر على أحد من قبل أن تظهر على هذا الشاعر بالذات... وعلاقته بالمعنى تأتي مناسبة من الإشكاليات الأولى». (ص ٧٤-٧٦)

وينتقل الريحاني إلى «شاعرة البياض المذهب» حيث تقيم الشاعرة ندى الحاج في عين قارئها كما في سمعه وسائر حواسه، إنها تتقدم نحوه بإيقاع العروس الهابطة إليه من أعلى حرمون. «ومن نشيد الإنشاد تنثر ندى الحاج غبارها الذهبي وتذري ذهبها الأبيض على درب رحلتها الأنيقة، رحلة الظل الممتدة من أعماق صلاتها، صلاة في الریح، حتى أطراف أناملها، أنامل الروح». (ص ٧٩)

عبدو لبكي، يتألق في تجاوز الحطام، مع كتابة على جدار، فهو يسمو بكلماته «المغتسلة برداذ الشمس... يختبئ وراء أقدام حافية للشعر، وفسحة بكر للتخيّل الموجع، وهجرة متوغلة للكلمات، ومواجهة حميمة للعالم الداخلي، وعناق ملح للزمن الهارب، وتذكّر دماغ لوشم الحياة». (ص ٨٤)

ويمضي الدكتور ریحاني أيضاً وأيضاً، مع شعراء تجاوزوا الحطام فأبدعوا: «لغة متأوّهة لشرابين المدينة...» في «اللغة والمدينة» لقيصر عفيف. وكذلك مجموعة جوزف عيساوي: شاي إلى وقاحة الشاعر... «أما الوقاحة الشعرية، فسائل منوي يجعل القمر حاملاً

الله العلايلي، وكمال يوسف الحاج وغيرهم إلى كبار المفكرين في الغرب من أمثال: مارتين هايدغر، وجان ماكوري، وجان بول سارتر، وبول ريكور، وهارولد فيش، وجنز مارتين مولر، وبرتراند راسل، وجان وارنر... وغيرهم. ناهيك عما حواه هذا المبحث المكتف من أسماء لمؤلفات ومقالات علمية ومراجع لغوية، وغيرها من المصادر التي صنّفها كبار من أعلام جهابذة في اللغة والفكر والفلسفة والنقد.

يتناول الدكتور ریحاني مدى معاناة الأدباء والشعراء في أعصر متفرقة، في الغرب كما في الشرق. إنه، كما يقول: «زمن الممنوعات الفكرية لكتاب اعتبروا من الخارجين عن القوانين والأعراف والمعتقدات السائدة»، وذلك لأسباب دينية أو سياسية أو جنسية أو اجتماعية. إن الكاتب يورد أسماء من مورست بحقهم تلك المطاردات الفكرية، وكانت العقوبات تتمثل بحرق كتبهم ومنعها من التداول، أو بطردهم من مراكزهم، أو منعهم من دخول بلاد معينة، وسحب جنسية الأديب، وهدر دم آخر، والتهديد بالقتل، أو صدور حرم كنسي بحق الكاتب، أو محاكمته وسجنه، أو ذمّ الكاتب وطلب محاكمته... ولم يأت الكاتب إلى ذكر أسماء الذين كانت عقوبتهم القتل، وقد قُتلوا فعلاً في لبنان، وكانوا من صحافيين وكُتاب ومفكرين. هناك عشرات من أسماء معروفة جداً ذهبوا ضحية كتاباتهم لأسباب سياسية أو دينية، وذلك منذ بدايات السبعينيات من القرن الماضي.

الدكتور الريحاني في رسده النقدي يُحاكي من اختارهم من أصحاب الحركة الأدبية بلغتهم الشعرية، بل ربّما فاق أكثرهم، شاعريةً، وبلاغاً، وبيانا، وإشراقاً. والذي يلفت النظر في كتابة الريحاني قوّة الكلمة. نعم قوّة الكلمة لديه، فهو يمتلك فنية خاصة في عملية استخدام الكلمة القوية التي تُحاكي ما جاورها من كلمات، وهذا ما يجعلنا نفكر مع عبد القاهر الجرجاني الذي تبين له «أنّ حسن تصوّر الكلمة بوجه عامّ أمر أجلّ من المهارة اللسانية، لأنّه باب حيوية الذهن والبصيرة». (دلائل الإعجاز ص ٢٨٢) ويرى الجرجاني أيضاً أن «مساءلة الكلمة وعلاقتها كانت مساءلة لفكرة التضامن والتساند». (دلائل الإعجاز ص ١٠٦ وغيرها) والكلمة تساعد، مع الريحاني، على التأمل والتوجُّد. الكلمة لديه تضيف أبعاداً إلى نظام الكلمات. فنراه في باب

«لمحاً بليغاً، وحرفاً نسيغاً، وروحاً برّاقة، وشجاعة خلاقة، وسبراً عميقاً، وبتاً أنيقاً، وصقلاً عريقاً». (ص ١٣٩)

وأخيراً يتناول الكاتب قلم جورج مغماس، هذا القلم الذي «يدعوك إلى مقصوراته والأبهاء بثناء وفير، وتمكّن قدير، وامتلاك لناعية البلاغة تجعل اللغة مطواعة بين يديك، كيفما كتبت، وحيثما حطّلت الرحال، فالقلم سيّال مكين، والمادّة مطواعة يُعالجها جورج مغماس مُقلِّباً إيّاها على كَفّ تفتيق المعاني والفكر أنيقاً بليغاً، أسيلةً حصيفة، شَيِّقةً تُغريك، وجميلةً تُناديك... وإنّ قلمه قدّ من نبع الحقيقة، كما من أرغن الحقول المتوهّجة، ومن صدى الأطيّار، ورجع الأودية، وإنسان الريف. كلمة جورج مغماس كلمة نديّة على بلاغة، ثريّة على صلابة، وأدبه أدب حقّ، أدب قدّ من ماء الحياة، واستلّ من معدن الثقافات النضرة ومن عناصر الكشف المضيء». (ص ١٤١ - ١٤٥)

لقد تعرّفنا من خلال هذه الصفحات المضيئة إلى كتابات أدبيّة متنوّعة، فيها ملامح للحركة الأدبيّة في زمن موجه يمرّ به الوطن حديثاً، والجدير بالذكر أنّ هذا الوطن (الموزيبيك) لم يعرف أبناؤه المواطنة النقيّة منذ قيامه وتأسيسه في بداية العشرينيات من القرن المنصرم، ولم يعرف سوى الأزمنة الموحجة التي تتعاقب كلّ عقد ونصف أو عقدين. اختار الكاتب هذه الأسماء المبدعة بعفوية أو بحسب مقتضى ما لفت نظره أو شاعت الصدق أن يكتب عنها، لتكون مثلاً لملامح الحركة الأدبيّة في الزمن الموجه. هذه الحركة الأدبيّة المعطاء قد تجاوزت الحطام، وأسهمت في عمليّة إضاءة شموع الحرية في العصور القاتمة المظلمة. تعرّفنا من خلال مقالات النقد هذه إلى محطّات أدبيّة شعريّة ونثريّة مختلفة. كما تعرّفنا أيضاً إلى أسلوب طريّ جديد في النقد الأدبيّ، أسلوب فيه طلاوة كما فيه حلاوة، وليس فيه تجريح أبداً. وقد شدّتنا إلى هذه المقالات لغة راقية جدّاً، عذبة، ناصعة البيان، مصقولة العبارة وبليغة تملك القلوب، لغة، كما أوضحنا من قبل، ليس فيها قلق، وغير مشغولة بالتحسين والتقييح، وفي البلاغة لا يُسمح للكلمة بأن تتفجّر وتتشظى بلا اهتمام بما يُجاورها من كلمات. ونحن نتقلّ مع الكاتب من لوحة أدبيّة فنيّة إلى لوحة أخرى بشغف ولذّة، وفي كلّ محطة نتعرّف إلى الجديد، ويُفاجئنا المؤلّف بشيء مختلف في عالم الأدب بأنواعه الفنيّة وضروبه المتعدّدة، وفي الثقافة المحليّة والأجنبيّة، وبخاصّة من خلال الشواهد والحجج الموثقة التي تدلّنا إلى كبار رجال الأدب والفكر والنقد في العالم،

بجنين الخطايا التي تُعيد هندسة العالم...». (ص ٩٠). ومع حنان عاد في «لؤلؤ الروح على صهوة القيمة»، يرى الريحاني أنّ الشعر عندها هو «بين الحنين الشجّي والحنان القاني... وهو لديها محاولة حثيثة لتجميل العالم... وهو دهشة، وابتسامه، وصولجان». (ص ٩٢ - ٩٤) وكذلك يتابع الريحاني رصده النقديّ مع شعر جوزف إبي ضاهر الذي يغفو على أجنحة العصفير. ومع جوزف نجيم العاشق الذي ينفخ في رماد اللّغة. أخيراً، ومن على صهوة القصيدة، يتجاوز رياض فاخوري الحطام في «عذابات في أور»، «حيث تتسلّل الكلمة، بكلّ ما تزخر به من احتمالات وإيحاءات وأخيلة ثريّة، تتسلّل مناسبة بين شرايين الزمن المدير وملامح الأسطورة البهيّة التي تطلّ ولا تطلّ، تتهافت ولا تنزلق». (ص ١٠٢)

وكما في الشعر، فتجاوز الحطام يطال النثر أيضاً، بمنثورات نقديّة متخيّرة الألفاظ، عباراتها مصقولة رشيقة تسترقّ الأفهام. يتناول الكاتب في فصل «تجاوز الحطام بين ثنايا الرواية والنثر المرسل» رواية «أول الذهب» لجورج شامي، التي هي «قصة الناس البسطاء في لبنان، الناس العاديين الذين لا قيمة لهم على أرضهم، ولا حساب لهم في وطنهم، إن لم يكونوا قد رفعوا الشعارات والياقظات، وإن لم يرتضوا الاصطفاً والاستزلام، بل كانوا من الناس العاديين الذين يبحثون أبداً عن بعض كرامة ولو كانت هشة مهذّدة على الدوام». (ص ١١٧)

ويتناول الريحاني في هذا الباب أيضاً رواية مي منسى «أوراق من دفاتر سجين»، حيث يغدو المسرح في «المشهد الأخير» من الرواية «تجاوزاً لركام المدينة الهرمة، تخطّياً لركام الأرض اليباب، الأرض المتداعية المنهارة على أصحابها». (ص ١٢١). وفي «سوارى الزمان» لشوقي خير الله ينقل الكاتب إلى مشاهد متنوّعة «لطبقات مجتمعيّة تكاد تكون فردوسيّة بتفاصيلها ومنعرجاتها وتلوثاتها ودروبها الحلزونيّة المزدهرة». (ص ١٢٥) كذلك في «التساؤلات» لأنيس مسلّم، حيث اختار الكاتب «الكلمة وسيلته الإبداعية، وطريقه الأدبيّ لطرح أسئلته على الكون والوجود». (ص ١٣١) ومحمّد ماضي في «عراء المصير» عرف، كما يقول: كيف «يمتطي صهوة يومه... ولا يترجّل وقت الأصيل»، فنثريّاته هي حكاية «فارس هوى ولم يهو، أصيب ولم يسقط، طُعن ولم يترجّل». (ص ١٣٨) ومع دياب يونس الذي يصفه الكاتب بـ«الكلمانيّ الذي يتربّع على فتون البلاغة»، يرى في طيّات قلمه

القرن العشرين. أهمية الكتاب تكمن أيضًا في موضوعيته، ذلك أن الكاتب تجاوز مسألة السرد والتبيان اللذين يقع فيهما المؤرخ، إلى الاستنتاج والتحليل. لقد بين مدى اهتمام الأدب الإنكليزي بالشرق إلى حد إدخال موضوع الشرق كمادة أدبية جديدة في النصوص الإنكليزية. كذلك استيحاء أساطير الشرق وحكاياته كمادة إبداعية جديدة على الأدب الإنكليزي، إلى جانب مسألة تطوّر صورة الشرق في المواضيع الأدبية الإنكليزية المختلفة. لقد رأى د. عويجان أن الشرق لم يعد في نظر الأدياء الإنكليز عالم السحر والغرائب، بل صار عالمًا بأناسه المسالمين أصحاب الحكمة، حتى أن نظرتهم إلى الإسلام أصبحت إيجابية بناءً بعد أن كانت عدائية هدامة. ويولي الكاتب عويجان أهمية للباحثين والمستشرقين، وما لهم من أيادٍ بيضاء على ثقافتنا في القرن الثامن عشر لما أسهموا فيه من «ترويج فهم أفضل لثقافة الشرق وأدبه... كما أرسوا قاعدة وطيدة للأدب الشرقي الحقيقي في إنكلترا» (عويجان، ص ١٠٢) ويرى الدكتور ريجاني أن الكاتب كأنه يردّ على إدوارد سعيد الذي قاس الاستشراق من خلال المستشرقين «بمقياس سياسي ينطوي على مقتربات سلبية نابعة من فكرة الاستعمار والتسلط والتبعية» (ص ١٧٣)، في حين بحث د عويجان في حسانات الصورة الشرقية في الأدب الإنكليزي وفي منافعها من باب التبادل الحضاري والأدبي بين عالمين متباعدين يربط بينهما الأدب. لقد أراد د. ناجي عويجان أن يدرس في كتابه هذا تلك الإيجابيات في الصورة الشرقية في الأدب الإنكليزي «ليجعل منه نموذجًا لما نُسميه اليوم حوارًا حقيقيًا للحضارات» (ص ١٧٣)

تجاوز الحطام يطل أيضًا في كتاب الريحاني «إشراقات الفنون» مع يعقوب الشدراوي في «الأمير الأحمر»، والياس الرحباني في «طائر اللقلاق»، ومع إبداعات منصور الرحباني الذي وصفه بالسنديانة الملونة، كذلك مع فادية الحاج التي وصفها بالجوهرة الموسيقية. هؤلاء الأربعة اختارهم المؤلف كنموذج لتجاوز الحطام بإشراقات الفنون، وكما استقى الكاتب من مارسيل بروس تعبيره في الموسيقى، نردّد نحن أيضًا معه: «كما أن بعض المخلوقات تُشكّل آخر دليل على أشكال حيوات منقرضة، أسأل نفسي ما إذا كانت الموسيقى النموذج الأوحى الذي كان يُمكن له، لولا اختراع الأبجدية والمفردات وتحليل الأفكار، أن يُشكّل لغة التواصل بين روح وأخرى...» (ص ١٨٠)

ويحتثنا من غير أن يدري إلى ملاحقة هؤلاء والتعرّف إليهم بتوسّع ودرس وبحث.

ويمضي قطار الريحاني بنا متجاوزًا الحطام، فنصل إلى قلم لبنان وسحر الشرق. نصل معه إلى كمال يوسف الحاج شهيد الكلمة والرأي، شهيد الحرّية، والمؤلف قد أسقط كلمة الشهيد عنه، لأنه يعتبره أكبر من كلّ شهادة، إذ كيف يُمكن للكلمة أن تستشهد؟ وصاحب هذه الكلمة فيلسوف أسس للفلسفة اللبنانية، وخصائصها: العقلانية، الواقعية، الروحية، العربية.

ونقف مع الريحاني في محطة أميرة الصالون الأدبي وأميرة الكلمة مي زيادة، وقد أقيم لها شاهدان، نُصّب في حرم جامعة سيّدة اللوزية، والآخر، قبل ذلك بكثير، رسم أعدّه ألبرت الريحاني في التلة المقابلة، في بيت الريحاني بالفريكة. فيا أيّتها الملكة القابعة سعيدة في الفريكة كما في جامعة سيّدة اللوزية، «ألم يضرب معك صاحب قلب لبنان في كتابه موعداً بعد ألف عام؟ هذا الموعد، يا مي، لا يزال يتردد في أرجاء الفريكة مع كلّ الزائرين من كلّ حذب وصبوب» (ص ١٥٢) وهو اليوم وغداً، سيبقى يتردد في حرم جامعة سيّدة اللوزية، وفي شحتول، كما في بيروت وفي كلّ لبنان والعالم العربي.

ننتقل مع الريحاني إلى الأدب اللبناني مترجمًا إلى الفرنسية، مع نجيب زكا، وكذلك من الأدب المهجريّ إلى الأدب العربيّ باللّغة الإنكليزية، باحثًا في تحديد الأدب المهجريّ، والأدب العربيّ-الأميركيّ، وقد تكلم على المعالم تأسيسية للأدب العربيّ-الأميركيّ. لقد تناول في هذا المجال أيضًا «لبنان في أدب المهجر الشماليّ» وهي دراسة أكاديمية أعدتها الطالبة ليليان جوان بإشراف د. ربيعة أبي فاضل. إن الإضاءة على هذه المواضيع مهمة للغاية، وبخاصة في عصر العولمة هذا. فهذه الدراسات والبحوث هي خطوة تأسيسية لإبراز هوية وطن صغير بمساحته، كبير برجالته المبدعين في هذه القرية الكونية.

ويخلص الريحاني في هذا الباب إلى إشكالية الشرق في الآداب الإنكليزية، من خلال كتاب الدكتور ناجي عويجان: «تطوّر صورة الشرق في الأدب الإنكليزيّ» والمترجم عن الإنكليزية The Progress of an image: The East in English Literature يثمن الناقد د. أمين الريحاني هذا النوع من البحث الأكاديمي ذلك أنّه يطرح إشكالية حوار الحضارات، أو تصادم الحضارات منذ القرن السابع عشر، وهو اليوم موضوع الساعة الأبرز والأهم مع نهاية

كان بنظر جبران، وغيره ربّما، الشاعر الكبير، وجبران كان بنظر الرّيحاني وغيره المصوّر البارِع المُحبّ. جبران ينتقل من بوسطن إلى نيويورك ليسكن في بيت الرّيحاني، وتدخل على خطّ الرّيحاني شارلوت ثلر صديقة ماري هاسكل، وقد عرّفه إليها جبران. وحدث ما حدث بين الصديقين الحبيبين فعكّر من صفو هذه العلاقة مع بداية عام ١٩١٢، ربّما بسبب شارلوت ثلر! تكتب شارلوت إلى ماري هاسكل في ٢١ كانون الثاني ١٩١٢ قائلة: «أمين وجبران يتناقشان في أمري... يشعر خليل أنّني غير صادقة مع نفسي. الرّيحاني مخلص تماماّ وصريح... أمل ألا يتصادما، لأنّ صداقتهما ذات قيمة كبرى لكلّ منهما، وسوف تفيد العالم». (ص ٢٠٣) ماذا يفهم القارئ ممّا يجري؟ ومن يقرأ هذا الفصل من كتاب تجاوز الحُطام ولديه معرفة سابقة بعلاقات جبران الغرامية يُمكن أن يستنتج أشياء مختلفة. ماري هاسكل لم تكن ربّما سوى الوجه الآخر لولادة جبران، ولعلّ لدى جبران ما يُسمّى بعقدة أوديب التي أشار إليها أكثر من عمل أدبيّ روائيّ، من مثال رواية دي-أتش-لورنس «الأبناء والعشاق» Sons and Lovers، وهذا النوع من الحبّ موجود في كلّ زمان ومكان. أحبّ جبران ميشيلين في نفس الوقت الذي كان فيه مرتبطًا بماري هاسكل، وقال قوله المشهور: ليت روح ماري في جسم ميشيلين. ولعلّ شارلوت هذه هي البعد الآخر لميشيلين، والكامن في اللاوعي الجبرانيّ. وعلى الرغم من خروج شارلوت من حياة الاثنين مع زواجها، فقد بدأت مرحلة الخلاف بين الصديقين، وقد تجلّت في مؤتمر باريس، وفي لجنة تحرير سوريا ولبنان، والرّابطة القلمية. إنّ هذا الفصل مثير جدًّا، ويهمّ كلّ قارئ عربيّ، ولقد أماط الكاتب اللثام عن قضايا مهمّة جدًّا، في عالم الأدب والبحث الأدبيّ. أرى أنّي قد أطلت كثيرًا، وأرهقت القارئ الكريم بما ورد من وصف في هذا النقد لكتاب في النقد، فتنوّع الموضوعات الملفتة، وأهمّيّتها الأنبيّة، وأبعادها الثقافيّة والأدبيّة واللّغويّة، وقوّة الكلمة لدى الكاتب، كما وأسلوبه الجذّاب، كلّ هذا دفعني، من دون أن أدري، لكي أشارك مع القارئ في طرح أفكار الكتاب الرّئيسة، والتعريف بهذه الموضوعات المكثّفة والدسّمة جدًّا. الكتاب يحتاج إلى مناقشة مستفيضة تُجرى في ندوات خاصّة، كما يُمكن أن يكون مادّة أوليّة لدراسات أكاديميّة معمّقة، لبنانيّة وعربيّة، وذلك في موادّ الأدب والنقد واللّغة.

وأخيرًا، يصل قطار الدكتور أمين إلى محطّته الأخيرة، إلى محطّات ريحانيّة، تجاوزت الحُطام منذ أوائل القرن العشرين، وغادرت محطّة هذه الدنيا بحُطام من على «كوع» يربط قرنة الحمراء، قرية أمّه، ببلدة الفريكة، وذلك في أيلول من عام ١٩٤٠. انتقل أمين فارس الرّيحاني إلى عالم أرحب إلى «سعة قلوب الناس، إلى آمالهم والتطلّعات، إلى فضاء الأمانى المستحيل...» (ص ٢٢٥) انطلق إلى مدينته العظمى التي يقول فيها: «النور والحبّ والإرادة، كلّ منها ضروريّ كالآخر. والواحد منها خطّ من دون الآخر. النور والحبّ والإرادة هي الينابيع الأزليّة والحيويّة الثلاثة للحياة الكونيّة الأسمى والأصدق والأنقى... في بحيرات النور والحبّ والإرادة سوف أُعمّد البشريّة جمعاء».

في هذه المحطّات الرّيحانيّة من كتاب تجاوز الحُطام، يُطلعننا الدكتور الرّيحاني على كلّ جديد بالنسبة إلى عدد كبير من القراء، وبخاصّة في القصّة الكاملة بين الرّيحاني وجبران. هذه القصّة في كيانها فريدة تشدّك إليها فتعايشها حيث تتمثّل: بأمكنة معيّنة (باريس، لندن، نيويورك، بوسطن، وغيرها). وبأزمنة محدّدة بين سنة ١٩١٠ و١٩٢٠، وبشخصيّات ارتبطت بعالم النهضة العربيّة. يُمكن أن تكون هذه القصّة مستقلّة، لو أنّها لم ترتبط بتجاوز الحُطام. أحداث القصّة تتناول مرحلتين من حياة «عملاقين من عمالقة الأدب العربيّ الأميركيّ في مطلع القرن العشرين»: مرحلة الصداقة التي بدأت بين باريس ولندن عام ١٩١٠. إلى الإقامة معًا في بيت الرّيحاني في أحد منعطفات الجادّة الخامسة في منهاتن السفلى في نيويورك، وإلى الاحتفال بصدور كتاب خالد للرّيحاني المزيّن بسبعة رسوم لجبران. والكاتب يبيّن مدى هذه العلاقة الوثيقة التي كانت تربط بينهما، وما فيها من محبة خالصة، وإعجاب، وتقدير. لقد استقى المؤلّف هذه الإشارات من رسائل متنوّعة بين الرجلين وبين جبران وماري هاسكل. الملفت للنظر والجديد في هذه العلاقة أنّ جبران يكتب إلى ماري هاسكل في ٥ حزيران من عام ١٩١٠ يقول: «أنا أنتظر مجيء صديق قادم من سوريا إلى باريس في طريقه إلى لندن. هذا الصديق الذي يُدعى الرّيحاني شاعر كبير...». (ص ١٩٣) وأمين الرّيحاني يكتب إلى والدته وشقيقته عن زيارته للندن قائلاً: «وكان معي صديقي جبران خليل جبران وهو المصوّر السوريّ الذي كنتُ أذكر اسمه في البيت معجبًا، فقد أحببته وقضيتُ وإياه في هذا البلد أيّامًا جميلة...». (ص ١٩٤). نستنتج هنا أنّ الرّيحاني



د. جميل الدويهي

«تجاوز الحطام» للدكتور أمين ألبرت الريحاني رؤى نقدية تتخطى الحطام إلى أفق جديد

تارة، ونعلق بها تارة أخرى، وما نزال نضطرب في حباتها إلى الآن. وإذا انتقلنا إلى الشخصيات الأدبية التي تناولها الكتاب^(*)، فإننا نجد أنها تختلف طبعاً ومنهجاً في الكتابة، فبعضها يخوض فلسفة الأدب، كإميل معلوف، ورياض فاخوري (فلسفة الشعر). وبعضها الآخر من الروائيين، والبعض الثالث رهط من الشعراء الذين تتعدّد ميولهم ومذاهبهم... وهذا التنوع في مناقشة الأعمال الإبداعية المختلفة إنّما يدلُّ على طول باع لدى الكاتب، ودراسة واسعة بأصول النقد والدراسة، ومعرفة بأنواع الفنون وأنماطها ومدارسها، ما لا يتوفّر للعديد من النقاد والباحثين. وقد أدخل أمين ألبرت الريحاني في كتابه مقاليتين عن اللغة، قبل أن يصل إلى إشارات التوهج عند الكتاب والشعراء والفنانين الذين تناولهم. وعلى الرغم من التباعد الموضوعي البسيط بين اللغة، كمخزون لسانيّ في الأصل، وأسلوب تعبيريّ يقوم عليه الأدب، وبين الأدب نفسه الذي يعتبر وليداً من مواليد اللغة، لكنّه يسبقها في التعبير عن المشاعر، والأفكار والهجوم الإنسانيّة... فإننا لا نرى مشكلة في هذا الإقحام، فهو يكمل الموضوع ويغنيه. ونرجح أنّ مقالتي اللغة هما محاضرتان أو مقالتان منفصلتان في الأساس عن الفكرة العامّة للكتاب. وقد ارتأى الكاتب أن يدرجهما لأهميتهما النقدية والتثقيفية. ويمضي الكاتب في جردة مفصّلة على الأعمال المتوهّجة، المتجاوزة للحطام، ونستشفُّ من خلال الكلام أنّه كان في الماضي البعيد أو القريب، معاصراً لبعض أصحابها، عارفاً بشخصياتهم وميولهم: «كنت في سنّ اليافع يوم كان (جميل جبر) يتردّد على الوالد في دارة الفريكة كما في دار الريحاني للطباعة والنشر في بيروت» (ص ٦٦). ويعترف الريحاني بأنّه قد لا يكون

ينطلق د. أمين ألبرت الريحاني في كتابه الجديد «تجاوز الحطام» من المعاناة اليومية، في إطار الواقع السياسي والاقتصادي والفكري المحيط بنا، إلى رؤى نقدية ذات أبعاد، يمتزج فيها المؤلف مع الجديد والمبتكر، والموروث مع الانفعال الذاتي، أي النقد الانطباعي، وهو أفضل أنواع النقد في نظرنا، إذا توفّرت للناقد المشتغل فيه حاسة نقدية ثابتة، وفكر أدبي مرموق. لقد عبّر العنوان: «تجاوز الحطام» عن تواصل بين الأدب، كمفهوم حضاري وإنساني نبيل، وبين الواقع العتم؛ فالنور هو ظلام تلاشى، والظلام هو نور يختفي، وليس بين الضوء والظلمة إلاّ خيط دقيق من اللون الرماديّ الذي لا يكاد يرى. فالريحاني يعبر مع العابرين بالأدب فوق الحطام، وكأني بأصحاب هذا الأدب لا يستطيعون نسيان المرحلة (وإن كانوا أرادوا الخروج من زمنها إلى عصر جديد). وهذا البقاء في ضجّة الذكريات أمر طبيعيّ، لأنّ الحقبة السابقة من النار والرماد حضرت لها في العقول آثاراً لا تمحى، ورفعت على بياض الذات أعمدة اللهب، عالية ليس من السهل إطفائها. ولعلّ ما حدث للأدباء اللبنانيين، في الحرب الموصولة، يشبه إلى حدّ بعيد ما مرّ به شعراء الجيل السابق من الأدباء الفلسطينيين، فسُمّي جيلهم بجيل النكبة، أو أدباء النكبة. نعم نحن أيضاً جيل النكبة، وجيل الحطام الذي نحاول أن نتجاهه فيعود إلينا أو نعود إليه. وقد لفتني، في الأونة المديدة من عمر الحرب، وقبل أن أقرأ «تجاوز الحطام» مواضيع أدبية داكنة تتشابه، منذ «طواحين بيروت» لتوفيق يوسف عوّاد، و«كوابيس بيروت» لغادة السمان، و«عبور الركام» لأنطوان الدويهي... وجوهر التشابه هو أنّنا وقعنا في شبك الذكريات، نتفّلت منها

(*) تناولنا في مطالعتنا المقالات حول الشعر والنثر (قبل ص ١٧٥)، أمّا ما بعد ذلك، فنتركه لأصحاب الاختصاص.

حيادياً في نقده لأنطوان غطّاس كرم: «كيف يمكن أن تكون حيادياً في الحديث عمّن تحب؟ كيف يمكن أن تدّعي معالجة حيادية حين يكون موضوع الكلام متداخلاً في ثنائك وأحشائك والوجدان؟» (ص ٣٥).

إنّ في هذا الإقرار بشيء من التحيز شجاعة وجرأة، حيث أنّ المؤلف لدى النقاد الأدباء بالتجرّد إلى أبعد الحدود، حتّى يصل الأمر ببعضهم إلى التجريح بأصدقائهم من باب التظاهر بالحيادية، فتكون تلك الحيادية المزيفة حدّاً جارحاً، وطعنة نجلاء مؤلمة.

وعلى الرغم من أنّ كثيراً من المطالعات النقدية في الكتاب (وليس كلّها) اعتمدت على الانطباع، والقراءة الخاصة، في معزل عن المقاييس النقدية الموضوعية مسبقاً، فإنّ الكاتب يسوق مجموعة من الأفكار النقدية المهمة، فهو يشيد بالموضوعية العلمية الصالحة في كلّ مكان وزمان، وبالواقعية التطبيقية الصالحة هي أيضاً في كلّ زمان ومكان (ص ٥٤). كما ينفي خضوع الأدباء الكبار لمذهب واحد: «فمن استطاع أن يشقّ الطريق لنثره وشعره ولغته، فلا يستطيع أن يكون رهين المحاسن الثلاثة، أو سجين صوامعها، أو حبيس أيّ من أبراجها الأدبية، لأنّه شاء منذ أوّل الطريق، وحتّى النهاية، أن يكون ذاته ولذاته من ذاته، قبل أن يتواصل مع الآخرين» (عن سعيد عقل، ص ٧٢). وفي حديثه عن شوقي أبي شقرا يتناول الناقد نظرية مهمة هي نظرية «معنى المعنى» أي المعنى الخلفيّ، الذي لا يمكن تناوله باليد الممدودة، بل هو يحتاج إلى فكر خلّاق وجهد من المتلقّي. وهذه النظرية انتشرت في فترة واكبت الرمزية وتلتها مع الدادائية والسورالية. وفي اعتقادنا المتواضع أنّ شوقي أبي شقرا ليس سورالياً خالصاً، بل هو سوراليّ مطعم بالدادائية، والمدرستان في الأصل مدرسة واحدة، إذ تفرّعت السورالية عن جماعة دادا (بعد عام ١٩٢٢).

واللافت أنّ الريحاني معجّب إلى حدّ بعيد بقصيدة النثر، المتباعدة عن الوزن والقافية، المتفلّته من الضوابط، التي تحدّ من قدرة الشاعر على التعبير عن مكونات نفسه. فقصيدته النثر في الغالب تقوم على الرمز و«معنى المعنى» وتستمدّ موسيقاها الداخلية (لا الخارجية) من التراكيب الجديدة، وتفجير اللغة، وتغيير وظائف الكلمات، وحشد الصور. وقد تناول الكاتب بالنقد الإيجابي بعض شعراء الحداثة، لكنّه أيضاً تناول شعر سعيد عقل بكثير من التقدير، كأنّه يريد أن يثبت عدم تحيُّزه لقصيدته النثر (وهو من شعرائها)، فالإبداع إبداع في النهاية، مهما كان الثوب الذي يرتديه.

وينتقل الناقد الريحاني إلى مجال القصص، فيناقش في من ناقشهم، جورج شامي، ويتحدّث عن «اللحظة الحرجة» أو «اللحظات الحرجة» عنده (ص ١١٢)، وهي في الحقيقة تلك الحالات البشرية جميعاً، التي يتابع جورج شامي سيرها ونموّها وتطورها وتقلباتها الفردية والاجتماعية، كجزء لا يتجزأ من عملية بناء اللوحة الروائية المتكاملة (ص ١١٤). وفي المحور القصصي نفسه، يتوجّه الكاتب بمجموعة من المسائل التوضيحية إلى شوقي خير الله، ما يشير إلى نقاش سابق بينهما، أو اختلاف في الرأي بشأن طبيعة العمل القصصي الحداثي. ولسنا في وارد ذكر تفاصيل تلك المسائل التوضيحية لضيق المجال (ص ١٢٩ وما بعدها)، لكننا نستشفّ منها دراية وخبرة في معالجة النصّ الروائي، وفهماً عميقاً لطبيعة الأدب والأديب، وإصراراً على تظهير الحقيقة في جرأة ووضوح.

ولكي يقطع الريحاني حبل اللغة النقدية الجافّة، اعتمد على لغة أدبية في الكثير من جولات النقاش البنّاء، فانتقل بنا من جوّ غائم إلى مناخ ربيعيّ صاف، وجعلنا نتجوّل بين لغتين: واحدة علمية متّزنة، وأخرى أدبية متحرّرة. فإذا كان ذلك التنوع مقصوداً لذاته، فإنّما ينمّ عن ذكاء وحنكة، ومراعاة لخواطر المتلقّين، وإذا كان غير مقصود، فإنّه يُظهِر الطاقة الأدبية الفريدة للناقد، التي لم تستطع السحب الرمادية أن تحجبها عن الأبصار والعيون: «أيها المطلّ علينا بجعية الأرض البياب لتمدّها من جديد خضرة في النفوس، نلمح قبّعتك من بعيد فنتهب» (ص ٣٥). أو «في ليلة مقمرة من ليالي الصيف اتّفق أن شاهد بعض المارة على رصيف الأدب، شاهدوا من بعيد شاباً نحيلاً يلج درب القمر، متأبطاً تُؤز الإله، يهبط سطح المدينة» (ص ٦٠). أو: «يعرف كيف يبدد الظلمة الحالكة ليكون خيطاً رقيقاً من خيوط الشمس؛ يعرف كيف يطرح السواد القاتم، سواد الفحم الداكن، ليستحيل لهب الأشياء» (ص ٦٨)... وهل بعد هذه اللغة لغة أدبية تتخطّى حدود الأدب، وتقتحم فضاء النقد لتخفّف من حدّته، وتملأه جمالاً وعذوبة؟

لقد كان كتاب «تجاوز الحطام» وجبة فكرية- نقدية- أدبية قلّ نظيرها، في زمن انكفاء النقد الصحيح، وتحول الدراسات، في الغالب، إلى مطالعات زهيدة، تجهد في إيصال الفكرة، أو تروّج لأعمال متواضعة لا تستحقّ المكافأة والمديح. وهذا الرصد النقدي الذي يقوم به أمين ألبرت الريحاني لملاح الحركة الأدبية في الزمن الموجه هو تجربة رائدة، ستغني مكتبتنا الأدبية، وسيرتوي منها المثقّفون والأدباء إلى أمد بعيد.



«فؤاد حدّاد والقضية اللبنانية»

لبنان مساحة روحية، ولا قيمة لوطن من دون شعب حرّ

بعد نصف قرنٍ وسنواتٍ خمس. سلّط الضوء على أوراقٍ منسيةٍ للصحافيّ الأديب فؤاد حدّاد. تُظهِر دوره في الشهادة لوطنٍ اعتبره مساحةً روحيةً تميّز بتنوّعٍ إنسانيٍّ في ظلّ حريةٍ هي الأساس في تكوينه؛ ولأجل هذا الوطن وحرّيته استشهد.

الضوء على اسم فؤاد حدّاد ونتاجه وسيرته ومسيرته. ظهر في كتابٍ جديدٍ لجوزف أبي ضاهر تحت عنوان: فؤاد حدّاد والقضية اللبنانية. صدر في منشورات جامعة سيّدة اللويزة (٢٣٠ صفحة قطعاً وسطاً مع صور ومخطوطات). احتفل به في لقاءٍ جمع أدباءً أعلاماً: سهيل مطر، محمّد ماضي، إدمون رزق، عبد الرؤوف سنو وجورج شامي في حرم الجامعة (قاعة بيار أبو خاطر). مساءً التاسع من نيسان ٢٠١٣.

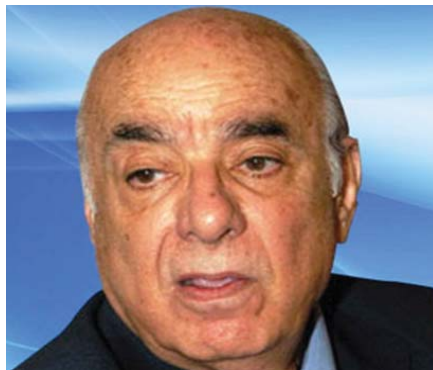
بعد ترحيبٍ من ندى سعد صابر وتقديم الخطباء، استهلّ اللقاء نائب رئيس الجامعة لشؤون الثقافة والعلاقات العامة سهيل مطر مختصراً المؤلّف بينبوع عطاء، وُلد لكي يُحبّ ويُحبّ... ثمّ عرض لملامح من سيرة فؤاد حدّاد منذ وُلدته أمّه الأدبية حبّوبة حدّاد سنة ١٩١٥، ودراسته وسفره معها إلى أميركا حيث التقت جبران وأعضاء الرابطة القلمية، وعودتهما إلى لبنان، وعمله في الصحافة وفي دار الكتب الوطنية فوزارة الأنباء، وتعيينه رئيساً لدائرة الفنون الجميلة في وزارة التربية، وانجذابه إلى السياسة التي أعطاه الكثير من كتاباته، وصولاً إلى ثورة ١٩٥٨ التي بدأت بمقتل الصحافيّ نسيب المتني وانتهت باستشهاده هو فؤاد حدّاد، لافتاً إلى سلسلة الندوات التي ألقاها حدّاد حول القضية اللبنانية (موضوع الكتاب) ومختصراً بعض عناوينها. وختم بأمل: «أنّ تحمل هذه الجامعة همّ القضية اللبنانية، بعيداً عن الصغائر والحزبيّات وسخافات بعض النّاس، كي نعمل جميعاً، من أجل المستقبل، من أجل الخير العامّ، ومن أجل لبنان».

إدمون رزق

الكلمة الثانية كانت للوزير والنائب

السابق إدمون رزق، جاء فيها:

«منذ ستّة عقود، شدّنا إلى فؤاد حدّاد، سلّكُ «القضية اللبنانية». كانت قبله حُلْمٌ شعبيّ، آلت إليه أمانتها، رَفَدَها فكراً، رَوَّاهَا دَمًا، لتستمرّ من بعده. لولا الرّوادُ، ما أبدعوا وبذلوا، ما كانت الآيةُ المشرفيّة، ولولا الوفاءُ ما بقيت! (...).



عرفته في ركنٍ «حصاد الأيّام» وزاوية «نقدات» من جريدة «العمل»، محللاً رصيناً، واثقاً بنفسه، نفاذ التوريّة، موجع الظرف، مباشر التوجّه، بتصميم الهادف وجرأة الملتزم، خصوصيّة أسلوبٍ تميّزت به أقلامٌ لبنانيّةٌ، يجمعُ شمولَ الثقافة، علماً وفناً، أدباً وتاريخاً، إلى سلامة اللغة وأناقّة العبارة».

بعدها انتقل رزق إلى الكلام على معرفته بحدّاد وقد توقّعت بعد لقاءاتٍ في كوكبة من رعيّل مجلّة «الحكمة» حول فؤاد كنعان، وأعلام الفكر في «ندوة» ميشال أسمر، وفرسان الشعر اللبنانيّ في مجلس غنطوس الرامي وفاضل سعيد عقل وأصدقاء (...).

أضاف: منذ عام ١٩٥٦، تجلّت شخصيّة فؤاد حدّاد الوطنيّة والانسانية، هو ابنُ جبل الباروك، وريثُ الحضارة المتوسطيّة، وحيّدُ الأمّ المنجبة، فتى لبنان، فلا مساومةً على الجوهر ولا تردّد في الموقف. لا مسابرة في المبادئ ولا نسبية في مُطلق القيم، لا خشيّة تهديدٍ او حساباً لخطرٍ؟



التي كتب عنها حينما كان رئيساً لقسم الفنون الجميلة في وزارة التربية الوطنية، بتوجيه من السيدة الأولى زلفا شمعون... وكان الرئيس كميل شمعون يفتتح المعارض الرسمية التي كان فؤاد حدّاد يُقيمها للرّسامين والنحاتين في ذلك الزّمن».

في المحور الثاني، عرض لمسيرته القصيرة مذكراً بالمقال الأخير الذي كتبه في جريدة «العمل» عن فوز شارل مالك برئاسة الجمعية العامة للأمم المتحدة (١٩٥٨ - ١٩٥٩). لم يرق مضمونه للمتربّصين به شرّاً، فأوعزوا بخطفه وإخفاء صوته... خُطف «أبو الحن» وقتلّه خاطفوه... كسروا قلمه بالرصاصة... فسأل حبره وسأل دمه...

هذا هو قدر أهل الرأي والثبات والمعرفة... أن يختنقوا بحكم يُصدره متربّص جاهل متعصّب حقود...

في المحور الثالث، أشار إلى كتابات فؤاد حدّاد في السياسة، وكانت موجعة، وهو آمن ببلبنان وطناً حراً مستقلاً غير منحاز (...). انطلق لسانه ثمّ قلمه بما يؤمن، من دون أن يخشى الدولة آنذاك (وكان موظّفاً)، ولا وشاية العسس المتربّصين المندسّين في جميع المرافق.

في المحور الرابع عرض لرأي الكاتب أبي ضاهر القائل «بأن فؤاد حدّاد وقع في الحدة الكلامية (...) وهو يوم كتب، أو حاضر، أو قال رأياً كان مدفوعاً بمشاعره عمودياً نحو ما يريد أن يُقرأ أو يُسمع أفقيّاً. شجاعته سرّعت في دفع ما اختزنه إلى العلانية، قبل المراجعة والتدقيق وغسل ما علق بها من (هوس) غبار الأزمنة، ومن مصادر كانت تأتي من نبع واحد أو من ينابيع متقاربة..».

... وخلص إلى أنّ أبي ضاهر برع في تحديد مواقف فؤاد حدّاد إزاء الوطن.

اختار فؤاد حدّاد المواجهة، لم يتردّد في رأيٍ جَهراً ولا خافٍ من باغٍ قَهراً، فله، في يومه، شهادة واعتراف.

أشهد أنّ استشهاده كان إشارة الصحوة الوطنية وعلامة الانقاذ. لولا تضحيته الطوعية لخدمت الجذوة وباتت رماداً. هو أبو ثورة الحق، دمه عُربون انقاذ الصيغة اللبنانية، ودينه في الأعناق، إلى جيلٍ وجيل.

وختم الوزير رزق «أعترف أنّ ملحمته أحدثت تحولاً في حياتي، فقد سارعتُ التقطُ قلمه وأكتبُ عنه في جريدته، ثمّ استجبتُ دعوة رجلٍ كبير أحببته واحترمته هو الشيخ بيار الجميل، لأتولّى كتابة «من حصاد الأيام»، يوميّاً مدى تسع سنوات، حريصاً على إحياء ذكرى استشهاده فؤاد حدّاد، عامّاً فعامّاً، وما برح ماثلاً في وجداني، أستحضرُ طيفه مع أحبةٍ غابوا، يُغبطني أنّي جلستُ إلى مكتبه، استلهمتُ روحه وكتبتُ بقلمه، آلاف المقالات!

اليوم، بعد خمس وخمسين سنةً من عبوره إلى فرح الأب، يظلُّ فؤاد حدّاد ماثلاً في ضميري وفي ذاكرة الوطن. ويأتي الصديق الطيّب، اللبنانيُّ النبيل، الشاعرُ النائر، جوزف أبي ضاهر، ليقدّم هذا الكتاب الرائع، عربونَ إيمان بالقضية التي افتداها فؤاد حدّاد، والتي ترتاحُ إلى أقلام الأحرار.

محمّد ماضي

الكلمة الثالثة لمحمّد ماضي (مدير عام وزارة الثقافة سابقاً) قسمها إلى محاور خمسة:

في الأول أضاء على شخصية فؤاد حدّاد «الساحر من السياسيّين وقد جلدتهم بأسواط الاستهزاء (...) وهو انجذب للكتابة عن الوطن والحرية والقضية اللبنانية... من دون أن يُهمّل أنواع الفنّ،



أضاف: «يعترف فؤاد حدّاد بأنّه ليس مؤرّخاً، بل قارئ جيّد للتاريخ يطلّ من الماضي على الحاضر ليفهم المستقبل، ليخلص إلى أنّ لبنان هو قضية واحدة على مرّ العصور، حتّى اليوم، قضية سحيقة العمق في التاريخ، ولا تعود إلى الماضي القريب، بل إلى شعب تضرب جذوره الحضاريّة في الأرض، عاش على الحرّية، منذ أن أوجد الفينيقيّون نظاماً سياسياً ديمقراطياً يقوم على الحرّيات الشخصية ومشاركة الشعب في الحكم، كما عاش على رقعة جغرافيّة صغيرة فزاده ذلك تماسكاً، وجعله اقتصاده أن يلتفت إلى البحر ويعشقه، حاملاً أبجديّته وتجارته ناشراً حضارته على ضفاف المتوسط، فكان وسيطاً للحضارة والتجارة، لأنّ البيئّة الجغرافيّة برأيه، بحراً وجبلاً، بإيجابيّاتها وسلبيّاتها، هي التي صقلت شخصيّة شعب لبنان، بعدما تفاعل معها عبر التاريخ».

وبعد عرض للمراحل المفصليّة الحسّاسة من تاريخ لبنان المعاصر منذ خروج العثمانيين وتأسيس دولة لبنان الكبير وتوافق ودوره الحضاريّ، تناول الدكتور سنّو الكتاب فقال: «حاول الأستاذ أبي ظاهر أن يستخلص آراء فؤاد حدّاد وثوابته تجاه لبنان من خلال كتابات الأخير ومحاضراته العديدة، معتمداً منهجية الاقتباس عن حدّاد، والشرح والسرد التاريخيّ للأحداث والوقائع، سواء في المتن أم في الحواشي. وقد وفق المؤلّف في ذلك، وفي كلّ صفحة من كتابه يشعر القارئ بهاجس الخوف عند حدّاد، وربّما عند المؤلّف نفسه، على الكيان الصغير، وبأحاسيس مملوءة بالرفض والتحدّي وبالغفوان والوطنية، حتّى أنّ مصطلح الحرّية لا يغيب عن صفحة واحدة من صفحات الكتاب، فيعتقد حدّاد أنّ جغرافية لبنان شكّلت في الماضي كما اليوم عائقاً في وجه الحفاظ على استقلاله، من جرّاء غزاة يستبيحونه، كونه معبراً لهم من الشمال إلى الجنوب ومن الجنوب إلى الشمال، وغزاة يأتونه من البحر.

لقد وقف على حدّ الحقّ ولم يفقد توازنه. كان نقده صادقاً ووصفه بارعاً لا يُزاد عليه.

أنا شخصياً، أرى أنّ فؤاد حدّاد قد آمن بأنّ العمل في سبيل لبنان هو الأفضل والأجدى لبقائه... وأرى أيضاً أنّ العمل المبنيّ على العلم أنفع للوطن من دم يُراق وجسد يموت... فؤاد حدّاد عرف ما يريد، وجعل حقيقة مراده آخرون... والجهل أعمى قاد إلى إعماء البصيرة والنظر...

وخلّص محمّد ماضي في المحور الأخير إلى أنّ فؤاد حدّاد كاتب متمرّد ومُحقّ متجرّد. كان يكرز بما يؤمن، ويجهر بما يراه مثاليّاً، من دون النظر إلى واقع متدنّ وقادة لا يترفعون... قفز فوق أفكارهم وأهدافهم. ورسم للحقيقة موقعاً في مدار كوكب... أمّا الكاتب أبي ظاهر فرأى في فؤاد حدّاد ظاهرة ثقافيّة لبنانيّة، وإن اختلفت الآراء حول أقواله ونظريّاته، وقد جمع آثاره وأخرجها إلى النور في كتاب عصريّ، بأسلوب رصين، استفاد منه الأدباء والمثقفون والمؤرّخون والباحثون.

عبد الرؤوف سنّو

كلمة رابعة في اللقاء تناول فيها الباحث الدكتور عبد الرؤوف سنّو شجاعة فؤاد حدّاد وفكره. قال:

«لكلّ شخص في لبنان قضية يؤمن بها ويدافع عنها، وقد يهبُ حياته ثمناً لها، وهناك من يتخلّى عن قضيّته أو يبيعها بفضول أو ضغوط أو من أجل جاه أو منصب أو حفنة من المال. فؤاد حدّاد من النّوع الأوّل من الرّجال، شكّل لبنان قضيّته الثابتة ودافع عنها بشجاعة وعناد حتّى الشهادة. هو شخصيّة فكريّة بارزة شغلت الأندية الإعلاميّة والسياسيّة والثقافيّة في لبنان، حتّى بعد رحيله».



كان أبطال مجموعتي القصصية الأولى «النمل الأسود» من أبناء هذا الوطن الأشقياء التعساء المهملين المهمشين، فغاص مثلي على شقائهم وعذاباتهم وإحباطاتهم. أقطف أسطرًا من مقدمته، قال:

«لا يهَمُّ إلى أيِّ دَرَكٍ من الشقاء أو قعر من الفجور تتحطَّ المخلوقات، المهمُّ أن يريق خالقها دمه من أجلها وبدمه يجبلها، وأن تعرف أنَّها كيفما كانت تستحقَّ الفداء.

لا يكون شيئاً إذا لم يصلب هو ليؤمِّن لمخلوقاته القيامة.

يعني الثورة حتّى الموت. «وعلى المصير الذي يحده الموت».

أضاف شامي: باستطاعتي أن أجزم أن فؤاد حداد بنى منذ عام ١٩٥٤، وربّما من قبل هذا التاريخ على هذه القناعة: «الثورة حتّى الموت و«على المصير الذي يحده الموت» مداميك وشقّ أنفاقاً ليهرب من هذه الفانية إلى عالم الحقّ!

ليلة قال لي في المكتب الذي كان يكتب عليه «حصار الأيّام» و«نقدات» في الجهة الغربية من بيت الكتائب في الصيفي، في الجناح المخصّص لجريدة «العمل» وبغرد خارج السرب: «لقد خسرنا الحرب... خسرنا المعركة ومعها القضية اللبنانية».

- كان لا بدّ من وقود للإشتعال كي لا تنطفئ الثورة.

- أيّ نوع من الوقود تقصد؟ ومن أيّ عيار؟

- وقود من عيار كميل شمعون أو بيار الجميل أو شارل مالك... من أوكتان عالٍ، ليمتّ كبير من الكبراء... موت أيّ زعيم من وزن واحد من هؤلاء كفيل بتأجيج الثورة حتّى نحقق النصر. «لبنان واحد لا لبنانان» هذا توافق هسّ شبيه تماماً بتوافق «لا غالب ولا مغلوب». أنا يأس، القضية اللبنانية انكسرت وستراجع. الأيّام المقبلة ستثبت أنني على حقّ. سيتقلّص رصيدنا في بناء هذا الوطن. سنصبح عراة أشبه بالتائهين في البرية».

وفي تاريخ لبنان المعاصر، انصبّ قلق فؤاد حداد على لبنان، من غزاة يأتونه من الشرق أو من الجنوب، ما قد يُفقد استقلاله وسيادته، بل حرّيته، قاصداً بذلك قومية عربية تريد أن تلحقه، «وجازاً» صهيونياً يريد أن يبتلع أرضه ومياهه ودوره الحضاريّ وانجازاته. فيدعو إلى الصمود لمواجهة الخطر معوّلاً على الشباب: «إذا توقّف اللبنانيون عن تنفّس الحرّية، فقدوا مغزى رسالة لبنان. فلا قيمة لاستقلال أيّ وطن من دون أن يكون هناك شعب حرّ، واستقلال لبنان وحرّيته، هي برأيه، مسؤوليّة الشباب». وخلص سنو إلى أنّ حداد رأى في مواجهة الأخطار المحدقة بلبنان، مسؤوليّة جماعية تقع على عاتق كلّ لبنانيّ آمن بقضيّة لبنان، بغضّ النظر عن طائفته. وفي هذا السياق، يرى أنّ الفينيقيين ليسوا شعباً جديداً حلّ مكان شعب قديم، بل استمروا هم ذاتهم، وأنّ الإسلام ليس شعباً غريباً قدم إلى البلاد، ولا المواردنة شعباً غريباً ولا الدرروز كذلك. فالعقائد، برأيه، هي التي قدّمت من الخارج وحلّت محلّ عقائد أخرى. ويخلص إلى أنّ اللبنانيين شعب واحد منذ أن سُكنت هذه الديار، فصار فئة منه مارونياً، وفئة مسلماً، وفئة من الدرروز.

ومن يتّلع على الكتاب يدرك أنّ فؤاد حداد صاحب قضية حملها بقلمه وفكره وبمواقفه الناقدة وبدمه حتّى الشهادة، ولا أشك لحظة أنّ قضية حداد هي نفسها قضية أبي ضاهر وكلّ فرد منّا هنا وهناك، هي قضية واحدة، القضية اللبنانية التي تمرّ اليوم في أصعب مراحلها.

جورج شامي

الكلمة الأخيرة للصحافيّ الروائيّ جورج شامي، روى فيها «قصّته» مع فؤاد حداد وقد «بدأت عام ١٩٥٣ واستمرّت حتّى لحظة أسلم الروح... فؤاد انتحر... فجّر نفسه، مؤمناً بقديسيّة رسالته، كأنّه واحد من الكاميكاكاز، ولم يكن بحاجة لأن يستعمل أيّ حزام ناسف ولا أيّ مخدّر. وهو، على الرّغم من أنّ فارق السن كان قصيراً بيني وبينه، وتحديدًا لم يتجاوز ستّ عشرة سنة، يُعتبر عرابي في الأدب وفي الصحافة خارج جرن العماد، لا بالماء والميرون، بل بالحبر والكلمات!

أعذروني إذا ذكرت لكم ذلك، لا من باب التباهي، بل لأثبت لكم بالكلمات التي كتبها كمقدمة لأوّل مجموعة قصصية لي أنّ جلجلته بدأت منذ أوائل الخمسينات.



والجلاد لم يتغير، ولم يغير القناع على وجهه، مدفوعاً من داخل يأنمر بخارج. الأصوات ارتفعت بعد «الجمعة العظيمة» سنة ١٩٥٨، مطالبةً بكشف الفاعلين المجهولين - المعروفين. استمرت الأصوات صارخة حتى آخر أيام التعاوي.

بعدها؟ فلش النسيان جناحه القاتم على الزمان والمكان، وفلشه على الأصوات.

... وما زال الجلاد في مكانه يسخر من المحققين به. بعد نصف قرن على غياب فؤاد حداد، وسعت جامعة سيّدة اللويزه فتحةً للنور، فدخل إلى بعض نصوصه حول «القضية اللبنانية» لما زالت تواجه النقد والتحليل، والتأييد أو الرفض، والتأريخ... والشرق يفرق في وحل «النجيع العربي»، والحدق الأسود...

منذ ذلك الحين بدأ الموارنة يخسرون من حقوقهم ويتقلص دورهم ويتساهلون ويتخاذلون ويقتتلون ويتبادلون التهم، ويزنون الأمور في موازين العلل ويحضرون بمعاول نجسة وباطلة في أساسات الهيكل! وختم: أفنى فؤاد حداد عمره القصير رهين النضال لاحقاق هذه الحقيقة دون غيرها، كان وردة عجائبية لا مثيل لها، تتفتح في الليل على ديبب القلق الممزوج بالمتعة الصهباء، وتنطوي في النهار على ذاتها كأنها محارة استخرجت منها لألتها.

كلمة الختام

... وختم المؤلف جوزف أبي ظاهر اللقاء بإيجاز قال فيه: «لبنان حرة ومساحة روحية»: بهذه الكلمات الأربع اختصر فؤاد حداد الوطن الأوسع من مساحته الجغرافية... ولأجله كرس قلمه والعمر، شاهداً وشهيداً. لم يكن حداد الشهيد الأوّل في دولة الكلمة، ولا الشهيد الأخير.



خواطر حول اغتيال عاصمة



أنطوان رعد

تَفَسَّلُ الأمواجُ رجليها
وفي زُرْقَةٍ عَيْنَيْهَا
يَهَيِّمُ البحرُ لَيْلًا
مَنْ رأى قيسًا قد جُنَّ بَلَيْلِي؟

شرفاً كانت على التاريخ والدُّنيا
وجِسراً للحضارة
قُبْلَةُ الشَّمْسِ التي كانت مناره
جعلوا منها مغارة

عندما الجارُ على جيرانه
مارسَ الكَيْدَ وجارا
صارَ تيرُ المجد في تاريخه
تَيْبًا وصارَ الغارُ عارا

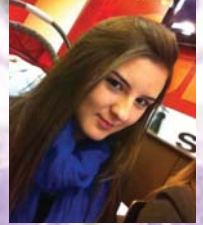
سرقوا عن هُدبها الكُحلَ ومن
قَلْبها الشَّمْسَ وأعيادَ الفرح
سرقوا قَوْسَ فُرْح

عذبوها بصقوا في وجهها
شَوْهُوا الوجهَ الرَّسولا
نهبوا خيراتِها عَرْضًا وطولًا
دَسَّسوا مرمزَ نَهْدِيها
أذُّوها استباحوها وظلَّتْ
رَعَمَ وحشيتهم بكرا بتولا

أَيَّ نصرٍ نتوخي
أَيَّ أمجادٍ عقيمه؟
في بلادٍ أصبحت
أرضَ البطولاتِ اليتيمه
إنَّما النَّصرَ الذي نسعى إليه
هُوَ في الواقعِ مرآةُ الهزيمة.

لم تَمُتْ لَكِنَّها حَبَّةُ قَمْحٍ
دُفِنَتْ تحتِ الصَّقِيْعِ
وغداً تحملُ في أحشائها
غَلَّةَ الصَّيْفِ وأحلامَ الرَّيْبِ

الحرية



نور سعد الدين

فرع الشوف- السنة الأولى/ هندسة معمارية

الحرية هي نبض الحياة، وسيف القلم،
وأمل الأسير، والحق الذي ينزل على
أكتاف الظلمة والظالمين، ويصعقها
بناره ويبدِّدُ شروها، ثم يرسم للنور دربًا
وللخلاص قممًا.

إنها كلمة لطالما ناضل الأبطال في
سبيلها، فحملوا شعلتها وساروا بها
مجاهدين، يدفعون الثمن غالبًا.
ثوراتٌ اشتعلت في شتى أصقاع العالم
باسم الحرية. إنها تندد بالحكم المستبد،
وبالأقتعة المزيّفة، وبالمتسلطين الذين
يسرقون بسمة الأطفال، ويرملون
النساء، ويقمعون الآراء، ويضيقون على
المبدعين...

ألاكم من الجرائم ترتكب بحق الانسان
والإنسانية! فلا بدّ إذا من ربيع.. ربيع
مزهري يبشّر بغير أفضل.

وليس لي إلا أن أنحني احترامًا وتقديرًا
لمن استشهد، ولمن لا يزال يقاوم
مستبسلًا؛ فإنهم الأبطال حقًا يصححون
مسار التاريخ!!

شعريّات



الياس زغيب

كلمة..

عيونك وهبّ الهوا!..

كلمة!
ومن بعدا الزّمان سكوت
بوزّع سنيني عَ الدّني بخشيش
بسّ اعرفي لَمّا الحكي بيموت
وتزهري بحلمي...
فيكي بكلمة تتركيني عيش؛
وفيكي بكلمة...

فيكي بكلمة تتركيني عيش
أو موت وحدي
ويلفتني النّسيان، بشراشف الوحدة
غيم الشّعرا! بعدو متل ما كان
طير الحكي اللي مسافر بُلا ريش
بي نَقودو، بي نَسّلو خيطان
وييشقعو صَفنة عمر هريان
كلنّ عَ بالي بيمرقوا دراويش...

عيونك وهبّ الهوا!
طاف السّحر، من غيمة طموحي...
وعم تدلف سطوحي..
وتراب؟
كانت ريحتو أوّل حكي
بسّ البكي، للنّاس لا تبوحي

عيونك وفاح الحلا
بهالليل لا تروحي!
عيونك وجنّ المدى
سامع صدى.. للورد
بجروحي

سنبل مباح وعد للذكّري
رغيف المسافة، طعمتو بكرا
وانت بشوق الزّهر بتموحي..

عيونك وسامع صدى!
وعم تدلف سطوحي...
جنّ المدى.. بهالليل
لا تروحي!

وحدا اللي وحدا بنظرا
بهجّي معا غيابك
وبلبّسا تيابك.. وتطلّيعه مرا:
كلمة!
وعم حمّلا شمعة صبح..
هوّسل بهالعتمة
بيالو مرا؟ تا تخلقو من صوت
بيوقع على تخت الصّدى زلمي
كلمة!
وعم بكتبا بحلمي...

بعديك أنا؟ منّي أنا وبخاف
مركب ضياع وما إلو مقدا
شو الصّوّ لو ما كنّس العتمة؟
شو الرّيح لو ما حرّك الصّفصاف؟

عيونك؟
وعم يكتبوا عليّ شعر
ووراقن جروحي،
وعم يغرفوا
من محبرة روحي!..



